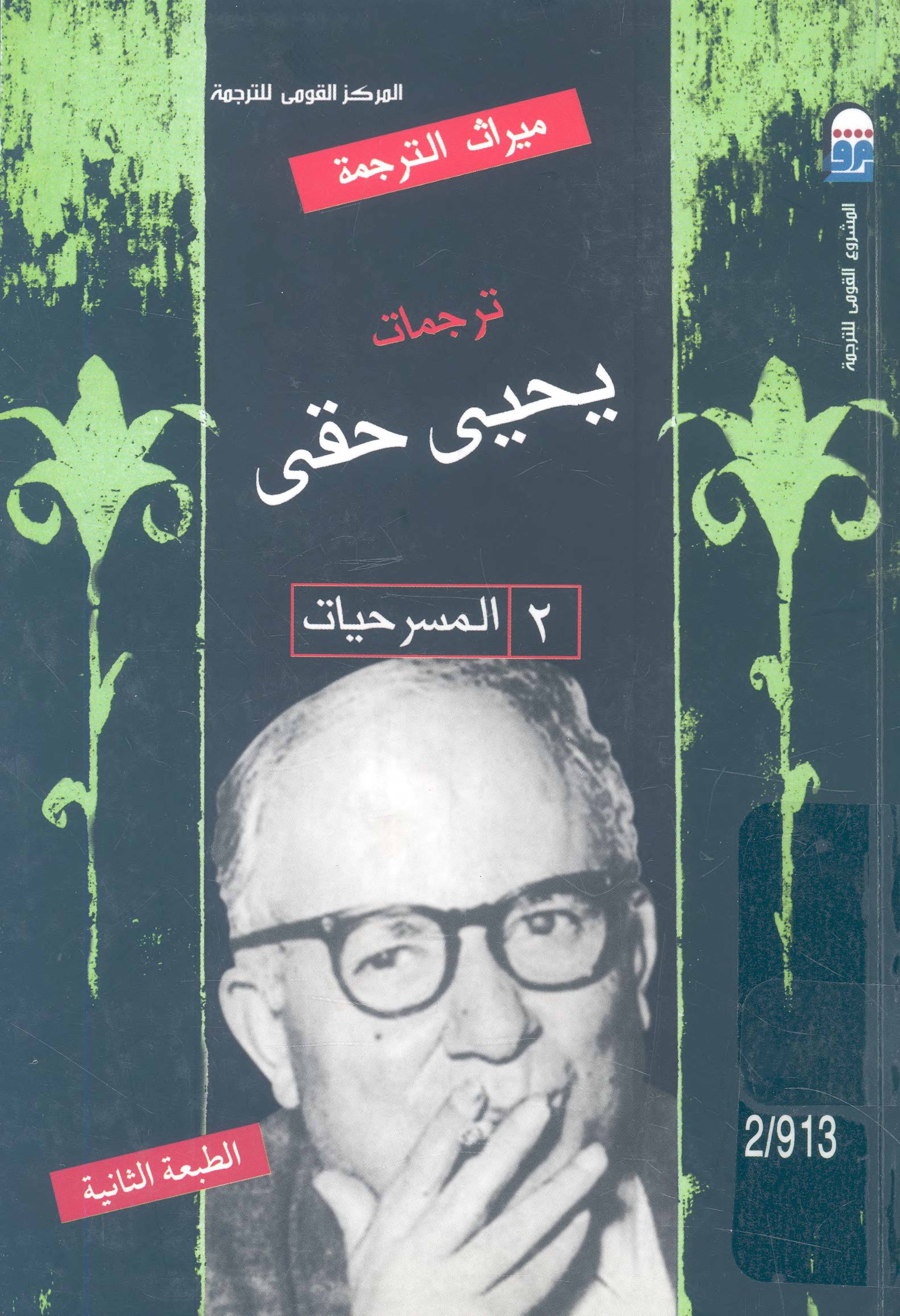

المركز القومى للترجمة
ميراث الترجمة
ترجمات
يحيى حقى
٢ المسرحيات
الطبعة الثانية
2/913

ترجمات يحيى حقى
٢- المسرحيات

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ٩١٣/ ٢
- ترجمات يحيى حقى: ٢- المسرحيات
- نخبة
- يحيى حقى
- ٢٠٠٩

هذه ترجمات يحيى حقى

٢- المسرحيات

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

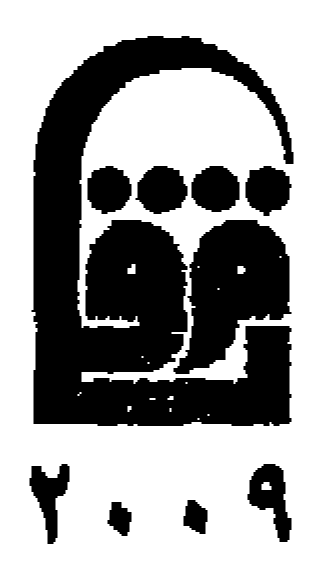
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

ترجمات يحيى حقى
٢- المسرحيات

تأليف: نخبة

ترجمة: يحيى حقى



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١٠٨٨٠ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 2 - 310 - 479 - 977 - 978
طبع بمطابع مصر للطيران

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

كنوك
أو انتصار الطب

تأليف: جيل رومان

"مثلت هذه المسرحية لأول مرة فى باريس على مسرح كوميدى شانزليزيه يوم ١٥ ديسمبر ١٩٢٣ تحت إدارة جاك هبرنو، وتولى لويس جوفيه الإخراج والديكور. وقام بأداء أدوار النساء: كوتان لامبير، إرمابيرو، إيزا رينار، ماج بيروبيه، ى تيسيران. وقام بأدوار الرجال: لويس جوفيه، أ. هيرو، انفرييف، جولتيه، بن دانو، ساليس، مامى، سانت أيل..."

مقدمة

مسرحية كنوك.. والهزلية الجيدة

بقلم الدكتور: محمد مندور

مسرحية "كنوك أو انتصار الطب". هـي بإجمـاع النقـاد وأساتذة الأدب خـير ما كتب مؤلفها الكاتب الفرنسـي المعاصر " جيل رومان"، بل هي المسرحية التي يقوم عليها الجانب الأكبر من مجد مؤلفها، فبها عرف وذاع صيته في العالم كله، وذلـك بالرغم من أنه شاعر وقصاص وفيلسوف لا كاتب مسـرحيات فحسب، وكل ذلك بالرغم من أن كثيرًا من أساتذة ونقـاد الأدب المسرحي وبخاصة في العالم الأنجلوسكسـوني يسـمون هـذه المسرحية فارس Farce أي هزلية، فهي تسمية – إذا صـح إطلاقها على هذه المسرحية الجيدة – جديرة بأن تجعلنـا نغيـر حكمنا العام على هذا النوع من المسرحيات الذي ننظر إليه دائمًا نظرة تضعه في أسفل السلم بالنسـبة للأنـواع الأخـرى مـن

المسرحيات، فالهزلية، بمعناها الدارج، مسرحية لا تستهدف إلا الإضحاك، وقلما يؤدى فيها الضحك وظيفة جادة ويكفيها أن تسرى عن مشاهديها، وذلك فى حين تعمر مسرحية كنوك بالحقائق النفسية والاجتماعية العميقة مغلفة فى روح السخرية المرة والتهكم اللاذع اللذين يمتاز بهما مسرح جيل رومان، وإن تكن وقائع المسرحية تبدو مبالغًا فيها إلى حد يكاد يبعدها عن الواقع، وبالتالى عن المعقولية وإمكانية الحدوث وهما شرطان يتوافران عادة لما نسميه الملهاة النقدية أو الكوميديا الاجتماعية، وهذه قضية سننظر فيها نظريا وتطبيقيًا بعد أن نقدم أولاً المؤلف جيل رومان إلى القراء.

ولد لويس فاريجول رومان وشهرته جيل رومان فى قرية سان جوليان شاتيل بفرنسا سنة ١٨٨٥، ولا يزال حيا حتى الآن، وبعد إتمامه لمرحلة التعليم العام فاز فى مسابقة مدرسة المعلمين العليا وهى مدرسة لا يتلقى فيها الطلبة دراساتهم العليا ولا يحصلون منها على درجات علمية، بل يدرس طلبتها فى الجامعة مع غيرهم من الطلبة، وماهى إلا بمثابة قسم داخلى يقيم فيه الطلبة المتفوقون الذين يجتازون مسابقتها بعد إعداد أنفسهم

لهذه المسابقة على إثر حصولهم على البكالوريا والانتهاء مــن مرحلة الدراسة الثانوية، وهم مقيمون فى هذه المدارس مجانــًا، بل ويمنحون مكافأة شهرية، وفى هذه المدارس مكتبات كبيــرة يستفيد بها طلبتها. واجتياز مسابقة مدرسة المعلمين العليا أمــر شاق، ولذلك يعتبر الفائزون في مسابقتها صفوة الشبان ويظل كل واحد منهم يعتز طول حياته بقبوله فيها. وبعد أن حصل جيــل رومان على ليسانس الدولة فى الفلسفة من السوربون، أخذ يعــد نفسه للتقدم لمسابقة الأستاذية (الأجرجاسيون)، وهى مســابقة ضخمة عنيفة تعقدها الجامعة كل عام ليتقدم إليها الطلبــة بعــد التحضير لها لمدة عامين كاملين. والغاية منها هى اختيار الشبان النابغين الذين يصلحون للتدريس بالمدارس الثانوية، ومن يفــوز فى هذه المسابقة لا يعتبر مدرسًا، بل يعتبر أستاذًا بكل معــانى الكلمة. ولقد فاز جيل رومان فى هــذه المســابقة ســنة ١٩٠٩ فأصبح بذلك أستاذًا فى الفلسفة.

ومع ذلك لم ينتظر جيل رومان حصوله على لقب الأستاذية لكى ينادى بمذهب فلسفى اجتماعى جديد سماه مــذهب "الكليــة" **Unanisme** الذى أعلنه منذ سنه ١٩٠٣ وهو مــذهب أو مــنهج

يرمى إلى تصوير الروح الموحدة التى تحرك كل مجتمع بشرى، وقد أوحت إليه بهذه الفكرة تعاليم أساتذة علم الاجتماع الذين تلقى عنهم العلم فى السوربون. من أمثال رائد علم الاجتماع الحديث العالم الكبير "دور كايم" وزملائه من كبار الأساتذة مثل: "ليفى بريل" وغيره.

وبالرغم من دراسة جيل رومان للفلسفة بفروعها المختلفة وتخصصه فيها، فإن مواهبه الشعرية والأدبية، قد أخذت تظهر منذ وقت مبكر، إذ رأيناه يشترك مع عدد من شبان جيله الأدباء والشعراء أمثال "شنفيير" و "ديهاميل" و "فيلدراك" و "أركوس" فى تأسيس ما يعرف فى تاريخ الأدب الفرنسى المعاصر بـ "دير كورتيل" ولهذا الدير قصة أدبية تاريخية بالغة الطرافة خلدها أحد أعضاء الدير وهو رينيه أركوس فى صفحات شعرية جميلة نثبتها هنا لطرافتها بالرغم من سبق نشرنا لها فى المقدمة التى كتبناها لترجمتنا لكتاب "دفاع عن الأدب" لمؤلفه جورج ديهاميل.

يقول رينيه أركوس: "كنا في أوا ئل خريف سنة ١٩٠٦ فــى أحد مطير عندما اكتشفنا– فيلدراك وزوجته وأنا – الدار التــى أصبحت "الدير"، دارًا ممحوة الطلاء لم يسكنها أحد منذ ســنين ولكنها جليلة المظهر بشرفاتها وواجهتها ذات الطــوب الأحمــر ونوافذها الخضراء. كانت محاطة ببستان أشعث جمع أشجارا من كافة العناصر، وبأقصى البستان حديقة فواكه فيها عدد كبير من الأشجار (لقد اتخذنا من الفواكه غذاءنا صيفًا بأكملة)، ثم حشائش وكوخ، وطرق عمت مسالكها الأعشاب المسرفة. وكانت مئــات من الطيور قد آوت إلى هذا المنزل المهجور منذ زمن طويــل. وبعد هذه الزيارة بخمسة عشر يومًا كان عقد الإيجار الذى جعلنا سادة "الدير" قد وقع. وهذة الوثيقة الحزينة التى لا تزال بين يدى تحمل خمسة إمضاءات لمؤسسى الدير: رينيه أركوس، جــورج ديهاميل، ألبير جريز، هنرى مارتان، شــارل فيلــدراك، ولقــد أضفنا في قلوبنا اسم " لينار" الطبَّاع الذى علمنا مهنتنــا والــذى قاسمنا حتى النهاية أيام نعيمنا وأيام بؤسنا. وكان مــن أول مــا حرصنا عليه أن " سمرنا " على المدخل " يافطة " كان المارون يستطيعون أن يقرءوا عليها أبيات ربليه:

هنا. ادخلوا ، ادخلوا على الرحب والسعة

ادخلوا تجدوا مأوى وحصنا.

يقى من الخطأ الأثيم الذى طالما احتال

بأسلوبه الكاذب فسمم العالم.

ادخلوا لندعم هنا الإيمان العميق.

وتحت هذه المقطوعة كتبنا المقطوعة الأخرى التى تقول:

هنا لا تدخلوا أيها المتزمتون

أيها القرود العتاق.

أيها الأقذار المنبعجون.

وهنرى مارتان، السياسى الشاب الذى كنا قد تعرفنا إليه والذى أعجبته مشاريعنا، هو الذى حصل لنا على أدوات الطباعة ووضعها تحت تصرفنا. وفيلدراك الذى كان متزوجًا وأبًا لأسرة أتى بعائلته كلها ووضع كل منا فى غرفة الانتظار – التى كانت غرفتنا المشتركة – أعز ما يملك من أثاث.

ثم تعلمنا مهنتنا، مهنة الطباعة، فى سرعة أدهشت "لينار"، والمجلدان الأولان اللذان حملا شارتنا كانا: "أساطير ومعارك"

لجورج ديهاميل، و"مأساة الأمكنة" لرينيه أركوس. ولقد نشر "الدير" ما يقرب من عشرين مجلدًا، ثم إن روبير دى مونتسكيو لكى يظهر لنا عطفه، عهد إلينا بديوان شعر له "بارسيفلورا"، ولكنه طلب إلينا الكثير إذ حملنا على إعادة طبعه أكثر من مرة، وفى النهاية ظهر أن هذه الصفقة كانت من أسوأ الصفقات التى عقدناها.

وكان الكثير من الفنانين الشبان يأتون إلى الدير ضيوفًا بضاحية كورنيه، كانوا يأتون يوم الأحد جماعات. لقد أصبحت دارنا هدفًا للنزهة. وكان يزورنا أيضًا أشخاص عجيبون، كان من بينهم رجال ذوو قمصان حمراء وأخرى سوداء، ونباتيون وكائنات من هنا وهناك، ونساء دميمات ذريبات اللسان يدعوننا إلى أن نعيش وفقًا للمذهب. أى مذهب؟ ذلك ما لم نعلمه قط على وجه التحقيق. وأراد أحد الإشراقيين أن يحملنا على بناء عدة أكواخ خشبية ببستاننا، بلا ريب لكى نربى فيها جيلاً من التلاميذ! وذات صباح أتانا على دراجة شاب قوى عضلات الأرجل ذو عينين فى لون السماء هو جيل رومان الذى كان إذ

ذاك طالبًا بمدرسة المعلمين العليا (النورمال)، أتى حاملاً مخطوطة "الحياة الكلية" Vie unanime التى قرأناها فى نفس المساء بصوت مرتفع. يالها من حماسة! وإن تكن الصياغة، ونثرية الديوان، قد حملتنا بعضنا، من لحظة إلى لحظة، على أن يقطب حاجبيه، إلا أننا أحسسنا جميعًا أن شاعرًا قوى الأصالة، نادر البكورة قد ولد.

وحمل الربيع إلى "الدير" مستأجرين جددًا: مرسيرو وزوجته (أتيا من موسكو حيث تزوجا)، وبرتولدمان، ودوتمار، وألبير دويان وزوجته، وبعض الأصدقاء الآخرين. وكان الموسيقيون يأتون ليلعبوا فيه موسيقاهم، والمصورون ليعرضوا لوحاتهم، والشعراء ليسمعوا شعرهم ينشده ممثلون وممثلات، ولقد أصبحت إحداهن فيما بعد (بلانش ألبان) زوجة لديهاميل، ودامت المغامرة أربعة عشر شهرًا. وبعد شتاء آخر قاس اضطررنا إلى أن نفترق، وأن نترك "الدير" الذى لم نعد نستطيع أن نعيش فيه.

يجب أن يعزى الفشل إلى حداثتنا قبل كل شيء. لقد كـان ينقصنا النظام، إذ كنا لا ننصت لغير هوانا. ثم إننا كنـا نتـابع غايات مختلفة، غايات لم نكن قد انتهينا كلنا إلى تحديدها علـى وجه دقيق.

بقيت لديَّ كلمات قليلة هي: إن الدير لم يكن قـط مدرسـة شعرية. لقد كان مجرد جماعة من الرجال يريـدون بعملهـم أن يعيشوا معًا في حياة حرة، وإذا كنا أظهرنا عندئذ عطفًا نحو كل الشعراء والكتاب الذين لاحوا لنا موهوبين، فإن ذلك لـم يكـن لغرض خفي في أن نجندهم تحت راية ما. لم يكن لنـا مـذهب مشترك، بل لقد كان يتفق أحيانًا أن يسخر بعضنا من بعض، بل أستطيع أن أقول مع فيلدراك أو ديهاميل، إنه قد لاح لنا أن فلانًا من رفاقنا كان يتكلم ويكتب بلغة غريبة عن لغتنا.

لقد أظهر النقاد كثيرًا من القرابات الدقيقـة بـين فيلـدراك ورومان وديهاميل وبيني، ولن يخطر ببال أحد منا أن ينكرهـا. بل إنها بلا ريب قد امتدت إلى شعراء آخرين: جوف وشـنقيير،

وديرتان... إلخ، ولكنه لم تكن هناك مدرسة أصلاً، لقد كنا جميعًا نبغض أشد البغض روح التجنيد.

ورينيه أركوس على حق فيما يقرره من أن جماعة الدير لم تكوِّن مدرسة أدبية متفقة فيما بينها على فلسفة إنسانية أو فنيـــة، وذلك بالرغم من سيطرة شخصية: جيل رومان، ومحاولة فرضه مذهب الكلية على الجماعة كلها، ولقد أوضحت فـــى مقـــدمتى لكتاب "دفاع عن الأدب" كيف أن جورج ديهاميل مثلا، كان ينفر كل النفور من فلسفة جيل رومان، وبخاصة عندما كانت تتطرق إلى السلوك الأخلاقى والاجتماعي على نحو ما نحس من بعض عبارات جيل رومان الخارجة مثل قولة: "لا تفر من المزاوجة، بل احذر أن تكون أحد اثنين على نحـــو دائـــم" أو "إن الأســـرة والزواج أحجار عثرة تقوم فى سبيل الكلية". ومع كل ذلك. فإن طرفا النقيض من ناحية الفلسفة الأخلاقيـــة الاجتماعيـــة وهمـــا جورج ديهاميل، وجيل رومان، هما اللذان اكتسبا شهرة عالميـــة واسعة بضخامة إنتاجهما وجودة الكثير منه.

ونقصر حديثنا هنا على جيل رومان، فنذكر أن مؤلفاته الكثيرة تتوزع بين ثلاثة فنون أدبية كبيرة:

القصة الطويلة مثل: "القرية التى بعثت" سنة ١٩٠٦، و"سلطات باريس" سنة ١٩١١، و"موت إنسان" سنة ١٩١١، و"الأصدقاء" سنة ١٩١٣، و"دونو جوتونكا" سنة ١٩٢٠، وثلاثية "الروح أو لوسيين" سنة ١٩٢٢، و"إله الأجساد" سنة ١٩٢٨، و"عندما السفينة..." سنة ١٩٢٩، ثم سلسلة "الرجال الطيبون" التى تعتبر أشهر قصصه.

١- **دواوين شعر مثل:** "روح الناس" سنة ١٩٠٤، و"الحياة الكلية" سنة ١٩٠٤ : ١٩٠٧، و"أناشيد وصلوات" سنة ١٩١٣، و"أغنية عشر سنوات" من سنة ١٩١٤: ١٩٢٤، وقد نشرها سنة ١٩٢٨ كما ألف مع شنفيير سنة ١٩٢٣ كتابًا عن " نظم الشعر"، عرض فيه منهجه فى موسيقى الشعر التى يراها فى تكرار صوت بسيط قد يكون صائتًا أو صامتًا وليس من الضرورى أن يأتى فى آخر البيت.

٢- سلسلة من المسرحيات مثل: "الجيش في المدينة" سنة ١٩١١، و"كوميدير العجوز" سنة ١٩٢٠، و"السيد تروهاديك مأخوذاً بالدعارة" سنة ١٩٢٢، و"كنوك أو انتصار الطب" سنة ١٩٢٣، و"زواج السيد تروهاديك" سنة ١٩٢٥، و"البراقة" سنة ١٩٢٥ و"الديكتاتور" سنة ١٩٢٥، و"ديميتريوس" سنة ١٩٢٦، و"أميديه" سنة ١٩٢٦، و"جان سيئ الصراحة" سنة ١٩٢٦، وفى سنة ١٩٢٩ اشترك مع ستيفن زفايج فى اقتباس مسرحية "فولبوني" عن الشاعر الإنجليزى بن جونسون، وهى المسرحية التى عرضت على جمهور القاهرة باسم "عبيد الذهب" ثم مسرحية "جان موس" سنة ١٩٣٠، و"دولوجو" سنة ١٩٣١، و"الملك المقنع" فى نفس العام.

وأما فى مجال التفكير الفلسفى فله فضلاً عن نظرية "الكلية"، نظرية أخرى تقول إن بعض الأشخاص يستطيعون أن يبصروا دون الاستعانة بالأعين. وقد بسط هذه النظرية فى

كتابين سمى أحدهما: "الرؤية الخارجة عن الحدقة" أى اللاحدقية، وسمى الآخر "حاسة الرؤية بلا أعين".

ويجمع النقاد على أن تفوق جيل رومان الحق، إنما كان فى مجال المسرح، وذلك بفضل روحه الفكهة اللاذعة، وسخريته النافذة فى نقد الأخلاق، كما يجمعون على أن مسرحية "كنوك أو انتصار الطب"، هى رائعته الفذة التى عرف بها فى العالم أجمع، ومن الواضح أن الروح الفكهة اللاذعة لا يواتيها فن الشعر، وبخاصة إذا كان صاحبها مكونًا تكوينًا فلسفيا يحمله على التحليل النظرى الذى لا يتسع له عادة وعاء الشعر، وقد تصلح له القصة، ولكن مجاله الحق هو الحوار المسرحى، وهو ما نبغ فيه جيل رومان، أكثر من نبوغه فى فن القصة أو فى فن الشعر، حيث يغلب على دواوينه التفكير الفلسفى الجاف، بل المتعسف أحيانًا فضلاً عن النثرية التى تذهب بطلاوة الشعر وجماله.

كنوك وفن الهزليات

ينعقد الإجماع على أن هذه المسرحية من الروائع العالمية، ومع ذلك لاحظت أن الأساتذة والنقاد الأنجلوسكسونيين يسمونها هزلية Farce، على نحو مـــا ورد فـــى الموســـوعة الأبجديـــة لأكسفورد المعروفـــة باســـم: المرشـــد إلـــى الأدب الفرنســـى Companion to Grench literature ، فإلى أى مدى ينطبـــق عليهـــا هذا الوصف؟.

تتلخص هذه المسرحية فى السخرية اللاذعة مـــن الطـــب والأطباء، وهو موضوع مـــن مواضـــيع الكوميـــديا التقليديـــة وبخاصة منذ عصر موليير الذى طالما سخر من الأطباء مـــن مرضى الوهم، ولكن مسرحية "كنوك" لا تنتقد واقعًـــا فعليًّـــا أو ممكن الوجود، بل تفترض فروضًا مســـرفة وإن يكـــن هـــدفها

النهائى طبعًا، هو نقد حيل بعض الأطباء لجمع المال عن طريق الإيهام بالمرض.

فالدكتور بارباليد عمل فى عيادته بقرية "سان موريس" سنين طويلة قد تبلغ ربع القرن، ومع ذلك لم يصب نجاحًا، ولا جمع ثروة مما اضطره إلى البحث عن مشتر لهذه العيادة لكى ينتقل للعمل فى مدينة كبيرة هى ليون، واهتدى إلى كنوك ليبيعه هذه العيادة، بل ويبيعه أيضًا السيارة العتيقة التى كان يستخدمها فى تنقلاته بالريف. ونحس من احتيال بارباليد على إقناع كنوك بصلابة السيارة المستهلكة وتفضيلها على السيارات الجديدة التى يزعم أنها مصنوعة من الصفيح – نحس أن بارباليد هو الآخر رجل محتال، بل وأن زوجته وسائق عربته يتآمران معه فى هذا الاحتيال، وتبدأ المسرحية ذات الفصول الثلاثة بمشهد العربة العتيقة وقد ركبها الدكتور بارباليد وزوجته وكنوك ليصعدوا الجبل إلى قرية سان موريس، وكلما أصاب السيارة عطل اجتهد بارباليد وزوجته فى إيهام كنوك بأن السائق يريد إراحة السيارة بعض الوقت، بل ويحاولان صرفه عن ملاحظة ما يجريه فيها السائق من إصلاح، حتى إذا وصلوا إلى القرية الجبلية، سلم

بارباليد العيادة إلى كنوك وحرر معه عقد البيع للعيادة والسيارة، على أن يدفع كنوك ثمنهما أقساطًا على فترات محددة.

وفى القرية يعلم كنوك أن سبب فشل بارباليد يرجع إلى أنه لم يكن يتكالب على مهنته، بل كان ينفق الكثير من وقته للنزهة، أو فى ألعاب التسلية بفندق القرية، كما كان يهون على المرضى خوفهم، ويصف لهم أبسط الأدوية وأرخصها ويدعوهم إلى الثقة بقدرة الجسم على المقاومة الذاتية حتى ضج صيدلى القرية من كساد بضاعته، بل وانصرف أهل الناحية جميعًا تقريبًا عن الطبيب وعيادته، مما دعا كنوك إلى أن ينتهج نهجًا مضادًا استخدم فيه كافة الحيل والوسائل الجهنمية لابتزاز المال، فابتدأ بأن استدعى الصيدلى وأقنعه بأن العمل سينشط فى صيدليته وأوصاه بأن يجلب إليها الأدوية الغالية الثمن، كما استدعى المسيو برنار معلم القرية واتفق معه على أن يزوده بمجموعة من الأمراض على أن يعرضها فى محاضرات يلقيها بمقر المدرسة على الجمهور عن شتى الأمراض وبخاصة الأمراض المحلية، موضحًا المعلومات التى يقدمها إليه كنوك بالصور التى يعرضها بالفانوس السحرى. واستدعى أيضًا منادى المدينة لكى

يكلفه بأن يطوف بالقرية والقرى المجاورة معلنًا أن طبيب القرية الجديد، قد قرر أن يفتح عيادته مجانًا يوم السوق من كل أسبوع وهو يوم الاثنين لفحص جميع سكان المنطقة وطمأنتهم على حالتهم الصحية، وما إن أتم كنوك ترتيباته الجهنمية حتى أخذ جميع أهل المنطقة يتوافدون على عيادته للفحص المجانى يوم الاثنين. وابتداء من هذه اللحظة تمر أمامنا طائفة من المشاهد المضحكة اللاذعة التى نرى فيها عددًا من الرجال أو النساء يدخلون عيادة كنوك وهم أصحاء، أو على الأقل بادى الصحة ويخرجون منها مرضى أو مؤمنين بأنهم مرضى بعد أن أوهمهم كنوك بكل ذلك وأمرهم بأن يخرجوا من عيادته إلى منازلهم ليأووا فى فراشهم على أن يعودهم فيه، ويطب لهم، بحيث يتولد فى نفوسنا إحساس واضح بأن أهل القرية وضواحيها قد لزموا جميعًا الفراش، بل ويحل موعد القسط، ويصل الدكتور بارباليد إلى سان موريس ليتسلم من كنوك هذا القسط، ويعلم بارباليد وهو فى الفندق بالنجاح الفظيع الذى أحرزه كنوك حتى صعب على بارباليد أن يجد غرفة خالية بالفندق الذى تحول إلى شبه مستشفى، لولا توسط كنوك لدى إدارة الفندق. ويندهش بارباليد

مما يرى ويسمع، ولكنه لا يكاد يلتقى بكنــوك ويــدور بينهمــا الحديث ويستمع إلى فلسفة كنوك التى تزعم أن الأصحاء ليسوا إلا مرضى غافلين حتى يساوره هو الآخر الشك فى أنه مريض، ولكن كنوك يعتذر بكثرة أعماله ومواعيده عن فحص بارباليــد فورًا ويعده بإجراء هذا الفحص بعــد الظهــر. وهنــا تنتهــى المسرحية، أى بعد أن أشعرنا المؤلف بأن كنوك لم ينجح فــى إلزام جميع أهل القرية وضواحيها فراش المرض فحسب، بــل ونجح فى إيهام الدكتور بارباليد نفسه بأنه مريض غافــل عــن مرضه.

وشخصية "كنوك" هى التى تعطى المسرحية طابع الهزلية.

فنحن نعلم منذ الفصل الأول ومن الحوار الذى يجرى بين كنوك والدكتور بارباليد، أن كنوك لم يدرس الطب فى جامعــة، ولم يحصلْ على مؤهل، وإنما زاول المهنة احتيالاً وهــا هــو الحوار الشيق اللاذع الذى نعلم منه ذلك:

الدكتور : هذا كلا غير مفهوم.

كنـــوك : بالعكس هى مسألة فى غاية البســاطة، ومنذ عشرين سنة مضت تخليت مضطرا عن دراسة الآداب واشتغلت بائعًا فى قسم "الكرفتات" فى متجر كبير بمرسيليا، ثــم فقدت عملى وأخذت أتسكع فــى الميـنـــاء وقرأت إعلانًا عن سفينة حمولتها ١٧٠٠ طن مسافرة إلى الهنــد تطلــب مشــرفًا صحيا، ولا تشترط أن يكون حاصلاً على لقب دكتوراه، فماذا تفعل لو كنت مكانى؟

الدكتور : لا أفعل شيئًا بطبيعة الحال.

كنـوك : أفهم هذا منك، فأنــت لا تعشــق مهنــة الطب، أما أنا فقد تقدمت، وإذ كنت أمقت المواقف المريبة – فقد أعلنتهم منذ دخولى قائلا: "أيها السادة كنت أستطيع أن أزعم لكم أننى دكتور ولكنى فى الواقع لســت دكتورًا بل أصرح لكم بما هــو أدهــى ، إننى لا أعرف فى أى موضوع ســأكتب

رسالتى"، فكانت إجابتهم أنهم لا يتمسكون بلقب دكتور، وأن موضوع رسالتى لا يهمهم فى شىء، فرددت على الفور: مع الاعتراف بأننى لست دكتورًا فإننى أود – لأسباب تتعلق بالكرامة وحسن النظام – أن يطلق علىَّ فى السفينة لقب دكتور"، فقالوا إن هذه المسألة طبيعية، ومع ذلك لبثت مدى ربع ساعة أشرح لهم الحجج التى زحزحتنى عن التمسك بالصدق والأمانة وحملتنى على المطالبة بلقب لاحقَّ لى فيه ولا يرضاه ضميرى. وهكذا أطلت الحديث حتى لم يبق أمامهم سوى ثلاث دقائق للبت فى تحديد مرتبى.

الدكتور : ولكن أصحيح أنه لم يكن لديك أى إلمام بالطب؟

كنـــوك : افهمنى! إننى كنت منذ طفـــولتى أقـــرأ بشغف فى الصحف كل إعلان عن علاج طبى أو دواء، وإذا اشترى أبواى علبـــة حبوب أو زجاجة دواء ســـائل، نزعـــت الورقة الملفوفة عليها وقـــرأت شـــرحها لطريقة الاستعمال، فما بلغت التاسعة من عمرى حتى كنت أحفظ عن ظهر قلـــب نصوصًا طويلة عن عوارض الإمســـاك، وأستطيع الآن أن أتلو عليك من الـــذاكرة نص خطاب بديع أرسلته الأرملـــة: م.ع. من مدينة بورج عام ١٨٩٧ إلى المعمـــل الأمريكى الذى ينتج دواء ضد الإمســـاك اســـمه: "الأعشـــاب الســـحرية الأكيـــدة المفعول". أتريد؟!..

الدكتور : لا تتعب نفسك إننى أصدقك.

وإذن فكنوك ليس طبيبًا بل محتالاً، ابتدأ سلسلة احتيالاته باللعب على لفظة دكتور ليوهم أنه طبيب، وإن لم يحصل على درجة الدكتوراه. وهذا هو جانب الهزل فى المسرحية، ولكن أيبيح لنا ذلك تسمية المسرحية كلها فارس **Farce** ؟ وليست المسألة مسألة اصطلاح أو خانة نضع فيها هذه المسرحية أو ننقلها إلى خانة أخرى، بل مسألة فنية مهمة، لأن وصف مسرحية بأنها هزلية يخرجها من الأدب الرفيع إلى الأدب الرخيص. وللبت فى ذلك نوضح أولاً مدلول لفظة هزلية وتاريخ فن الهزليات فى إيجاز.

لقد اصطلحنا فى لغتنا العربية الحديثة على ترجمة لفظة كوميديا بلفظة ملهاة، وأما لفظة فارس **Farce**، فنقترح ترجمتها بلفظة هزلية، تمييزًا لها عن الملهاة أى عن الكوميديا.

ولفظة فارس **Farce**، معناها الاشتقاقى فى اللغة الفرنسية "الحشو" الذى يحشى به ورق العنب أو "الكوسة" مثلاً! وقد تطرقت هذه اللفظة إلى لغة المسرح منذ القرون الوسطى إذ

أطلقت على مشاهد هزلية كانت تعرض فى فترات الاستراحة بين كل فصل وآخر من فصول المسرحيات الدينية التى كانت منتشرة فى القرون الوسطى، وشيئًا فشيئًا أخذت تلك المشاهد الهزلية تستقل بذاتها لتكون فنًا مسرحيا قائمًا بنفسه، وبذلك نشأت المسرحية التى تسمى الآن بالفارس، أى الهزلية، وهى مسرحية لا هدف لها غير الإضحاك. وفى الغالب تعتمد فى ذلك على النكات اللفظية والحركات البهلوانية والمواقف غير المعقولة الخالية من كل دلالة. وفن الهزلية كثيرًا ما يصعب تمييزه فى تاريخ الأدب الدرامى عن أنواع أخرى من المسرحيات الفكاهية الخفيفة، السطحية الهدف، مثل ما عرف فى إيطاليا، وانتقل منها إلى البلاد الأوروبية الأخرى باسم الكوميديا الفنية، وهى كوميديا كان الممثلون يرتجلونها: ومن أشهر هؤلاء الممثلين السيد "بنطلون" والسيد "سكاراموش"، ثم نوع آخر اندهر فى أحد وديان فرنسا وعرف باسم هذا الوادى وهو فن " الفودفيل".

والآن هل نعتبر مسرحية "كنوك" كوميديا نقد اجتماعى وأخلاقى؛ أى "ملهاة" أم نعتبرها هزلية لا تستهدف غير

الإضحاك بالوقائع والمواقف غير المعقولة التى يضيع معها كل هدف اجتماعى أو أخلاقى.

الواقع أن هذه المسرحية الرائعة تتضمن شخصيات وأحداثًا تبدو بعيدة عن واقع بلد متحضر مما يقربها من الهزلية، ولكننا نلاحظ من جهة أخرى أن ما يبدو غريبًا فيها قد يكون مجرد تجسيم ومبالغة لواقع يستحق النقد والسخرية، وهى فوق كل ذلك تتضمن فلسفة نفسية واجتماعية لاشك فيها، فمن الناحية النفسية، نحس فيها بتحليل دقيق لقدرة الإنسان على إيهام غيره وإيهام نفسه، بل إن فكرة كنوك الأساسية التى يسميها رسالة لنيل الدكتوراه، قد لا تخلو من صدق، وهى زعمه، بأن الأصحاء مرضى غافلون، فهذه حقيقة كثيرًا ما تشهد بها تجارب الحياة وإن يكن التعميم يفسدها، كما يمكن أن يفسد كافة الأحكام، والمسرحية فوق ذلك تتخللها الفلسفة الاجتماعية التى تلقاها جيل رومان عن أساتذة علم الاجتماع فى السوربون كدوركايم وليفى بريل وغيرهما، ففيها دراسة وتحليل لروح القطيع عند الجماهير وكيف يمكن استهواؤها بأيسر الطرق الاحتيالية وبخاصة

المحاضرات المصورة التى ألقاها برنـــار معلـــم القريـــة عـــن الأمراض وأعراضها وعواقبها ومضاعفاتها، وكل ذلك فضـــلاً عن إظهار المؤلف لأخطار شهوة جمع المـــال علـــى المجتمـــع عندما يتضافر الجشعون أمثال كنوك وصيدلى القرية على ابتزاز أموال الناس بإيهامهم أنهم مرضى، وإن يكن المؤلف قد بالغ فى سطوة هذا الإيهام الذى ألزم أهل الناحية كلهم فراش المـــرض، وكأن جيل رومان ينتقد الاتجار بالطب ويكاد يلفت الأنظار إلى ضرورة تأميمه.

وأما من الناحية الفنية الخالصة، فالمسرحية محكمة البناء، وشخصياتها دقيقة التصوير، وحوارها خفيف براق، بالرغم من عمق المعانى النفسية والاجتماعية والأخلاقية التى يحملها، وفى كل هذا ما يرفع المسرحية إلى مســـتوى الأدب الجـــاد بحيـــث نستطيع أن نخلص إلى أننا ســـواء جارينـــا الأنجلوسكســـونيين فاعتبرنا هذه المسرحية من نوع الهزليات الجيـــدة، أو جارينـــا الفرنسيين فاعتبرناها ملهاة من نوع الكوميديا النفسية الاجتماعية، فإننا على أية حال لا نستطيع أن ننكر النجاح الجماهيرى الضخم

الذى حازته منذ أن عرضت أول مرة على كوميديا الشانزليزيه سنة ١٩٢٣ وقام بإخراجها وتمثيل دور كنـــوك فيهـــا، الممثـــل والمخرج الفرنسى العالمى الصيت: لويس جوفيه. ومنـــذ تلـــك التاريخ احتلت هذه المسرحية مكانًا ثابتًا فى رصيد أى ريبرتوار للكثير من المسارح العالمية فى كافة بلاد العالم.

محمد مندور

شخصيات المسرحية

• كنوك	جان
• الدكتور بارباليد	مدام بارباليد
• موسكيه	مدام ريمى
• برنار	السيدة ذات الثياب السوداء
• منادى البلدة	السيدة ذات الثياب البنفسجية
• فتى قروى – الأول	الخادمة
• فتى قروى – الثانى	صوت مارييت بين حشد من أهالى البلدة
• سيبيون	

الفصل الأول

"تجرى حوادث هذا الفصل داخل أو حول سيارة من طراز قديم جدا يرجع لسنة ١٩٠٠ – ١٩٠٢، هيكل ضخم (هى فى الأصل من طراز "فيتون مزدوج" وحولت فيما بعد إلى طراز يشبه "الطوربيد" بفضل إضافة ألواح معدنية عليها) مستلزمات السيارة من النحاس كبيرة الحجم ومقدمها حيث المحرك على شكل صندوق صغير؛ وتتحرك السيارة من مكانها فى أثناء بعض مشاهد هذا الفصل ويكون التحرك من جوار محطة صغيرة للسكة الحديد ثم تصعد بعد ذلك فى طريق جبلى...".

المشهد الأول

كنوك – الدكتور بارباليد – مدام بارباليد – جان

الدكتور بارباليد : أهذا متاعك بتمامه يا زميلى العزيز؟

كنوك : نعم هذا كل متاعى يا دكتور بارباليد.

الدكتور : سيضعه جان بجانبه، المقعد الخلفى يسعنا نحن الثلاثة بسهولة، السيارة فسيحة والكراسى الصغيرة الإضافية مريحة، شتان بين هذه السيارة والسيارات الحديثة القميئة.

كنوك : [يلتفت إلى جان وهو يضع الصندوق] خذ بالك من هذا الصندوق فقد وضعت فيه أجهزة سهلة الكسر.

[يبدأ جان فى تكويم متاع كنوك]

مدام بارباليد : هذه سيارة سأتحسر عليها طويلا إذا غلبتنا الحماقة وبعناها.

[كنوك يتأمل السيارة بدهشة]

الدكتور : لأنها فى الحقيقة طوربيد ومع طراز الفيتون المزدوج القديم.

كنوك : نعم.. نعم..

[يختفى المقعد الأمامى كله تحت أكوام المتاع]

الدكتور : انظر إلى متاعك كيف اتسع له المقعد وبقيت لجان جلسته المطمئنة، بل ليتك جئت بمتاع أكثر لتدرك أن هذه السيارة تعنى بكل المطالب.

كنوك : هل بلدة سان موريس بعيدة؟

الدكتور : على بُعْد أحد عشر كيلومترًا، ولا يخفى عليك أن بعدها عن السكة الحديد بهذا القدر نعمة كبيرة لأنه يستبقى إخلاص المرضى لطبيبهم فلا يزوغون منه لالتماس العلاج فى عاصمة الإقليم.

كنوك : ليس بينهما إذن وبين المحطة عربة نقل؟

الدكتور : نعم هناك عربة نقل ولكنها فى حالة يرثى لها، بحيث تحبب إليك المشى بدل الركوب.

مدام باربالید : السيارة هنا لا غنى عنها.

الدكتور : بخاصة الأطباء.

[كنوك متمسك بمسلك مهذب متحفظ]

جان : (إلى الدكتور) هل أدير المحرك؟

الدكتور : نعم يا بنى!

[جان ينهمك فى معالجة السيارة: يفتح غطاء المحرك، ويفك البوجيهات، ويصب البنزين.. إلخ.. إلخ..].

مدام باربالید : [إلى كنوك] إن المناظر الطبيعية على جانبى الطريق جميلة، وقد سبق للكاتب زيناثيد فلوريو أن وصفها فى قصة من أحسن قصصه، قد نسيت اسمها، [تركب السيارة وتقول لزوجها:] ألا ترى أن يكون لك الكرسى الصغير الأمامى وهكذا يجلس الدكتور كنوك إلى جانبى ليتملى من المناظر التى نمر بها؟

[كنوك يجلس إلى يسار مدام بارباليد]

الدكتور : السيارة فسيحة بقدر كاف والمقعد الخلفى يتسع لجلوس ثلاثة براحة، غير أنه يحسن للراكب أن يملك حركته ليتمتع برؤية المناظر من حوله [يقترب من جان] كل شىء على ما يرام؟ هل فرغت من صب البنزين؟ وفى السلندرين الاثنين؟ لعلك لم تنس أن تنظف البوجيهات قليلا، فهذا أحوط بعد مشوار طوله أحد عشر كيلومترًا، ولف "الكاربوراتير" بقطعة من القماش أو بمنديل كبير فإنه خير من هذه الخرقة [يقول وهو يكر راجعًا] بديع! بديع! [يصعد إلى السيارة] إننى أجلس على الكرسى الأمامى الصغير الفسيح، ومع

ذلك فهو بمثابة فوتيل رحب يفرد ويطوى.

مدام باربالييد : سيظل الطريق يتوالى صعوده حتى نبلغ سان موريس، والذهاب إليها على الأقدام وبهذا المتاع كله عذاب عظيم، أما بالسيارة متعة ساحرة.

الدكتور : كنت يا زميلى العزيز فى الأيام الخوالى أداعب آلهة الشعر، ونظمت أنشودة من أربعة عشر بيتًا تتغنى بجمال الطبيعة فى هذه الأرجاء التى ستتكشف لنا، والمصيبة أننى نسيتها:

وقيعان تتوه العين فيها

يرفرف فوقها علم الجمال

[جان يدير المانيفلا بجهد المستميت]

مدام باربالید : یا ألبرت لك منذ سنين إصرار علـــى رواية هذا البيت وفيه كلمة "قيعان" بدلا من كلمة "أغوار" كما كان فى الأصل.

الدكتور : صحيح، صحيح، [يسمع صوت انفجار] ألق سمعك يا زميلـــى العزيـــز إلـــى المـــحرك لتتبين كيـــف أنـــه مطواع لا يحرن، فمـــا احتـــاج إلا إلى لفـــة أو لفتين من المـــانيفلا حتـــى "شـــفط" البنزين، ثم ها أنـــت تسـمع صـــوت انفجاره مرة ومرة أخرى، هيا هيـــا، فإذا بنا نسير.. [جـــان يحتـــل مقعـــده وتتحرك السيارة وتتتابع المناظر شيئًا فشيئًا].

الدكتور : [بعد فترة صمت] صـــدقنى يـــا خَلَفـــى العزيز [يدق على كتف كنوك]، نعم فقد صرت من هذه اللحظـــة خلفًـــا لـــى، صدقنى حين أقول لك إنـــك أبرمـــت صفقة طيبة، نعم، فجميع مرضاى هم

منذ هذه اللحظة زبائنك، حتـــى ولـــو
صادفنا ونحن نقطع الطريق مـــريض
ولمحنى برغم أن السيارة تمرق أمامه
بسرعة خاطفة وطلب إلى أن أعالجـــه
فإننى سأتنحى وأقول له رافعًا صوتى:
"أخطأت مقصدك يا سيدى، فهذا هـــو
طبيب البلد [يشير بسبابته إلى كنوك] ولن
أخرج عن مخبئى [تتـــوالى انفجـــارات
المحرك] إلا تلبية لدعوة أصولية منـــك
للاشتراك معك فى كونسولتو لتغليـــب
رأى على رأى [انفجارات أخـــرى مـــن
المحرك] من حسن حظك أنك وقعـــت
على رجل يتخلى عن عمله لا لشـــىء
إلا للتلذذ لتحقيق نزوة طافت برأسه.

مدام باربالبد : لقد أقسم زوجى أن يختم حياته العملية فى مدينة كبيرة.

الدكــتور : إننى أشتهى أن أنحنى أودع الجمهــور للمرة الأخيرة من فوق مسرح كبيــر، وهذا منى غــرور فيــه شــىء مــن السخف. أليس كــذلك؟ إننـــى أحلــم بباريس، ولكن قد أقنع بليون.

مدام باربالييد : وذلك بدلا من أن يجمع له هنا ثــروة مضمونة فى طمأنينة وهدوء.

[كنوك يتأملها تارة، ويستغرق فــى أفكــاره تارة، ويلقى نظرة إلى المشاهد من حوله تارة أخرى]

الدكتـــور : لا تسرف فى السخرية منى يا زميلى العزيز، فإنما بفضل هذه النزوة التـــى طافت برأسى قد أتيح لــك أن تــرث عيادتى لقاء تعويض زهيد.

كنــوك : أهذا حكمك؟

الدكــتور : إنها الحقيقة السافرة.

كنــوك : على كل حال فأنا لم أساومك قط.

الدكـــتور : حقًا لقد أحببـــت فيـــك ترفعــك عـــن اللجاجة، وأعجبنى منك جدا أنك بدأت المفاوضة بالمراسلة أولا حتى إذا تـــم الاتفاق على جميع التفاصـــيل جئـــت بنفسك، وهكذا أبرمت الصفقة، كما بدا لى، على طريقة كرام الناس، أو قـــل على الطريقى الأمريكانية، حقًا أهنئك على هذه النعمة التى هبطت عليـــك، فالعيادة لها دخل ثابـــت لا يتعـــرض لأزمات مفاجئة.

مدام باربالبد : وليس بجانبك منافس آخر لك.

الدكـــتوز : والصيدلى الوحيد لا يجاوز قط حـــدود مهنته..

مدام باربالبد : وليس هنا شىء يغريك بإنفاق النقود.

الدكـــتور : لن تجد وسيلة لهو واحـــدة تســـتنزف جيبك.

مدام باربالید : فی ستة أشهر تكـون قـد اقتصـدت ضعف ما أنت مدين به لزوجی.

الدكـتور : وسأرضى بأن تدفع هذا الـدين علـى أربعة أقساط فـى السـنة. آه! لـولا الروماتيزم الذى تعانى منه زوجتـى لهممت أن أعدل عن الصفقة.

كنـوك : مدام باربالید مصابة بالروماتيزم؟

مدام باربالید : نعم، مع الأسف.

الدكـتور : الجو هنا جو صحى جدا بصفة عامـة، ولكنه لايلائم زوجتى بصفة خاصة.

كنـوك : هل فى البلـد كثيـر مـن المصـابين بالروماتيزم؟

الدكـتور : لك أن تقول إنه المرض الشائع عندنا.

كنـوك : هذا أمر فى نظرى يثير غاية الاهتمام.

الدكـتور : نعم عند من يريد التخصص فى دراسة الروماتيزم.

كنـوك : [بهدوء] كنت أفكر فى الزبائن.

الدكـــتور : حاشا وكلا، فكما أنت لا يخطر ببالــك أن تســتدر المطــر بقــرع أجــراس الكنائس، فكذلك أهل البلد هنا، هيهات لهم أن يخطر ببالهم طلب الشفاء مــن الروماتيزم بالذهاب إلى الطبيب!

كنــوك : ولكن هذا شيء يؤسف له.

مدام بارباليد : انظر يا دكتور! هذا المنظر أمامك كــم هو بديع.. كأننا فى سويسرا.

[انفجارات متعالية من المحرك]

جان : [يهمس فى أذن الدكتور بارباليد] يا دكتور! المحرك "عطلان" يلزمنــى أن أفــك ماسورة البنزين.

الدكــتور : [لجان] طيب.. طيب.. [للآخرين] كنت بالفعل أريد أن أقترح عليكم التريــث هنا لحظة.

مدام بارباليد : ولماذا؟

الدكــتور : [يصوب لهـا نظـرات ذات معنـى] هــذا المنظر الجميل.. ألا.. ألا يســتحق أن نقف عنده؟

مدام بارباليد : إذا كنت تريد التريث فالمنظر المرتفع أكثر جمالا.. [السيارة تقف ومدام باربالبد تدرك حقيقة الأمر]

الدكــتور : لا ضير أن نتريث هناك أيضًـا قلـيلا نتريث، ولم لا؟ نتريث مرتين، وثلاث مرات، بل أربع مــرات كمــا نحــب ونهوى. من حسن الحظ لسـنا فـــى سباق [موجهًـا الكــلام لكنــوك] هــل انتبهــت يا زميلى العزيز إلــى هــذه السيارة كيف وقفت بتؤده وانصــياع، فزمام سرعتها وأنت تقودها يظل دائمًا فى يدك، وهذه مسألة مهمة جدا فــى

الطرق الجبلية [يستطرد وهم ينزلون من السيارة] ستتضم يا زميلى العزيز فى وقت أسرع مما تظن إلى صفوف أنصار السفر بالسيارات، ولكن حذار من سيارات اليوم الرديئة إنها حطام مصنوع من الصفيح لا من الصلب.

كنوك : إن لم ينجدنى مرض الروماتيزم فقد يسعفنى بدلا منهم مرضى الالتهاب الرئوى ومرضى النزلات الشعبية.

الدكتور : [إلى جان] اغتنم عزمنا على الوقوف ونظف ماسورة البنزين [إلى كنوك] ماذا تقول؟ التهابات رئوية ونزلات شعبية؟ هذه أمراض نادرة عندنا، فالجو هنا قاس كما تعلم، إذا ولد الطفل ضعيفًا هزيلاً مات قبل أن يبلغ الشهر

السادس من عمره، ولا يعرض على الطبيب. بطبيعة الحال، أما إذا جاوز الأطفال منطقة الخطر شبوا فتية صحتهم كالحديد. بقيت أمراض القلب والشلل، ولكن المصابين بهذه الأمراض يعيشون فى غفلة عنها لا يستيقظون قط للخطر الجاثم عليهم، فإذا ما بلغوا الخمسين من العمر تخطفهم الموت فى لمح البصر.

كنوك : لا تقل لى إن جيبك امتلأ من معالجة أموات فارقوا الحياة بغتة؟

الدكتور : كلا بطبيعة الحال [يبحث فى سره عن بقية كلامه] فلا تزال هناك أولا حالات الأنفلونزاء، لا أقصد حالات الأنفلونزا العادية التى لا يأبه لها المرضى بحال

من الأحوال، بل لعلهم يرحبون بها لأنها تعينهم فيما يزعمون على طرد سموم الجسد كلا، إنما أعنى الأنفلونزا حيث تتفشى كوباء فى العالم كله.

كنوك : ينبغى إذن أن أنتظر الدورة القادمة للأنفلونزا العالمية! هل أمل إبليس فى الجنة!

الدكتور : لا عليك! فهذا الذى يحدثك قد عاصر منها وبائين، فى شتاء ١٨٨٩ – ١٨٩٠ والثانى ١٩١٨.

مدام باربااليد : فى سنة ١٩١٨ كان عدد الموتى هنا يزيد نسبيًّا على عدد الموتى فى المدن الكبيرة [لزوجها] أليس كذلك؟ لقد قمت بنفسك بمقارنة الإحصائيات.

الدكتور : نعم، كانت نسبة الوفيات عندنا تفوق كثيرًا نسبة الوفيات فى ثلاث وثمانين مقاطعة.

كنوك : وهل لجأوا إلى الطبيب؟

الدكتور : نعم وبخاصة فى نهاية الوباء.

مدام بارباليد : وزاد دخلنا عند حلول عيد القديس ميشيل عند موسم حصاد القمح.

[يزحف جان تحت العربة]

كنوك : ماذا تعنين؟

مدام بارباليد : الزبائن هنا لا يدفعون أجر الطبيب إلا فى هذا العيد بعد أن يبيعوا القمح.

كنوك : ما معنى هذا الكلام؟ أهو التقويم اليونانى أم التقويم الخيالى؟

الدكتور : [وهو يتتبع بنظرة منه بين الحين والحين عمل جان تحت السيارة] لم هذه الهواجس يا زميلى العزيز؟ إن عيد القديس

ميشيل هو يوم مرموق بين أيام السنة وموعده آخر سبتمبر.

كنـــوك : [يعدل لهجته] ونحن الآن فـــى أوائـــل أكتوبر! يا للداهية!.. أمـــا أنـــت فقـــد أحسنت على الأقل اختيار الوقت الذى تبيع فيه عيادتك [يمشى بضع خطـــوات وهو يفكر] ولكن لنفـــرض أن جـــاءك زبون لتكشف عليه، أفلا يـــدفع لـــك أجرك من فوره قبل انتهاء الزيارة؟

الدكـــتور : كلا، إنه يدفع فى عيد القديس ميشـــيل هذه هى العادة.

كنـــوك : حتى ولو جاءك لزيارة واحدة عارضة بحيث لن تراه بقية العام؟

الدكـــتور : فى عيد القديس ميشيل.

[كنوك يتأملها وهو صامت].

مدام باربالید : على كل حال فإن الناس هنا فى أغلب الأمر لا يقصدون الطبيب إلا مرة واحدة.

كنوك : ماذا؟

مدام باربالید : نعم.. هذا هو الواقع.

[الدكتور باربالید يتصنع شرود الذهن]

كنوك : وماذا تفعل مع المرضى المواظبين؟

مدام باربالید : أى مرضى مواظبين؟

كنوك : الذين يواظبون على التردد على الطبيب عدة مرات فى الأسبوع أو عدة مرات فى الشهر..

مدام باربالید : [إلى زوجها] أسمعت ما يقوله الدكتور؟ يتحدث عن زبائن مثل زبائن القصاب

أو الخباز.. إنه شأن كل طبيب جديد في الكار تخدعه الأوهام..

الدكتور : [يضع يده على ذراع كنوك] صدقني يا زميلي العزيز، إن المرضى هنا هم أحسن صنف من الزبائن.. أعني الصنف الذي لا يجور على استقلالك.

كنوك : استقلالي؟ أتمزح؟

الدكتور : دعني أوضح الأمر، أريد أن أقول إنك لن تقع تحت رحمة نفر من المرضى قد تم شفاؤهم بين يوم وآخر فإذا خسرتهم أفلست، أما إذا اعتمدت على الجميع فكأنك لا تعتمد على أحد.. أفهمت؟

كنوك : بمعنى آخر لم يبق لي إلا أن أصطاد السمك وكان ينبغي أن أحضر معي "سنار"، وكمية لابأس بها من الديدان،

ولكن ربــما أجــد كل هــذا فى بلدكم
[يسير بضع خطوات وهو يفكر، يقترب من السيارة الرثة ويتأملها، ثم يلتفت التفاتة غيـر كاملة] بدأت المسألة تتبين بجلاء شديد، يا زميلى العزيز.. إنك، لقاء آلاف من الفرنكات معدودة هى باقية فى ذمتــى ديناً لك علىّ، قد تنازلت لى عن عيادة زبائنها يشبهون سيارتك هذه تمام الشبه [يربت على السيارة بحنو] إذا قدرت قيمة هذه السيارة بتسعة عشر فرنكاً فإنها لن تكون غاليــة، وإذا قــدرتها بخمســة وعشرين فرنكاً فإنها تباع بأكثر مــن ثمنها [يتأملها بنظرة هواة السيارات] وإذا كنت أحب أن أظل سمحًا فى معاملاتى فإنى أعرض عليك ثلاثين فرنكاً ثمنــاً لها.

الدكـــتور : ثلاثين فرنكًا لهذه السيارة؟ إننى لا أفرط فيها ولو بستة آلاف.

كنــــوك : [كنوك وقد ظهرت عليه دلائل الأسف] كنت أتوقع ذلك، [يتأمل الســيارة الرثــة مــن جديد] إذن لن أستطيع شراء سيارتك.

الدكـــتور : سأبيعها، ولكن على الأقل لــو أنــت عرضت على ثمنًا معقولا..

كنــــوك : يا للأسف! كنت أريد أن أحولها إلــى صندوق [يعود] أما فيما يتعلق بعيادتك فإننى أتنازل عنها دون ندم عليهـــا إن كانت الصفقة لم تتم بعد.

الدكـــتور : اسمح أن أقول لك يا زميلى العزيز إنك ضحية أوهام كاذبة.

كنــــوك : بل الأقرب إلى عقلى أننـــى ضـــحيتك أنت، وليس من عادتى التأوه والتفجع، وإذا ضـــحك علىّ إنســـان فلا ألومن إلا نفسى.

مدام باربالید : ضحك عليك.. دافـع عن كرامـتـك يا صديقى.. دافع!

الدكـتور : كل ما أوده أن أجنب الدكتـور كنوك الاسترسال فى الأوهام.

كنـوك : أما أقساط الدين فعيبها أنها تدفع كـل ثلاثة شهور فى بلد كل مـريض فيـه زبون سنوى، ينبغـى لـى أن أجـد مخرجًا، علـى كـل حـال لاداعـى لانزعاجكم، فإننى أكره أن أكون مديناً، وألم الدين أقل على العموم مـن ألـم اللمباجو أو ألم "خراج" فى الإلية..

مدام باربالید : ماذا؟ إذن أنت لا تريد أن تـدفع لنـا الأقساط فى مواعيدها المتفق عليها؟

كنـوك : إننى متلهف على سداد الدين يا مدام.. ولكن لا سـلطان لى عـلى التقـويم، ولا أستطيع أن أزحزح عيد القـديس جوزيف عن موعده.

مدام باربـاليد : القديس ميشيل..

كنــوك : القديس ميشيل..

الدكــتور : أليس عندك مال مدخر؟

كنــوك : ولا سنتيم، فإنى أرتزق من عملـــى أو على الأصح أتلهف على أن أرتــزق منه، وإنى أكره هذا الطابع الأسطورى فى زبائن العيادة التى أفلحتم فى بيعها إلىَّ، خصوصًا وكنت أريد أن أعاملهم بوسائل حديثة جدا [تفكير بعــد لحظــة وكأنما يخاطب نفســه] فـــى الواقــع أن المشكلة واحدة وإن اســتبدلت وجهًــا بوجه.

الدكــتور : إذن أنت يا زميلى العزيــز ترتكــب حماقة مزدوجة حين تسارع إلى اليأس قبل الأوان، وهذا شأن كل مستجد فى المهنة لم يتزود بعد بالتجارب، لا ريب

أن مهنة الطب حقل خصيب، ولكن خبراته لا تنبت عفوًا ومن تلقاء ذاتها، إنها أحلام شبابك التى رسمت لك الصورة بألوان زاهية نوعًا ما.

كنوك : يا زميلى العزيز كلامك هذا محشو بالأخطاء، فأولا أنا أبلغ من العمر أربعين عامًا، فإن كانت لى أحلام فهى ليست أحلام الشباب.

الدكتور : ليكن، ولكنك لم تمارس مهنة الطب قط.

كنوك : وهذا خطأ آخر.

الدكتور : ماذا؟ ألم تقل لى إنك لم تتخرج من كلية الطب إلا فى الصيف الماضى؟

كنوك : نعم وقدمت رسالة من اثنتين وثلاثين ورقة فلوسكاب عنوانها: "علامات تمام الصحة، قناع كاذب مخادع" ووضعت تحت العنوان مأثورة أسندتها إلى كلود

برنار هى "الأصـــحاء هــم مرضـــى غافلون".

الدكـــتور : إذن فنحن متفقان يا زميلى العزيز..

كنـــوك : على أن رسالتى أصابت كبد اللحقيقة.

الدكـــتور : لا.. على أن لا تزال فى أول السلم.

كنـــوك : عفوًا إن شهادتى حديثة ولكن لى خبرة بمهنة الطب ترجع إلى عشرين ســـنة مضت.

الدكـــتور : ماذا؟ هل كنت معاون صـــحة؟ هـــذه الوظيفة ألغيت منذ زمن طويل..

كنـــوك : كلا بل منتسبًا للكلية.. حاملا لشـــهادة البكالوريا..

مدام بارباليد : لم توجد قط بكالوريا فى الطب..

كنـــوك : بكالوريا فى الآداب يا سيدى..

الدكـــتور : كنت تمارس مهنة الطـــب إذن بـــدون شهادة وفى الخفاء؟

كنـــوك : كلا بل نهارًا جهارًا، لا فى بلـــد فـــى أقاصى الريف بعيد عن العمران، بـــل فى منطقـــة مســـاحتها ســـبعة آلاف كيلومتر تقريبًا..

الدكـــتور : هذا كلام غير مفهوم.

كنـــوك : بالعكس هى مسألة فى غاية البســـاطة، ومنذ عشرين ســـنة مضـــت تخليـــت مضطرا عن دراسة الآداب واشـــتغلت بائعًا فى قسم "الكرفتات" فـــى متجـــر كبير بمرسيليا، ثم فقدت عملى وأخذت أتسكع فى الميناء وقرأت إعلانًا عـــن سفينة حمولتها ١٧٠٠ طن مسافرة إلى الهند تطلب مشرفًا صحيا، ولا تشترط أن يكون حاصلاً على لقب دكتـــوراه، فماذا تفعل لو كنت مكانى؟

الدكتور : لا أفعل شيئًا بطبيعة الحال..

كنوك : أفهم هذا منك، فأنت لا تعشق مهنة الطب، أما أنا فقد تقدمت، وإذ كنت أمقت المواقف المريبة – فقد أعلنتهم منذ دخولى قائلا: "أيها السادة كنت أستطيع أن أزعم لكم أننى دكتور ولكنى فى الواقع لست دكتورًا بل أصرح لكم بما هو أدهى – إننى لا أعرف فى أى موضوع سأكتب رسالتى"، فكانت إجابتهم أنهم لا يتمسكون بلقب دكتور، وأن موضوع رسالتى لا يهمهم فى شىء، فرددت على الفور: مع الاعتراف بأننى لست دكتورًا فإننى أود – لأسباب تتعلق بالكرامة وحسن النظام – أن يطلق علىَّ فى السفينة لقب دكتور"،

فقالوا إن هذه المسألة طبيعية، ومع ذلك لبثت مدى ربع ساعة أشرح لهم الحجج التي زحزحتني عن التمسك بالصدق والأمانة وحملتني على المطالبة بلقب لاحقَّ لي فيه ولا يرضاه ضميري. وهكذا أطلت الحديث حتى لم يبق أمامهم سوى ثلاث دقائق للبت في تحديد مرتبي.

الدكتور : ولكن أصحيح أنه لم يكن لديك أي إلمام بالطب؟

كنوك : افهمني! إنني كنت منذ طفولتي أقرأ بشغف في الصحف كل إعلان عن علاج طبي أو دواء، وإذا اشترى أبواي علبة حبوب أو زجاجة دواء سائل، نزعت الورقة الملفوفة عليها وقرأت شرحها لطريقة الاستعمال، فما

بلغت التاسعة من عمرى حتى كنت أحفظ عن ظهر قلب نصوصًا طويلة عن عوارض الإمساك، وأستطيع الآن أن أتلو عليك من الذاكرة نص خطاب بديع أرسلته الأرملة: م.ع. من مدينة بورج عام ١٨٩٧ إلى المعمل الأمريكى الذى ينتج دواء ضد الإمساك اسمه: "الأعشاب السحرية الأكيدة المفعول". أتريد؟!..

الدكتور : لا تتعب نفسك إننى أصدقك.

كنوك : كان لهذه النصوص الفضل فى أنها جعلتنى منذ سن مبكرة آلف لغة الطب، ولكن فضلها الأكبر أنها كشفت لى من الطب عن حقيقة معناه وحقيقة أهدافه، هذه الحقائق التى يخفيها تعليم الطب فى الجامعة تحت زخرف من

المصطلحات العلمية الجوفاء، وأستطيع أن أقول لك إننى حين بلغت الثانية عشرة كنت قد تمت لى فطنة صادقة بالطب هى التى تعتمد عليها اليوم طريقتى فى العلاج..

الدكتور : لك طريقتك فى العلاج؟ يشوقنى أن أعرفها..

كنوك : إننى لا أقوم بدعاية، إذ النتائج وحدها هى التى تتكلم، وها أنت ذا اليوم تبيعنى عيادة هى باعترافك أنت، صفر فى صفر.

الدكتور : عفوًا. صفر فى صفر؟

كنوك : عد بعد سنة فسترى ماذا سأكون قد فعلت بها، سيكون أمامك البرهان القاطع، وإذ تجعلنى أنت أبدأ من

الصفر فإنك تضاعف عندى متعة التجربة.

جان : سيدى.. سيدى! [يتجه إلى الدكتور بارباليد] أظن أن يحسن أيضًا أن أفك "الكاربوراتير"..

الدكتور : أسرع.. أسرع [يعود] لما رأيت حديثنا قد طال، طلبت إلى السائق أن يباشر الآن تنظيف "الكاربوراتير" كما يفعل مرة كل شهر.

مدام بارباليد : ولكن كيف سترت وجهك فى هذه السفينة؟

كنسوك : قضيت الليلتين السابقتين لإبحارى وأنا أفكر وأتدبر، ثم أتاحت لى الخدمة ستة أشهر فى السفينة أن أتحقق من صحة

فهمى لمهنة الطب ووجدت أن ما أفعله مطابق لما يحدث فى المستشفيات.

مدام باربالِيد : أكان عليك أن تعنى بأناس كثيرة؟

كنـــوك : طاقم السفينة وسبعة من الركاب كلهـم رقيقو الحال، فى مجمــوعهم خمســة وثلاثون نفرًا.

مدام باربالِيد : عدد لا يستهان به.

الدكـــتور : وهل حدثت وفيات؟

كنـــوك : ولا مرة واحدة، فالوفاة ضد مبـــادئى، فأنا من أنصار تقليل الوفيات.

الدكـــتور : هذا شأننا جميعًا..

كنـــوك : أنت أيضًا؟ ما كنت أظن ذلك، اعتقادى أن واجبنا فى كلمتين أن نعمل علـــى استبقاء المريض وألا يصرفنا عن ذلك أى إغراء.

مدام باربالِيد : فى قول الدكتور نصيب من الحق.

الدكتور : والمرضى؟ هل كان هناك مرضى كثيرون؟

كنوك : خمسة وثلاثون.

الدكتور : يعنى كل فرد فى السفينة؟

كنوك : نعم كلهم جميعًا.

مدام بارباليد : وكيف كانت تسير السفينة إذن؟

كنوك : كان العمل بالتناوب.

[لحظة صمت]

الدكتور : اصدقنى الآن.. أحقا أنت دكتور؟ فإنهم لايسمحون هنا بمزاولة الطب إلا لمن نال الشهادة وستجر علينا المتاعب، فإذا لم تكن حقًا دكتورًا فمن الخير أن تصارحنا بذلك فورًا..

كنوك : أنا حقًا دكتور فعلا وقانونًا، إذ إننى حين رأيت أن تجربتى قد أيدت طريقتى فى الطب لم يصبح لى من تلهف إلا على أن أرسى هذه الطريقة

على دعائم ثابتة وفى نطاق واسع، ولم أجهل أن الحصول على الشهادة إجراء شكلى لا مفر منه.

مدام بارباليد : ولكنك قلت لنا إنك حديث عهد بدراسة الطب..

كنـوك : لم أستطع أن أنتظم فى دراسة الطب فى ذلك العهد الذى تحدثت عنه، فقد اضطررت من أجل كسب العيش أن أشتغل بعض الوقت بتجارة الفول..

مدام بارباليد : ما هذا؟

كنـوك : الفول السودانى.. [تبدو من مدام باربالية حركة]، كلا يا سيدتى.. اطمئنى.. لم أكن بائعًا يجول بسلة فى يده، لقد أسست مكتبًا رئيسيًا، يقصده باعة الفول السودانى لشراء حاجتهم، ولو بقيت فيه عشر سنوات لكنت أصبحت مليونيرًا، ولكننى لم أجد فى هذا العمل

أقل متعة، وكل مهنة فى الأعم إن طال
بها العهد تبعث على الملل، وقد تبينت
هذا بنفسى، أما المهنة الوحيـ+دة التى
لا تبعث الملل حقًا هى الطب أو ربما
السياسة أو البورصة، ولم أجرب هذه
المهنة بعد..

مدام بارباليد : وفى نيتك أن تطبق طريقتك هنا؟

كنـــوك : إذا لم تكن هذه نيتى لأطلقت ساقى للريح
وهربت، وهيهات لك أن تلحق بـــى،
كنت أفضل بطبيعة الحـــال أن أطبـــق
طريقتى فى مدينة كبيرة..

مدام بارباليد : [لزوجها] ها أنت ذا راحل إلى مدينة ليون
فلماذا لا تلتمس بعض الإرشادات من
الدكتور، فإنك لن تغرم شيئًا..

الدكـــتور : ولكن يبدو أن الدكتور كنوك لا يريد أن
يفضى بطريقته..

كنـــوك : [إلى الدكتور بارباليد بعد برهة من التفكيـــر]
أحب أن أخدمك، وها أنا ذا أقدم إليـــك الاقتراح التالى: بدلاً من أن أدفع لـــك دينى نقدًا فى يوم علمه عند الله، فإنى أدفعه لك عينًا، بأن أبقيك معى ثمانية أيام أدربك فيها على طريقتى..

الدكـــتور : [ممتعضًا] أنت تمزح يا صديقى العزيز، لعلك أنت الذى ستكتب لى بعد ثمانيـــة أيام تسألنى المشورة والنصح.

كنـــوك : لا داعى لهذا التأجيل ففى حســـابى أن أقتبس منك اليوم بعض إرشادات تكون لى نافعة جدا.

الدكـــتور : أنا تحت أمرك يا زميلى العزيز.

كنـــوك : هل فى مدينتكم قارع طبل؟

الدكـــــتور : تعنى "المنادى العمومى" الـــذى يـــدق الطبل ويبلغ الناس ما عنده؟

كنـــوك : هو بعينه..

الدكــتور : نعم لدينا هذا المنــادى العمــومى تكلفــه البلدية بأن يذيع تعليماتها ولا يلجأ إليه من الأفراد إلا رجل ضاع منه كــيس نقودة، أو صــاحب متجــر يصــفى بضاعته القديمة من فخار أو صينى.

كنــوك : فهمت! وكم يبلغ عــدد ســكان ســان موريس؟

الدكــتور : ثلاثة آلاف وخمسمائة على ما أظن، أما إذا ضممت إلى البلدة ضواحيها فالعدد ستة آلاف تقريبًا..

كنــوك : وعدد سكان المركز كله؟

الدكــتور : ضعف هذا العدد على الأقل..

كنــوك : وهل السكان فقراء؟

مدام بارباليد : لا بالعكس هم من ميسورى الحال بــل من الأغنياء، فهناك ضــياع واســعة، وكثير من الناس يعيشون على موارد أملاكهم.

الدكـــتور : وكلهم على درجة فظيعة مـــن الشـــح والتقتير..

كنـــوك : وهناك مصانع؟

الدكـــتور : عدد قليل جدا..

كنـــوك : والحركة التجارية؟

مدام بارباليد : ليست الدكاكين هى التى تنقصنا..

كنـــوك : وأصحابها.. هل تجارتهم هى شـــغلهم الشاغل؟

الدكـــتور : كلا فإن أغلبهم يشتغل بالتجارة لزيـــادة دخلهم أو على الأخص لخلق وســـيلة يشغلون بها أوقات فراغهم.

مدام بارباليد : والعادة أن الزوجة تحرس الدكان على حين يخرج الزوج يتسكع باحثًا عـــن تسلية..

الدكـــتور : أو العكس.

مدام بارباليد : أعترف بأن الزوج فى الغالب هو الذى يهجـــر الدكان، ذلك أولاً لأن النســـاء

لا يعرفن أين يذهبن، علـــى حـــين أن الرجال أمامهم أن يذهبوا إلى الصـــيد بالبندقية أو صيد السمك، وفى الشـــتاء يذهبون إلى المقهى.

كنـــوك : وهل النساء متمسكات بالتقوى؟

الدكـــتور : [بارباليد يأخذ فى الضحك] هذا سؤال لـــه أهميته عندى.

مدام بارباليد : كثيرات منهن يـــذهبن للصـــلاة فـــى الكنيسة.

كنـــوك : وهل للدين دور كبير فـــى مشـــاغلهن اليومية؟

مدام بارباليد : ياله من سؤال عجيب!

كنـــوك : بديع جدا [يفكر] أليس هنـــاك رذائـــل جسيمة؟

الدكـــتور : ماذا تعنى؟

كنـــوك : أفيـــون.. كوكـــايين.. نـــدوات ســـمر وعربدة، شـــذوذ جنســـى.. تعصـــب سياسى..

الدكـــتور : إنك تخلط بين أشياء متباينة، إننى لـــم أسمع قط عن أفيون ولا ندوات ســـمر وعربدة، أما السياسة فهى تشغل أهـــل البلد كغيرهم من الناس.

كنـــوك : ولكن هل فيهم من يهـــرى جلـــد أبويـــه لتغليب رأيه فى قانون الانتخاب مـــثلاً أو قانون ضريبة الإيراد؟

الدكـــتور : لم يصلوا إلى هذا الحد والحمد لله.

كنـــوك : والخيانة الزوجية؟

الدكـــتور : أفندم؟

كنـــوك : هل تتفشى عندكم فوق الحد؟ وهل يشغل أمرها الناس شغلاً شديدًا؟

الدكـــتور : أسئلتك عجيبة، فبلدنا مثل أى بلد آخـــر فيه رجال تخونهم زوجـــاتهم، ولكـــن عددهم معقول.

مدام باربالبد : أولاً إن الخيانة الزوجية غير ميسورة إذ إن الناس يتفانون فى مراقبة بعضهم.

كنـــوك : أليس لديكما معلومـــات أخـــرى عـــن المذاهب الدينية؟ عن الخرافات؟ عـــن الجمعيات السرية؟

مدام باربالبد : بعض نساء بلدتنا الفارغات اشتغلن فى وقت من الأوقات بتحضير الأرواح.

كنـــوك : آه.. آه..

مدام باربالبد : يجتمعن عند زوجـــة الموثـــق وتـــتكلم الروح بحركة من المنضدة.

كنـــوك : مصيبة.. هذا شىء كريه.

مدام باربالبد : ولكنهن فيما أظن أقلعن عن عادتهن.

كنـــوك : آه أحسن .. وهل يوجد كذلك مشتغلون بالسحر أو بالعلاج الروحانى؟ مـــثلاً

فلاح تفوح منه رائحة الأغنام يزعم أنه يشفى الناس بالرقى والتعاويذ؟

[جان يشاهد بين الحين والآخر وهو يدير المانيفلا حتى تتبهر أنفاسه ثم يجفف عرقه]

الدكتور : ربما كان هذا موجودًا فيما مضى أما اليوم فلا..

كنوك : [تتجلى عليه مظاهر التحفز.. ويحك كفًا بكف وهو يتمشى] خلاصة القول أنه قد آن للعصر الطبى أن يشرق [يقترب من السيارة] يا زميلى العزيز أمن القسوة على هذه السيارة أن تسألها بذل مجهود جديد؟ إننى متلهف على بدء إقامتى فى سان موريس.

مدام بارباليد : يا لها من لهفة مفاجئة!

كنوك : من فضلكم! فلنصل إلى بلدتكم المتربعة فوق قمة الطريق.

الدكتور : أى عامل قوى أصبح يجذبك إليها إذن؟

[كنوك يتمشى جيئة وذهابًا فى صمت]

كنـــوك : يا زميلى العزيز، يخيل إلى أنـــك قــد فوت عليك فى تلك البلد فرصة بديعة، وإن اقتبست أســلوبك أقــول: إنـــك حصدت الشوك بعرق الجبين بدلاً من الثمار الطيبة، كان ينبغى لك أن ترحل وأنت غارق فى الذهب ومتربع علـــى أكداس من الأوراق المالية، وأنت يـــا سيدتى تتحلين بعقد من اللؤلؤ من ثلاثة فروع، وكلاكما فى سيارة فخمة [يشير إلى السيارة الرثة] لا فى هــذا التـــأثير التاريخى لأول حبو للنبوغ العصرى.

مدام بارباليد : أتمزح يا دكتور؟

كنـــوك : لو كان مزاحًا لكان قاسيًا يا سيدتى.

مدام بارباليد : إذن فهذا كلام فظـــيع.. هل ســـــمعت يا ألبرت قوله؟

الدكـــتور : أدركت أن الدكتور كنوك يجـــرى وراء السراب وأنه فوق ذلك هوائى لا يقـــر له قرار.. تتلاعـــب بـــه الأحاســـيس متباينة فى غاية الغلو، فهو يرى تارة أن العيادة لا تســـاوى ولا صـــولدى، وتارة أنها من الذهب [يرفع كتفيه إلـــى أعلى] .

مدام باربااليد : وأنت أيضًا، إنك مستبد برأيك، ألم أقل لك أكثر من مرة إنك لو عرفت كيف تعالج الأمور لكانت لنـــا فـــى ســـان موريس حياة أفضل من التى عشناها.

الدكـــتور : طيب.. طيب.. إننى سأعود بعد ثلاثـــة أشهر عند حلول القســـط الأول مـــن الدين، وسنرى ماذا يكون حال الدكتور كنوك..

كنـــوك : وهو كذلك.. ارجعوا بعد ثلاثة أشـــهر، وسنجد حينئذ فسحة من الوقت نتبـــادل

فيها الحديث، أما الآن فإنى أناشدكم أن نرحل فورًا.

الدكتور : [إلى جان بتهيب] هل أنت مستعد؟

جان : [بصوت خافت] أما عن نفسى فأنا مستعد ولكنى لا أظن أننا سنفلح هذه المرة بمجهودنا وحده أن نحرك السيارة.

الدكتور : [بنفس اللهجة] وكيف؟

جان : [يهز رأسه] يلزمنا رجال أشد قوة منا.

الدكتور : وما قولك لو حاولنا دفعها؟

جان : [وهو غير واثق] ربما.

الدكتور : أنا واثق أننا نستطيع، فأمامنا عشرون مترًا فى طريق منبسط، وسأتولى عجلة القيادة، وتقوم أنت بدفع السيارة.

جان : فليكن.

الدكتور : ثم تعمد إلى القفز على سلم السيارة فى اللحظة المناسبة.. فهمت؟.. [يعود الدكتور للآخرين] إذن هيا اركب

يا زميلى العزيز، سأتولى، أنا قيـــادة
السيارة إذ إن جان – لأنه عمـــلاق –
يريد من قبيل اللهو والتسلية أن تطلـــع
بنا السيارة بغير عون من "المـــانيفلا"
طلعة يمكن أن نسميها "أوتوماتيكية" مع
أن قوة العضلات تقوم بعمل الشــــرارة
الكهربائية، وكلا القوتين فى الحق من
نوع واحد تقريبًا..

[جان يميل على مؤخرة السيارة يدفعها]

الفصل الثانى

[فى المسكن الذى كان يقيم فيه الدكتور بارباليد من قبل، وقد أثثه الدكتور كنوك بترتيب مؤقت: منضدة.. مقاعد.. دولاب كتب.. شيزلونج.. سبورة..حوض للغسيل.. وعلى الجدران رسومات علم التشريح..].

المشهد الأول

كنوك – المنادى العمومى

كنوك : [وهو جالس يجيل نظره فى الحجرة ثم يكتب] أنت المنادى العمومى.

المنادى : [وهو واقف] نعم يا سيدى..

كنوك : نادنى بلقب دكتور.. وتكون إجابتك: نعم يا دكتور أو لا يا دكتور..

المنادى : حاضر يا دكتور..

كنـــوك : وحين تتاح لك فرصة التحدث عنى مع الناس فلا يفوتك أبدًا أن تكون عبارتك هكذا: الدكتور قال.. الدكتور فعـل.. هذه مسألة تهمنى، وبأى عبارة كنـتم تتحدثون إلـى الـدكتور بارباليـد إذا جاءت سيرته؟

المنادى : كنا نقول: رجل طيب، ولكنـه لـيس حجة فى الطب..

كـنوك : ليس هذا ما سألتك عنـه، هـل كنـتم تقولون الدكتور؟

المنادى : كلا.. كنا نـقـول مسـيو باربالـيـد أو "أبو كشورة"!

كنـــوك : وما معنى "أبو كشورة"؟

المنادى : هذا وصف اشتهر به بين الناس ولكـن لم أفهم قط سببه.

كنـــوك : وهل كان رأيكم فيه أنه لـيس علـى درجة كبيرة من البراعة فى مهنته؟

المنادى : أما عن نفسى فاعتقادى أنه كان على درجة لا بأس بها من البراعة، وبقية الناس لايعترفون.. بذلك.

كنوك : عجيبة!

المنادى : وكان إذا قصده إنسان لم يجد..

كنوك : لم يجد ماذا؟

المنادى : يجد علته، ففى تسعين فى المائة من الحالات يصرف المريض بقوله: "عارض تافه" وستكون يا صديقى من غد فى أتم صحة وعافية..

كنوك : حقًّا؟

المنادى : أو لا يلقى باله إلى حديث زائره مرددًا "طيب.. طيب.." أو "نعم. نعم." ثم ينطلق فى التحدث ساعة كاملة عن مسألة أخرى، كأن يتحدث مثلا عن سيارته..

كنـــوك : كأنما يقصده المــريض ليســمع هــذا الحديث؟

المنادى : ثم يصف دواء زهيد الثمن يكون أحيانًا شرب سائل معرّق، وأنت مــدرك أن الذى يدفع ثمانية فرنكات أجر استشارة الطبيب لايرى له أن يصف دواء زهيد الثمن؟ أن أشد الناس غباء ليس فــى حاجة لاستشارة طبيب مــن أجــل أن يصف له احتساء فنجان من البابونيك..

كنـــوك : يحزننى ما أسمعه منك ولكن استدعيتك لأستفسر منك عن شىء. هو الأجــر الذى كنت تتقاضاه من الكتور بارباليد حين يكلفك بإذاعة إعلان له؟

المنادى : [بمرارة] إنه لم يكلفنـــى قــط بإذاعـــة إعلان له..

كنـــوك : ماذا تقول؟ حتى ولا مرة واحدة فـــى بحر ثلاثين عامًا؟

المنادى : ولا إعلان واحد فى ثلاثين سنة أقسم لك..

كنوك : لابد من أنك نسيت؛ لا أستطيع أن أصدقك. وباختصار ما هى تعريفة الأجور؟ [ينهض من مقعده ممسكًا ورقة فى يده]

المنادى : ثلاثة فرنكات للجولة القصيرة.. وخمسة فرنكات للجولة الكبيرة، وقد تحسب أن الأجر مرتفع، ولكنه عمل يتطلب جهدًا كبيرًا، وعلى كل حال فإنى أنصح سيدى...

كنوك : الدكتور..

المنادى : إنى أنصح الدكتور إذا هان عليه دفع زيادة فى الأجر فى حدود فرنكين اثنين أن يختار الجولة الكبيرة فهى أكثر بركة من الأخرى..

كنوك : ما الفرق بينهما؟

المنادى : فـــى الجولة الصغيرة أنـــادى خمـــس مرات أمام البلدية وأمام مكتب البريـــد وأمام فندق المفتـــاح وفـــى الميـــدان الكبير، وعند مدخل السوق، أما فـــى الجولة الكبيرة فإنى أقف وأنادى إحدى عشر مرة سأعددها لك..

كنـــوك : فهمت! سأختار الجولة الكبيرة، فهـــل أنت خال من الشغل هذا الصباح؟

المنادى : على الفور إن شئت..

كنـــوك : إليك إذن نص الإعلان [يناوله الورقة]

المنادى : [يتأمل الورقة] إننى أفك الخط، ولكنـــى أفضل أن تقرأه لى.. لأول مرة.

كنـــوك : [يقرأ النص بتمهل، والمنادى ينصت ممتحنًـــا إيقاع الـــتلاوة طبقًـــا لأصـــول المهنـــة] : "الدكتور كنوك خليفة الدكتور بارباليد يهدى تحياته إلى أهالى مدينة ومركز سان موريس ويتشرف بإحاطتهم علمًا

أنه استجابة لرغبته فى فعل الخير والقضاء على هذه الزيادة الموجبة للقلق فى تفشى مختلف الأمراض فى منطقة كانت معروفة بطيب مناخها...

المنادى : هذه حقيقة صارخة..

كنوك : ... فإنه يعلن أنه يتبرع بالكشف مجاناً على المرضى من أهل المركز كل يوم اثنين من الساعة التاسعة والنصف إلى الساعة الحادية عشر والنصف.. أما إذا كان المريض ليس من أهل المركز فإن أجر الاستشارة سيظل كالمألوف: ثمانية فرنكات..".

المنادى : [يتناول الورقة باحترام] حقاً إنها فكرة جميلة.. فكرة ستكون موضع تقدير، فكرة فاعل خير [يغير لهجته]، ولكنك تعلم أن اليوم هو يوم الاثنين، فإذا أذعت هذا الإعلان هذا الصباح فلن

تمضى خمس دقائق حتى يتقاطر الناس إليك..

كنـــوك : بهذه السرعة؟ أتظن ذلك؟

المنادى : لعلك لم تتنبه إلى أن يوم الاثنين هـو يوم السوق ونصـف أهـل المركـز مجتمعون به وسيبلغ الإعـلان هـذا الحشد الضخم ولن تعرف مـن شـدة الزحام عليك رأسك من رجليك..

كنـــوك : سأبذل جهدى وأحسن التصرف...

المنادى : بقيت مسألة أخرى .. إن يوم السـوق هو اليوم الذى يتيح لك أكبر فرصـة ظفـر بزبائن، وكان الدكتور بارباليد لا يجد زبونًا إلا فى هذا اليوم [ثم يقول له بألفة] فإذا كشفت عليهم مجانًا..

كنـــوك : لا يغيب عليك يا صـديقى أن الـذى أريده قبل كل شىء هو أن يألف الناس معالجة أبدانهم، وإلا لو كـان المـال

مطمعى لكنت فتحـت عيـادتى فـى باريس أو نيويورك..

المنادى : آه.. لقد وضعت أصبعك على العلـة، فإن الناس هنا لا يهتمـون بـالعلاج اهتمامًا كافيا..

كنـوك : ألاحظ يا صديقى أن لك منطقًا حكيمًا.

المنادى : [وقد ملأه الزهو] أوه.. بـالطبع إن لى منطقًا حكيمًا. مع إننى لم أنل مـن التعليم ما كنت أستحقه، ولكن هنـاك كثيرًا من المتعلمين ينهزمـون عنـد الجدل أمامى، وحضرة العمدة – وإن كنت لا أريد ذكره – عنده عن ذلـك الخبر اليقين، دعنى أقص عليك كيف حدث ذات يوم يا سيدى..

كنـوك : يا دكتور.

المنادى : [بنشوة] يا دكتور.. كيـف حـدث ذات يوم أن كان مأمور المركـز بنفسـه

موجودًا فى البهو الكبير المخصص لعقد الزواج فى دار العمدة، ويمكنك أن تستوثق من صحة الوقائع ممن حضر من كبار القوم مثل حضرة نائب المأمور وإن كنت لا أريد ذكره أو مسيو ميكالون.. فإذا بى...

كنوك : فإذا بحضرة المأمور قد أدرك من فوره أنه بإزاء رجل فذ، وأن منادى البلد هو مناد يحسن إقامة الحجة بما لا يحسنه أناس وإن كانوا لم يمتهنوا مهنته إلا إنهم يشمخون بأنوفهم ادعاء بأن مقامهم يعلو من فوق مقامه بكثير، ثم إن الذى انعقد لسانه وارتبك لم يكن إلا حضرة العمدة نفسه..

المنادى : [فى سعادة كبيرة] هذه هى الحقيقة بعينها، فلا حاجة إلى تغيير كلمة واحدة فيها، ويكاد المرء يقسم أنك

موجودًا حينئذ بيننا، مختبئًا فى ركـن صغير..

كنـوك : إننى لم أكن موجودًا هناك يا صديقى..

المنادى : إذن لابد من أن يكون قـد روى لـك القصة إنسان ذو مقام [تصدر من كنوك حركة تنم عن تحفـظ دبلوماسـى]، ولـن تستطيع أن تنزع مـن رأسـى أنـك تحدثت فى هذا الموضوع مع حضرة المأمور..

كنـوك : [يقنع بالابتسام ثـم يـنهض] إذن فـإننى أعتمد عليك يا صديقى اعتمادًا كبيرًا.. أليس كذلك؟

المنادى : [بعد تردد متـوال] إننى لن أسـتطيع أن أملك المجىء للعيادة مبكرًا، وإذا ملكته فسيكون بعد فوات المواعيد، فهل لـك أن تسدى إلىَّ جميلا يدل على طيبـة قلبك اكشف علىَّ فورًا..؟

كنـــوك : هيه.. بشرط أن تسرع فلدى موعد مع مسيو برنار المدرس، ومسيو موسكيه الصيدلى، وينبغى أن أقابلهمـــا قبـــل مجىء الزبائن، مم تشكو؟

المنـادى : انتظر حتى أفكر [يضحك] .. بعـــد أن أتناول عشائى أحس أحيانًا بشىء يشبه الأكلان هنا [يضع يده على أسفل بطنـــه] شىء يشبه الدغدغة أو الخربشة..

كنـــوك : [وقد استغرق فى تفكير عميـــق] أحتـــرس، حذار من الخلط، ينبغى أن تقول لـــى هل هى دغدغة أم خربشة!

المنـادى : إنها خربشة [يفكر] ولكنها مصـــحوبة بدغدغة بسيطة أيضًا..

كنـــوك : أرنى الموضع بالظبط.

المنـادى : هنا..

كنـــوك : أين هنا هذه؟

المنادى : هنـــا.. أو قد يكون هنا.. أو قد يكـــون بين الموضعين..

كنـــوك : فى الوسط بين الاثنين تمامًا؟ أم يكـــون أبعد قليلا إلى اليسار؟ هنا حيث أضع إصبعى؟

المنادى : يجوز

كنـــوك : هل تشعر بألم حين أغرز إصبعى؟

المنادى : نعم.. يخيل إلى أننى أشعر بألم..

كنـــوك : آ... آه [يفكر وقد انعقد جبينه دلالـــة علـــى التوجس] أفلا تشعر بهذا الأكلان يزداد عن المالوف إذا أكلـــت رأس عجـــل مطبوخ بالخل؟

المنادى : إننى لا آكل لحم الرأس أبدًا، ومع ذلك يخيل إلى أننى لو أكلته لزاد الأكـــلان عن المألوف.

كنـــوك : آه.. آه هذا شىء مهم جدا آه.. آه.. كم عمرك؟

المنادى : ما بين واحد وخمسين واثنين وخمسين.

كنــوك : ولكن لأيهما عمــرك أقــرب؟ لواحــد وخمسين أم لاثنين وخمسين؟

المنادى : [يرتبـك قلـيلا] أقـرب إلــى الثانيـة والخمسين إذ سأتم السنة فى نــوفمبر القادم..

كنــوك : [يضع يده على كتفه] يا صديقى.. باشــر عملك اليوم كعادتك وفى المساء ارقــد فى فراشــك مبكرًا وابق فيــه غــدًا لا تبرحه، وسأمر عليك لأفحصك ولن أتقاضى أجرًا منك أنت، ولكن لا تنقل، هذا الخبر لإنسان، إنه إكرام منى لك..

المنادى : إنك طيب جدا يا دكتور، ولكــن هــل علتى خطيرة؟

كنــوك : إنها لم تصبح بعد خطيرة جدا، ولكن قد آن أوان علاجها.. هل تدخن؟

المنادى : [يخرج منديله] كلا.. بل أمضغ التبغ.

كنـوك : ممنوع مضغ التبغ منعًا باتًا.. هل تحب النبيذ؟

المنادى : إننى أشربه باعتدال..

كنـوك : ممنوع شرب النبيذ ولو قطرة واحدة.. هل أنت متزوج؟

المنادى : نعم يا دكتور [المنادى يمسح عرقه].

كنـوك : ينبغى التزام منتهى التعقل فـى هـذه الناحية. فهمت؟

المنادى : هل أستطيع أن آكل؟

كنـوك : اليوم ما دمت تؤدى عملـك، فلـك أن تشرب شيئًا من الحساء، وغدًا سنتدبر وضع قائمة صارمة بالممنوعات، وإلى ذلك الحين عليك أن تتبع ما قلته لك..

المنادى : [يمسح عرقه مرة أخرى] . ألا يكون من الخير فى رأيك أن ألزم الفراش مـن

فورى؟.. إننى حقًا لا أشعر بأن حالتى طبيعية..

كنـــوك : [يفتح الباب]. حذار من هذا، ففى حالتك هذه لايحسن الرقاد فى الفراش ما بين طلوع الشمس وغروبها، فباشر عملك كأن لم يطرأ عليك شىء، انتظر بهدوء حتى يجىء المساء. [المنـــادى يخـــرج والدكتور كنوك يشيعه].

المشهد الثانى

كنــوك – المدرس برنـــار

كنــوك : صباح الخير يا مســيو برنار، عســى ألا أكون قد أزعجتك كثيرًا بــدعوتك للمجىء إلىَّ هذه الساعة..

برنار : كلا.. كلا.. فقد ملكت دقائق قليلة مــن وقتى إذ إن مساعدى يتــولى مراقبـــة التلاميذ فى الفسحة.

كنــوك : كنت أتوق إلى تبادل الحــديث بيننـــا، فلدينا مهام كثيرة ينبغى أن نتشارك فى حملها، مهام عاجلة، ولست أنا الــذى يضحى بهذه المعاونة الجليلة التى كنت تسديها إلى سلفى.

برنار : أية معاونة؟

كنـــوك : أحب أن أقول لك إننى لســت بالرجـل الذى يفرض آراءه على الغير أو يهدم من الأساس كل ما بناه الآخرون مــن قبل، فستكون أنت فى البدء مرشــدى ودليلى..

برنار : لا أتبين مغزى كلامك..

كنـــوك : لنترك الآن كل شىء على ما هو عليه، ثم نتناوله بالتحسين فيما بعد إن لــزم الأمر [كنوك يجلس].

برنار : ولكن..

كنـــوك : فى مجـــال الإرشـــاد الصـحـــى أو المحاضرات الشــعبية أو النــدوات الصغيرة التى نعقدها معًــا، ســتكون طريقتك هــى طريقتــى ومواعيــدك مواعيدى..

برنـــار : المسألة يا دكتور أننى أخشى ألا أكون قد أدركت الهدف الذى ترمى إليه بهذه التلميحات كلها..

كنـــوك : أود أن أقول بكل بساطـــة إننى راغب فى إبقاء الصلة بيننا كاملـــة لا تمـــس حتى خلال الفترة التى أنشـــغل فيهـــا بترتيب عيادتى..

برنـار : لابد من أن فى كلامك معنى أنا عاجز عن فهمه..

كنـــوك : عجبًا.. ألم تكن علـــى صـــلة دائمـــة بالكتور باربااليد؟

برنـار : كنت أقابله بين الحـــين والآخـــر فـــى مقصف فندق المفتاح أو كان يحدث أن نلعب البلياردو معًا..

كنـــوك : هذا النوع مـــن الصـــلات لـــيس هـــو موضوع كلامى..

برنـار : لم تكن بيننا صلات سواها..

كنـــوك : عجبًـــا.. عجبًـــا.. كيـــف إذن كنتمـــا تتقاسمان عبء الإرشاد الصحى بـــين الأهالى ونشر الدعاية الصـــحية بـــين الأسر؟ وغير ذلك من الأمور؟ إننـــى أعنى جماع المهام التـــى لايســـتطيع المـــدرس والطبـــيب النهـــوض بهـــا إلا بعمل مشترك بينهما..

برنار : لم نتشارك أبدًا فى شىء..

كنـــوك : ماذا؟ هل فضل كل منكمـــا أن يعمـــل مستقلا؟

برنار : المسألة أبسط من ذلك، فهذه أشياء لـــم نفكر فيها قط لا أنا ولا هو، وهذه هى أول مرة أسمع فيها مثل هذا الكلام فى سان موريس.

كنـــوك : آه.. هذه أنباء أؤكد لك أننـــى لـــو لـــم أسمعها من فمك أنت لما صدقتها أبدًا..

[فترة صمت]

برنـــار : يؤسفنى ما سببته لك من خيبة الأمل.. ومن الإنصاف أن تسلم بأنه لم يكن فى وسعى أنا اقتراح وضع خطة مطابقــة لرأيك حتى لو جالــت فكرتهــا فــى رأسى، وحتى لو لم يلتهم عملى فــى المدرسة كل وقتى..

كنــوك : بالطبع! كنت تنتظر دعوة فلم تجئك.

برنار : ما قصدنى إنسان لخدمــة إلا بــذلت جهدى فى أدائها.

كنــوك : أعلم هذا يا مسيو برنار..أعلم هذا [فترة صــمت] ما أبأس أبناء هذا البلد نفضت منهم الأكف، فلا يبصرهم أحد بوسائل العلاج والوقاية.

برنار : هذا هو الواقع.

كنــوك : أراهن أنهم يشــربون المــاء دون أن يشغل بالهم أن فى كل جرعة بلايــين البلايين من البكتريا..

برنار : آه.. هذا محقق.

كنـــوك : ألديهم على الأقل علم بالميكروبات؟

برنار : أشك فى ذلك كثيرًا .. إن بعض الناس هنا يعلمـــون هـــذه الكلمـــة ولكـــنهم يتصورون أنها اســـم لـــبعض أنـــواع الذباب..

كنـــوك : [وهو ينهـــض] هذا فظيـــع.. صـــدقنى يا عزيزى مسيو برنار إننا لن نستطيع فى ثمانية أيام أن نصلح أنا وأنت آثار سنين عديدة من.. من عـــدم المبـــالاة ولكن ينبغى لنا مـــع ذلـــك أن نعمـــل شيئًا..

برنار : لا مانع عندى، إنما أخشـــى ألا أنفعـــك كثيرًا.

كنـــوك : يا مسيو برنار.. سبق لشخص بك جـــد خبير أن كشف لى عن عيب جسيم فى طبعك وهو التواضع فما يجهل إنسان

غيرك أنك هنا صاحب رأى مطاع بفضل سمو مكانتك الأدبية ونفوذك الشخصي، وأرجو أن تغفر لي مجابهتك بهذه الحقيقة، فما يتاح لعمل جدى نافع أن يتم هنا إلا بفضلك.

برنار : أنت تبالغ يا دكتور.

كنوك : إذن اتفقنا، أستطيع وحدى أن أعالج المرضى، ولكن المرض ذاته من الذى يعيننى على محاربته ومطاردته، من ذا الذى يبصر أخواننا المساكين هنا بالخطر الذى يهدد أبدانهم فى كل لحظة، ومن ذا الذى يعلمهم، أنه لا ينبغى تأجيل طلب الطبيب إلى حين طلوع الروح؟

برنار : لا أخالف رأيك فيهم، إنهم فى غاية الإهمال..

كنــوك : [بحماس يتزايد شيئًا فشيئًا] لنبدأ من البداية، لدى هنا نــص محاضــرات عديــدة مكتوبة بلغة بسيطة، وملحق بها بيانات مستوفاة وصور على زجاج وفــانوس سحرى، فتتولى أنت بخبرتك تنظــيم الانتفاع بهذا كله. وكخطوة أولى إليك بنص كامل لمحاضــرة لذيــذة عــن التيفويد تتحدث عن تســترها تحــت علامات خادعة لا ينتبه لها المــريض وعن مصادرها التى تفــوق الحصــر كالماء والخبز واللبن والمحار والسلطة والخضــــروات والتــــراب وتــــنفس المريض.. إلخ.. إلخ.. وكيــف أنهــا تكمــن الأســابيع والشــهور دون أن تفضحها علامة وكيف أنها تحدث فجأة عللا مميتة وتجد وراءها مضــاعفات خطيرة، وهذا النص مصحوب بمناظر

جميلة، صورة للباشلاص فى حجم ضخم جدا وصورة مماثلة من براز المريض، وغدد ملتهبة، ومصارين مثقوبة، ليست صورًا بالأبيض والأسود، بل هى صور ملونة كما تروم بالوردى والكستنائى والأصفر والأبيض المخضر..

برنار : [وقد بدت عليه علامات الابتئاس] المسألة أننى رجل سريع التأثر وإذا أغرقت نفسى فى هذه اللجة فلن أذوق النوم..

كنوك : هذا هو الواجب بعينه، أريد أن أقول إن صدمة الصحوة المباغتة هى التى ينبغى لنا أن تزلزل بها أحشاء السامعين، أما أنت يا مسيو برنار فستتعود عليها، فدعهم هم يأرقون لها [يميل عليه] فخطيئتهم أنهم ينامون فى أمان خادع لا يوقظهم منه إلا بعد

فوات الوقت مرض ينزل عليهم كالصاعقة.

برنار : [تتمشى فى جسده رعدة، يده على المكتب ونظرته متهربة] إننى لا أتمتع بصحة متينة وقد لقى أبواى عنتًا شديدًا فى السهر علىَّ، وأعلم أن الميكروبات التى تقدمها لنا على الألواح الزجاجية ما هى إلا صورة، ولكن ألا ترى..

كنوك : [كأنه لم يسمع شيئًا] أما هؤلاء الذين يسمعون المحاضرة الأولى فلا يتحولون عن برودهم فقد أعددت لهم محاضرة ثانية بعنوان يبدو بريئًا هو: "حاملو الميكروبات" فيها براهين واضحة وضوح النهار مدعمة بأمثلة عن حالات كانت موضع درس ومراقبة تثبت أن الشخص قد يجوس خلال الناس، وجهه مشرق، ولسانه

وردى، وطعامه مأكول بشهية بديعة،
ومع ذلك فهو يخفى فى تلافيف جسده
ملايين الملايين من الباشلاص فى أشد
درجات النشاط بحيث يكفى ما يحملــه
منها لتلويث مقاطعة بأكملها [ينهض]
فاعتمادًا على العلم والعمل، أشتبه فى
أول قادم أن يكون حاملا لميكروبات،
وها أنت ذا مثلا لاشىء يؤكد لى أنك
لست واحدًا منهم..

برنار : [ينهض] أنا يا دكتور؟!

كنــوك : ما أشد عجبى لو استمع إنســان لهــذه
المحاضرة الثانية البسيطة وبقى بعدها
رائق المزاج..

برنار : هل تظن أننى يا دكتور مــن حــاملى
الميكروبات؟

كنــوك : ليس بالضرورة أنــت، إننــى كنــت
أضرب مثلا، ولكنى ها أنــذا أســمع

صوت المسـيو موسكيه، فإلى اللقـاء يا عزيزى المسيو برنار، وشكرًا على انضـمامك إلىَّ، هـذا الانضمام الذى لم أكن أشك فيه قط..

المشهد الثالث

كنوك – الصيدلى موسكيه

كنــوك : تفضل اجلــس يــا عزيــزى المســيو موسكيه، لم يسعفنى الوقت أمس إلا أن ألقى نظرة عاجلــة علــى محتويــات صيدليتك، ولكن لم أكن فى حاجة إلى مزيد لأتبين أنها صيدلية ممتازة فــى ترتيبها وفى النظــام المحكــم الــذى يسودها، وفى أخذها بأحدث الأساليب حتى فى أصغر الأشياء.

موسكيه : [فى ثياب متواضعة بل مهملة] يــا دكتــور أنت رجل مجامل جدا..

كنــوك : هذه مسألة أنا حــريص عليهــا أشــد الحرص، فإنى أعتقد أن الطبيب الذى

لا يتاح له الاعتماد على صيدلى من الدرجة الأولى، هو بمثابة قائد جيش يمضى إلى المعركة بدون مدفعية..

موسكيه : يسعدنى أن أراك تقدر أهمية مهنتى..

كنوك : ويسعدنى أنا أيضًا أن أقول إن مؤسسة كمؤسستك لاشك أنها تلقى جزاءها وأنك تكسب فى السنة خمسة وعشرين ألفًا على الأقل..

موسكيه : من الأرباح؟ آه.. يا إلهى لو أننى كسبت ولو نصفها..

كنوك : يا عزيزى مسيو موسكيه، إنك الآن لست أمام مندوب مصلحة الضرائب، إنك أمام صديق بل دعنى أقول إنك أمام زميل..

موسكيه : ستكون إهانة لك لا أرضاها لو عاملتك بحذر مستريب، وإنما الذى قلته لك هو

الحقيقة بعينها مع الأسف [بعد فترة تريث] إننى أكافح كفاحًا شديدًا لئلا يقتصر مكسبى على عشرة آلاف..

كنوك : ألا تدرك أنها فضيحة؟ [موسكيه يرفع كتفيه بحركة تدل على الحزن] فإن مبلغ خمسة وعشرين ألفًا كان فى تقديرى هو الحد الأدنى.. وليس لك مع ذلك منافس..؟

موسكيه : ولا واحد إلا بعد خمسة فراسخ..

كنوك : إذن ما السبب؟ هل لك أعداء!

موسكيه : لا أعرف أن لى أعداء.

كنوك : [يخفض صوته] هل صحيفتك بيضاء لاتسودها هفوة يؤسف لها نتيجة سهو مثلا؟ خمسون جرامًا من صبغة الأفيون بدلا من زيت الخروع، وهذا سهو ميسور وقوعه؟

موسكيه : عملت عشرين سنة فلم تقع منى هفوة واحدة.. صدقنى..

كنوك : إذن.. إذن.. إننى أمقت أن أتقدم بفروض أخرى ولكن سلفى.. هل كان مقصرًا فى واجبه؟

موسكيه : هذه مسألة يختلف فيها الرأى.

كنوك : مرة أخرى أقول لك يا عزيزى مسيو موسكيه إن الكلام سيبقى بيننا نحن الاثنين سرًّا..

موسكيه : الدكتور بارباليد رجل ممتاز، وكان بينى وبينه أحسن صلة شخصية..

كنوك : ولكن "روشتاته" جميعًا لا تؤلف مجلدًا ضخمًا؟

موسكيه : الحقيقة نطق بها لسانك أنت..

كنوك : إننى حين أتدبر الآن جماع المعلومات التى جائتنى عنه أشتاتًا أرانى مدفوعًا

إلى التساؤل عما إذا كان سلفى يؤمن بالطب..

موسكيه : لقد بذلت غاية جهدى بإخلاص فى مبدأ الأمر فكنت إذا جاء الناس يشكون من أوجاع، ورأيت أن حالهم يدعو إلى شيء من القلق، أرسلت بهم إليه، ثم كأن سلامهم كان سلام وداع فلا أراهم يعودون إلىّ أبدًا..

كنوك : إن هذه الأخبار لها تأثير علىّ أشد مما كنت أود، إن لنا نحن الاثنين يا عزيزى مسيو موسكيه مهنتين من أحسن المهن عند الناس، أليس من العار إذن العمل على الحط بها قليلا قليلا عن قمة عالية من السلطان والثراء بلغتها بفضل جهود أسلافنا،

تكاد الشفتان تنطقان بعبـــارة تخريـــب مقصود..

موسكيه : بلا جدال، وإذا تركنا مســائل المـــال جانبًا فمن الإخــلال بالواجــب تــرك المهنة تنحدر إلى ما هو دون مستوى السباك والبقال، أوكد لك يا دكتور أن زوجتى لا تستطيع شــراء القبعـــات والجوارب الحريرية التى تتباهى بهـــا زوجة السباك كل أيام الأسبوع لا يوم الأحد وحده..

كنـــوك : اسكت يا صديقى العزيز، فإننى أتوجع لكلامك فما هو إلا كأنى أســمع مـــن يقول إن زوجة رئيس مجلس النـــواب قد انحدر بها الحال حتـــى أصـــبحت تغسل ملابس بائعة الخبز من أجل أن تحصل على حاجتها من الأرغفة.

موسكيه : لو كانت مدام موسكيه هنا لأخذها الطرب لسماع كلامك.

كنوك : فى منطقة مثل منطقة مركز سان موريس ينبغى لنا نحن الاثنين ألا نستطيع رفع رأسينا من كثرة العمل..

موسكيه : هذا حق..

كنوك : إننى أعتبر من حيث المبدأ أن جميع أهالى المركز هم بحكم وجودهم وحده زبائن يعتمد عليهم.

موسكيه : جميع أهالى المركز؟ أنت تطلب الكثير..

كنوك : أقوال أهالى المركز..

موسكيه : الواقع أن كل واحد منهم لابد من أنه قاصدنا فى يوم من الأيام فى مناسبة من المناسبات.

كنوك : زبون مناسبة؟ أبدًا.. أبدًا.. نريد زبائن منتظمين.. زبائن مخلصين..

موسكيه : ولكن ينبغى أولا أن يفترسهم المرض..

كنــوك : يفترسهم المرض؟ هذا فهم عتيق انهزم أمام مقررات العلــم الحــديث، ومــا الصحة إلا كلمة لا ضير مطلقًا مــن حذفها من قاموسنا، أما عن نفسى فإنى لا أعرف إلا أناسًا مصابين بــدرجات متفاوتة، بــأمراض تتكــاثر علــيهم بــدرجات متفاوتــة، وتشــتد علتهــا بدرجات متفاوتة، وبطبيعة الحــال إذا مضيت تقول لهم إنهم يتمتعون بكامل الصحة فإن تصديقك عندهم هو منــى القلب، ولكنك تخــدعهم، والاعتــذار الوحيد المعقول هو التعلل بكثرة العمل عند رفض قبول زبائن جدد..

موسكيه : هذه مبادئ جميلة على كل حال.

كنــوك : مبادئ تطابق كل المطابقة مبتكــرات العصر الحديث، امنحها فكرك يا مسيو

موسكيه فستجدها وثيقة الصلة بمبـدأ الأمة المسلحة التى هى عمـاد قـوة الأمم.

موسكيه : أنت رجل فكر يا دكتور كنوك، ومهمـا قال أصحاب المذهب المـادى، فـإن الفكر هو الذى يقود العالم.

كنـوك : [ينهض] انصت إلىَّ [الاثنـان واقفـان وكنوك يتناول يد موسكيه] لعلـى أكـون رجلاً مغرورًا لعل الزمن يخبئ لـى خيبة أمل مريرة، ولكن بعد سنة فـى مثل يومنا هذا لا قبل ولابعد، إذا لـم تكن قد كسبت دخلاً صافيًا قدره خمسة وعشرون ألفًا، وهو دخل من حقك أن تناله، وإذا لم تفز مدام موسـكيه بمـا تطلبه من أثواب وقبعات وجوارب فلك أن تصب علـىَّ لعناتـك وسـأمنحك وجهى لتهوى على كل خد بصفعة..

موسكيه : يا عزيزى الدكتور سأكون ناكرًا للجميل إذا لم أفض فى شكرك، وسأكون وضيعًا إذا لم أعنك بكل قواى..

كنوك : حسن.. حسن. أعتمد أنت علىَّ، كما أعتمد أنا عليك..

المشهد الرابع

كنـــوك – والسيدة ذات الثوب الأسود

[عمرها خمس وأربعون سنة، تـنم هيئتهـا عن شح أبناء الريف، وعن معاناتها لمرض الإمساك]

كنـــوك : آه.. ها هم الزبائن شرفوا [يرفع صوته يخاطب إنسانًا من وراء الباب] اثنا عشر؟! ينبغى إبلاغ القادمين الجدد، أننى بعـد الساعة الحادية عشر والنصـف لـن أستقبل مرضـى غرضـهم الكشـف مجانًا، هل أنت يا سيدتى أول من قدم [تدخل السيدة ذات الثوب الأسـود ويقفـل الباب] أنت من أهالى المركز؟

السيدة ذات الثوب الأسود : لا... إننى تابعة للبندر..

كنــوك : من سان موريس ذاتها؟

السيدة ذات الثوب الأسود : إننى أسـكن فـى المزرعـة الكبيرة الواقعة على طريـق لوشير.

كنــوك : والمزرعة هى ملكك؟

السيدة : نعم هى ملكنا أنا وزوجى..

كنــوك : إذا كنتما تزرعانها لحسابكما، فلا شـك أنكما غارقان فى العمل إلى الأذان..

السيدة : وماذا تظن يا سيدى؟.. ثمـانى عشـر بقرة، وعجلان، وثوران، وحصـان، وفرس، وست من الماعز، وضـعفها من الخنازير، هذا علاوة على الدجاج والبط والحمام..

كنــوك : عجبًا.. أليس عندكم خادم؟

السيدة : نعم بطبيعة الحال.. ثلاثة رجال وامرأة عدا عمال باليومية فى موسم الحصاد..

كنوك : قلبى معك، لاشك أنه لم يبق لك وقت للاعتناء بصحتك..

السيدة : نعم لا أجد الوقت..

كنوك : بالرغم من أنك مريضة؟

السيدة : لا يصدق القول بإننى مريضة، وإنما أشعر بضعف..

كنوك : نعم أنت تقولين إنه الضعف، [يقترب منها] أخرجى لسانك.. أرى أن شهيتك للطعام ضعيفة..

السيدة : نعم.. هى كذلك..

كنوك : أنت تعانين من الإمساك.

السيدة : نعم بقدر محسوس..

كنــوك : [وهو يفحصها] أخفضى رأسك، تنفســى، اسعلى، ألم يحدث لك فى صباك أنــك وقعت من على سلم؟

السيدة : لا أذكر..

كنــوك : [يعالج ظهرها بالجس والقرع عليه، ثم يضغط فجأة على كليتيهــا] ألم تشعرى هنا بــألم وأنت تأوين إلى فراشك فى المساء؟

السيدة : نعم فى بعض الأحيان..

كنــوك : [وهو ماض فى فحصها] حاولى التــذكر، لابد من أنه كان سلمًا عاليًّا..

السيدة : جائز جدا..

كنــوك : [بلهجة مؤكدة] إنه كان سلمًا طوله ثلاثــة أمتار ونصف مستندًا إلــى الجــدار، ووقعت منه على ظهرك، ومن حســن الحظ أن إليتك اليســرى هــى التــى أصيبت..

السيدة : أى نعم..

كنـــوك : هل سبق لك استشارة الدكتور بارباليد؟

السيدة : أبدًا.

كنـــوك : لماذا؟

السيدة : لأنه كان لا يكشـــف علـــى المرضـــى مجانًا.. [لحظة صمت]

كنـــوك : [يجعلها تجلس] هل تدركين ما بك؟

السيدة : كلا.

كنـــوك : [يجلس أمامهـــا] هذا أفضل، ولكن هل لك رغبة فى الشفاء أم ليس لك رغبة؟

السيدة : نعم لى رغبة فى الشفاء..

كنـــوك : الأفضل إذن أن أنبهك فـــورًا إلـــى أن العلاج سيكون طويلاً ونفقته كبيرة..

السيدة : آه.. يا إلهى.. ولم هذا؟

كنـــوك : لأنه لا يمكن فى خمس دقـــائق شـــفاء مرض عمره أربعون عامًا..

السيدة : أربعون عامًا؟!

كنـــوك : نعم.. أى منذ أن وقعـــت مـــن علـــى السلم..

السيدة : وكم سيكلفنى العلاج؟

كنـــوك : كم يبلغ ثمن العجل الآن؟

السيدة : هذا يتوقف على السوق وعلـــى حجـــم العجل، ولكن لا يمكن شراء عجل يملأ العين بأقل من أربعمائة أو خمســـمائة فرنك..

كنـــوك : وثمن الخنزير السمين؟

السيدة : يبلغ ثمن بعضها ألفًا..

كنـــوك : إذن سيكلفك العلاج عجلين وخنزيرين تقريبًا..

السيدة : آه..آه.. ثلاثة آلاف فرنك تقريبًا؟ هـــذه نكبة يا إلهى!

كنـــوك : إذا كنت تفضلين الحج إلى مكان مقدس طلبًا للشفاء فإنى لا أمانع فى ذلك..

السيدة : مثل هذا الحج يكلف كثيرًا أيضًا، ثم يكون بلا جدوى فى أغلب الأحيان.. [فترة صمت] ولكن هل بى شىء جسيم حتى يستدعى الأمر كل هذا العناء؟

كنوك : [وهو يبالغ فى معاملتها بأدب ومجاملة] سأشرح لك الأمر على السبورة فى دقيقة واحدة [يذهب إلى السبورة ويخط عليها رسمًا تخطيطيا] هذا هو قطاع من نخاعك الشوكى وفى صورة إجمالية، أفاهمة أنت؟ تتبينين هنا مجمع أعصاب توريك، وهنا عمود كلارك.. هل أنت معى؟ حسنًا. فحينما سقطت من على السلم تحرك توريك وكلاركك إلى اتجاه عكسى، [يرسم أسهمًا تبين الاتجاه] حركة بمقدار ١:١٠ من المليمتر، ستقولين إن هذه مسافة هينة جدا.. طبعًا.. ولكنهما اتخذا

وضعًا سيئًا، ثم عندك جذب مستمر يضغط على مجمع الأعصاب [يمسح أصابعه].

السيدة : يا إلهى.. يا إلهى..

كنوك : ليكن فى علمك أنك لن تموتى بين عشية وضحاها، فأمامك وقت..

السيدة : آه.. آه.. ما أسوأه من حظ أن سقطت من على هذا السلم..

كنوك : إنى أتساءل: أليس من الأفضل ترك الحالة على ما هى عليه، فإن المال كسبه عسير، أما عن سن الشيخوخة فموفورة وإن كانت مباهجها قليلة..

السيدة : سأكون صفيقة وأسألك: هل تستطيع إذا عالجتنى بأيسر جهد أفلا أنال الشفاء بثمن أقل بشرط أن يكون العلاج بالطبع متقنًا؟

كنـــوك : كل الذى أستطيع اقتراحه عليك هو أن تضعى نفسك تحت الملاحظـــة، ولـــن يكلفك هذا شيئًا تقريبًا وبعد بضعة أيام ستتبينين بنفسك كيـــف يكـــون ســـير المرض ثم تصدرين قرارك..

السيدة : نعم هذا هو الرأى.

كنـــوك : حسن.. ستعودين إلى دارك.. هل جئت راكبة؟

السيدة : كلا، وإنما سيرًا على الأقدام..

كنـــوك : [وهو جالس علـــى المكتـــب يكتـــب الروشتة] لا مفر لك من العثور علـــى عربة تعود بك، وبمجرد أوبتك تأوين إلى فراشك فى حجرة لا يكون بها أحد غيرك بقدر الإمكان، وأغلقى النوافـــذ وأسدلى الستائر حتى لايضايقك النور، وامنعى أحدًا من أن يكلمك. الأكل مدة أسبوع مقتصر على السوائل وحـــدها.

تناولى كوبًا من ماء فيشى كل ساعتين، وعند الضرورة نصف بسكويتة مرة فى الصباح ومرة فى المساء بعد غمسها فى قليل من اللبن ومع ذلك فإنى أفضل الاستغناء عن البسكويت، لا يتأتى لك القول بأننى وصفت لك علاجًا غاليًا جدا، وسنرى بعد أسبوع كيف تكون حالتك، فإذا احتفظت بشجاعتك، وأمكنك استعادة قوتك وبشاشتك، فإن هذا يعنى أن المرض أقل خطرًا مما يتصور، وسأكون أول من يطمئنك، أما إذا شعرت على العكس بضعف عام وثقل فى الرأس وخمول عند اليقظة، فلن يبقى محل للتردد وحينئذ نبدأ فى العلاج. هل اتفقنا؟

السيدة : [تنتهد] الرأى رأيك..

كنــوك : [يشير إلى الروشــتة] كتبت لك على سبيل التذكير فى هذه الروشتة كل التعليمات، وسأذهب لزيارتك قريبًا [يســلم إليهــا الروشتة ويشيعها وينادى لمن وراء البــاب: يا ماربيت: ساعدى الســيدة علــى نــزول درجات السلم وعلى عثورها على عربة] .. [يلمح الشاهد وجــوه نفــر مــن الزبــائن يستقبلون الســيدة وهــى خارجــة بخــوف واحترام].

المشهد الخامس

كنوك – والسيدة ذات الثوب البنفسجي

[عمرها ستون سنة.. كافة ما عليها من ثياب من لون بنفسجي، تتوكأ بكبرياء على عصا يألفها هواة تسلق الجبال]

السيدة ذات الثوب البنفسجي : [بلهجة فيها استعلاء] لا شك يدهشك يا دكتور مجيئي إليك.

كنوك : نعم بعض الدهشة يا سيدتي..

السيدة : لك في الواقع أن تعجب عجبًا غير قليل من أن تأتي لاستشارة مجانية سيدة زوجها من أسرة بونس وأبوها من أسرة لامبوماس.

كنـــوك : أفضل أن أقول إن فى مجيئها تشـــريفًا لى..

السـسيدة : ربما ستقول إن هــذه إحــدى نتــائج الفوضى السائدة هذه الأيام، فعلى حين نرى عددًا كبيرًا من أوشـــاب النـــاس وتجار الخنازير يتبخترون فى العربات الفـــاخرة ويحتســون الشــمبانيا مــع الممثلات، إذا بسيدة يجرى فى عروقها دم أسرة لامبومـــاس، وتمتــد ســلالة أسرتها العريقة بلا انقطاع إلى القــرن الثالث عشر، وكانت تملك فى وقت ما نصف هذه البلاد وتــرتبط بصــلات وثيقة مع كافة أسر النبلاء والأعيـــان فى هذه المقاطعة، ينحدر بها الحال إلى حد أن تقف فى الصف مـــع الفقــراء والفقيرات من أهالى ســـان مـــوريس،

أعترف يا دكتور أن الحال فيما مضى
كانت أحسن من ذلك.

كنـــوك : [وهو يجلسها] نعم مع الأسف يا سيدتى..

السيدة : لا أقول لك إن دخلى قد بقى كما كـــان
من قبل أو إننى احتفظت بمنزل يعـــج
بستة من الخدم وبإصطبل به أربعـــة
خيول كما كانت تتطلب مكانة أســـرتنا
حتى موت عمى، بل إننى بعـــت فـــى
العام الماضى مزرعة ورثتهـــا عـــن
جدتى مساحتها مائة وستون هكتـــارًا
هى مزرعة ميشويل، وهذا الاسم فـــى
قول قسيسنا مشتق من كلمة يونانيـــة
وأخرى لاتينية تفيد معنـــى كراهيـــة
الفطر، والسبب أنه لم يعثر قط علـــى
نبت واحد من هذا الفطر فى المزرعة
كلها كما لو كان بـــين الأرض وبينـــه

كراهية، والواقع أنى لم أصب منها بعد خصم الضرائب ونفقات التعمير إلا دخلاً ضئيلاً وبالأخص بعد وفاة زوجى فإن المزارعين عمدوا إلى استغلال الموقف وأخذوا يلاحقوننى بطلب تخفيض الإيجار أو تأجيل دفعه، لقد ضقت ذرعًا، كفى.. كفى.. أفلا تعتقد إذن يا دكتور بعد استعراضى للموقف على مختلف جوانبه أننى كنت على حق فى التخلص من هذه المزرعة؟

كنوك : [لم ينقطع عن الإنصات إليها بانتباه] هذا ياسيدتى هو اعتقادى وبالأخص إذا كنت تحبين نبات الفطر، وإذا كنت من ناحية أخرى قد أحسنت توظيف ثمن المزرعة..

السـيدة : أى.. لقد وضعت إصبعك على الجرح الدامى، فإنى أسأل نفسى ليل نهار عما إذا كنت أحسنت توظيف نقودى، فإنى أشك فى ذلك كثيرًا، فقد اتبعت نصيحة هذا الموثق الأحمق؛ وإن كان أطيب الرجال، ولكنى أعتقد أنه أقل فطنة من المنضدة الصغيرة التى تستعين بها زوجته العزيزة كما تعلم فى تحضير الأرواح، وقد اشتريت بالأخص أسهم شركات مناجم الفحم، فما رأيك فى هذه الأسهم؟

كنـوك : هى على العموم أوراق مالية لها قيمتها، وهى محببة بعض الشىء للمضاربين لأن سعرها يتقلب بين ارتفاع غير معقول وهبوط لا تفسير له.

السيدة : آه.. يا إلهى.. إن جلدى يقشعر إذ يخيل إلى أننى اشتريتها فى ذروة ارتفاع

أسعارها وقد وضعت فيها أكثر من خمسين ألف فرنك، وإنه لمن الحماقة لمن لا يملك ثروة طائلة أن يوظف فى أسهم شركات مناجم الفحم مثل هذا المبلغ الذى دفعته.

كنوك : فى الواقع يخيل إلىَّ أن مثل هذا التوظيف ينبغى ألا يستأثر بأكثر من واحد على عشرة من ثروة الشخص كلها..

السيدة : آه واحد على عشرة لا أكثر؟ فإذا كان التوظيف لا يزيد على هذه النسبة فأنت لاتصفه بالحماقة؟

كنوك : بالتأكيد لا..

السيدة : أنت تطمئننى يا دكتور، وقد كنت متلهفة على من يطمئننى، أنت لاتدرى أى هم ألقاه فى رعاية ما فى يدى من قرشين، وأقول لنفسى أحيانًا: حبذا

بهموم أخرى لتطرد هذا الهم عنـــى،
فإن الإنسان جبل يا دكتور على طبـــع
يرثى له، فمقدر عليه ألا يفلـــح فـــى
إقصائهم إلا بشرط أن يحل هم آخـــر
محله، ولعلنا ننعم على الأقل بشىء من
الراحة فى هذا التغيير والتبديل، فإنى
أود أن أنقطع عن التفكير طول النهار
فى المستأجرين والمزارعين والأسهم
والأوراق المالية لأننى لا أستطيع فى
العمر الذى بلغته أن أجرب المغامرات
الغرامية. آه.. آه.. آه.. ولا أن أقـــوم
برحلة حول العالم، ولكنك تنتظر منى
ولا ريب أن أفسر لك لمـــاذا اتخـــذت
مكانى فى الصف، أنتظر كشفًا مجانيًا.

كنـــوك : مهما يكن السبب يا سيدتى فإنه بلا شك
سبب وجيه.

السيدة : إليك إذن التفسير، أردت أن أضرب مثلاً، فقد وجدت أنك استلهمت يا دكتور فكرة بديعة نبيلة ولكنى أعلم أهل بلدى، فقلت لنفسى هذا شيء لم يألفوه، فهم إذن لن يذهبوا، وسيكون الإعراض هو كل ما يجنيه هذا السيد جزاء على كرمه، حينئذ قالت لى نفسى إنهم لو رأوا سيدة زوجها من أسرة بونس وأبوها من أسرة لامبوماس لا تتردد فى افتتاح الكشف المجانى، فإنهم لن يخجلوا من أن يحذوا حذوها على مرأى من الناس، ذلك أن أقل تصرفاتى وحركاتى هى موضع المراقبة والتعليق، وهذا شيء طبيعى.

كنوك : إن هذا سعى محمود منك يا سيدتى وأشكرك عليه..

السيدة : [تنهض وكأنها تؤذنه بأنها تتصرف] كـــان لى غاية السرور يا دكتور أننى تعرفت إليك وإننى ألزم دارى بعد الظهر كـــل يوم، ويأتى لزيارتى بعض الأصـــدقاء فنجتمع حول براد شاى من عهد لويس الخامس عشر ورثته مـــن أجـــدادى، فسيكون لك دائمًا فنجـــان معـــد لـــك ينتظرك..

كنـــوك : [ينحنى أمامها، على حين أنها تتقدم ثانية نحو الباب] أنت تعلم أننى حقيقة معذبة جدا جـــدا بســـبب المســـتأجرين والأوراق المالية، وقد ينقضى الليل كله دون أن أنام، ياله من إعياء فظيع..

كنـــوك : تعانين من الأرق منذ زمن طويل؟

السيدة : منذ زمن طويل جدا.. جدا..

كنـــوك : وهل تحدثت عنه للدكتور بارباليد؟

السيدة : نعم.. مرارًا عديدة..

كنـــوك : وماذا قال لك؟

السيدة : نصحنى أن أقــرأ كــل مســاء ثــلاث صفحات من القانون المدنى، إنها كانت دعابة منه، فإن الدكتور بارباليــد لــم ينظر إلى الأمر نظرة جدية.

كنـــوك : لعله كان مخطئًا لأن من الأرق حالات تنم عن خطر بليغ..

السيدة : حقًا..؟

كنـــوك : قد يكون ســبب الأرق راجعًــا إلـــى اضطراب أساسى فى سريان الدم فـــى عروق المخ وبالأخص إلى علة فـــى هذه العروق التـــى تســمى "خرطــوم النرجيلة" وقد تكون عــروق مخـــك يا سيدتى على هذه الصورة..

السيدة : يا إلهى.. خرطوم النرجيلة؟ أيكون للتبغ يادكتور دخل فى ذلك؟ إنى أســتعمل أحيانًا السعوط..

كنــوك : هذه مسألة ينبغى فحصها، وقد يــأتى الأرق أيضًا مــن إصــابة بالتهــاب الأعصاب تؤثر على المادة السنجابية تأثيرًا عميقًا متواليًا..

السيدة : يا لها من حالة فظيعة.. اشــرحها لــى يادكتور..

كنــوك : تصورى أخطبوطًا أو عنكبوتًا ضخمًا يلــتهم مخــك علــى مهــل قرضًــا وامتصاصًا وتمزيقًا..

السيدة : أوه [تتهاوى فى مقعد] من يسمع كلامــك معذور إذا أغمى عليه من شدة الفزع. لاشك أن هذه حالتى فإنى أشعر بهــا بوضوح، أرجوك يا دكتور اقتلنى على الفور بحقنة واحدة، ولكنــى أراجــع نفسى وأقول: لا تتخل عنى يا دكتــور فقد هويت إلى أعمق درجات الفزع..

[صمت] لابد من أنها علة لا شفاء لهـا أبدًا، علة مميتة..

كنـوك : كلا..

السيدة : هل هناك أمل فى الشفاء؟

كنـوك : نعم.. على مدى الزمن..

السيدة : لا تخدعنى يا دكتور.. أريد أن أعرف الحقيقة..

كنـوك : المسألة كلها تتوقف على انتظام العلاج ومدته..

السيدة : علاج ماذا؟ أهذه الأشياء التـى تشـبه خرطوم النرجيلـة أو العنكبـوت؟ إذ أشعر بوضوح أنه العنكبوت..

كنـوك : الشفاء ميسور من هذا وذاك، وما كنت لأجرؤ على أن أمد فى هـذا الأمـل لمريض من عامة الناس لا يتـيح لـه وقته ولا موارده أن يعالج نفسه بأحدث

الوسائل العلمية، أما بالنسبة إليك فالأمر مختلف..

السيدة : [تنهض] سأكون بين يديك مثالا للطاعة خاضعة كالجرو الصغير، وسأتحمل كل علاج تقرره وبخاصة إذا لم تؤلمنى ألمًا شديدًا..

كنوك : لن تشعرى بأقل ألم إذ إن الأشعة هى التى سنلجأ إليها كوسيلة للعلاج، والصعوبة الوحيدة هى أن يكون لك صبر على متابعة العلاج بأناة لمدة سنتين أو ثلاث، وأن يكون بجانبك طبيب يلزم نفسه ألا ينقطع عن مراقبة تقدمك نحو الشفاء وأن يضبط زمن جلسات الأشعة ضبطًا دقيقًا وألا يتوانى عن زيارتك كل يوم تقريبًا..

السيدة : آه.. أما عن نفسى فإن فضيلة الصبر لاتنقصنى، ولكنك يا دكتور أنت الذى قد لاتريد أن تواظب على علاجى طوال المدة اللازمة لى..

كنوك : لا أريد.. لا أريد.. أنا لا أريد غير ذلك، المهم. أن أقدر على ذلك، هل تسكنين بعيدًا من هنا؟

السيدة : أبدًا، بل على بعد خطوتين، فمنزلى أمام القبانى العمومى..

كنوك : سأحاول أن أخطف رجلى لأذهب إليك كل صباح فيما عدا يوم الأحد وفيما عدا يوم الاثنين بسبب مواعيد عيادتى..

السيدة : ألا يكون يومان متتاليان فترة انقطاع أطول مما ينبغى، وهكذا أبقى بدون علاج من السبت إلى الثلاثاء؟

كنـــوك : سأترك لك تعليمات تفصـــيلية دقيقـــة، ومع ذلك إذا وجدت فى متسع وقتـــى دقيقة فإنى أمر عليك يوم الأحد صباحًا أو يوم الاثنين بعد الظهر..

السيدة : الحمد لله.. الحمد لله.. [تنهض] وما الذى ينبغى لى أن أفعله فورًا؟

كنـــوك : عودى إلى دارك والزمى حجرة نومك، وسأذهب إليك غدًا صـــباحًا، وأتـــولى فحصك فحصًا شاملاً..

السيدة : أليس لى دواء أتناوله اليوم؟

كنـــوك : هيه.. نعم [يكتب الروشتة بسرعة] مـــرى على مسيو موسكيه واسأليه أن يعد لك فورًا هذه الروشتة الصغيرة الأولى..

المشهد السادس

كنوك – وفتيان من أهل الريف

كنـــوك : [ينـادى لمـن وراء البـاب] ماريـيت.. يا مارييت، ما هذا الحشد الغفير [ينظر إلى ساعته] ألم تعلنى أن العيادة المجانية تنتهى عند السـاعة الحاديـة عشـر والنصف؟

صوت مارييت : نعم أعلنتهم، ولكنهم يريدون البقاء..

كنـــوك : من هو صاحب الدور الأول؟ [يتقدم إليه الفتيان وهما يكتمان الضـحكات ويتبـادلان اللكمات بالكوعين والغمزات بـالأعين ثـم ينفجران فى ضحكة يكتمانها بوضع اليد على الفم ومن ورائهما يشاهد الأهالى وهم يجدون فى تصرفاتهما منظرًا ظريفًا مسليًا، فتثـور

بينهم ضجة والدكتور كنوك يزعم أنه لا يرى شيئًا] من منكما صاحب الدور؟

الفتى الأول : [ينظر جانبًا ويخفى ضحكة متهيبة] هـئ.. هئ.. هئ.. [نحن الاثنين] هئ.. هئ.. هئ!

كنـوك : ما أحسبكما متقدمين معًا؟

الفتى الأول : نعم.. هئ هئ! نعم.. نعم [صوت ضحك من وراء الباب].

كنـوك : لا أستطيع قبولكما معًا، فليقع اختياركما على واحد منكما، ثم يخيل إلىَّ أننى لم أركما من قبل، فهناك ناس قدموا قبلكما..

الفتى الأول : لقد تخلوا لنا عن دورهم، لك أن تسألهم. هئ.. هئ.. هئ! [ضحكات مسموعة ومكتومة].

الفتى الثانى : [وقد تملك جرأته] نحن الاثنين متلازمان دائمًا.. نحن ثنائى

لا ينفصل. هئ هئ هــئ! [ضــحكات تنبعث من الأهالى].

كـنوك : [يضغط على شفتيه ويقول بلهجة فــى غايــة البرود] ادخلا [يقفل الباب ثم يقول لــلأول: اخلع ثيابك، ويشير إلى الثانى: وأنت اجلــس هنا] [الفتيان يتبادلان الإشارات والضحكات المكتومة بشيء من الافتعال].

الفتى الأول : [وقد خلع ملابسه إلا الســروال والقمــيص] أينبغى أن أخلع بقية ثيــابى وأصــبح عاريًا؟

كنــوك : اخلع أيضًا قميصك [الفتــى يلــبس تحــت القميص فانلة بغير أكمام] هذا يكفى [كنوك يقترب منه ويدور حوله يجس جسده ويــدق عليه ويضع أذنه هنا وهناك ويجــذب جلــده ويقلب جفنيه وشفتيه، ثم يتناول جهاز فحص الحلق ذا المرآة ويلبسه على رأسه متمهلا ثم يضيء فجأة فى وجه الفتــى نــورًا يعمــى

الأبصار ويسلطه إلى داخل حلقه وعلى عينيه، ولما تبين من الفتى استسلامه يشير كنوك له إلى المقعد الطويل]: ارقد هنا.. هيا ضم ركبتيك [يجس البطن ويضع السماعة هنا وهناك] مد ذراعك.. [يفحص النبض ويقيس ضغط الدم] حسن.. ارتد ملابسك[لحظة صمت والفتى يرتدى ثيابه] هل أبوك حى؟

الفتى الأول : كلا.. إنه قد مات..

كنوك : موتًا مفاجئًا؟

الفتى الأول : نعم.

كنوك : هذا هو تقديرى.. لاشك أنه لم يكن متقدمًا فى العمر.

الفتى الأول : كلا.. إنه وصل إلى التاسعة والأربعين.

كنوك : أعاش إلى هذا الحد؟ [صمت طويل. لم يبق لدى الفتيين أقل رغبة فى الضحك، ثم

يذهب كنوك ينقب فى ركن من الحجرة بين أشياء مستندة إلى قطع من الأثاث، ثم يستخرج منها لوحًا من الكرتون تبين بالصورة الأحشاء الداخلية عند الرجل السليم وعند الرجل السكير المدمن، ثم يقول للفتى الأول بلهجة مؤدبة] سأوضح لك كيف أصبحت أحشاؤك الداخلية الرئيسية: هاتان هما الكليتان عند الرجل السليم، وهذه هى صورة كليتك أنت [بين كل جملة وأخرى فترة تريث] هذا هو كبدك.. هذا هو قلبك.. ولكن القلب عندك أشد عطبًا مم تبينه الصورة [ثم يمضى كنوك بهدوء ليعيد اللوحات إلى مكانها].

الفتى الأول : [بخجل شديد] إذن ينبغى أن أنقطع عن شرب الخمر..

كنـوك : هذا شأنك.. افعل ما تراه.

[لحظة صمت]

الفتى الأول : هل هناك دواء أتناوله؟

كنـــوك : لا فائدة فى ذلك أبدًا [إلى الفتى الثـانى]: جاء دورك الآن..

الفتى الأول : إن شئت يا حضـــرة الـدكتور عـدت للكشف أدفع أجرة..

كنـــوك : لا فائدة من ذلك أبدًا..

الفتى الثانى : [وهو منكمش متضائل] إننى يا حضـــرة الدكتور لا أشكو من أى مرض..

كنـــوك : وكيف تعرف ذلك؟

الفتى الثانى : [يتراجع وهو يرتعد] صحتى على مايرام ياحضرة الدكتور.

كنـــوك : إذن لماذا جئت؟

الفتى الثانى : [دون أن تتغير حالته] لأصحب رفيقى..

كنـــوك : أليس هو بالرجل الرشيد يملـك زمـام نفسه فيأتى وحده؟ هيا اخلع ملابسك.

الفتى الثانى : [يتجه للباب] كلا.. كلا.. يـــا حضـــرة الدكتور، ليس اليوم، سأعود يا حضرة الدكتور، [صمت].

كنـــوك : [يفتح الباب، تســمع ضــجة الأهــالى وهــم يضحكون من سابق ويترك كنــوك الفتيــين يمران فيخرجان وعلى وجهيهمــا علامــات متباينة تنم عن الإعياء والهلــع ثــم يشــقان الزحام وقد هبط عليه فجأة صمت جنائزى].

الفصل الثالث

[الردهة الكبيرة فى فندق المفتاح، بها كل علامات تحـــول فنـــدق مدينة فى الريف إلى فندق مخصص للاستشفاء، لايزال باقيًا على الجدران "نتائج تبين تاريخ اليوم" وعليها أسماء مهدينها من شركات بيع الخـــــمور، إلا أن العين تقع على مقابض وحوافى الأثاث مكسوة بالنيكــل والجـــدران مطلية بدهان أبيض، ومناشف بيض معقمة].

المشهد الأول

مدام ريمى _ سيبيون

مدام ريمى : هل وصلت بالعربة يا سيبيون؟

سيبيون : نعم يا سيدتى.

مدام ريمى : قيل إن الطريق سدته الثلوج..

سيبيون : المسألة بسيطة لا يزيد التأخير عن ربع ساعة.

مدام ريمى : لمن هذا المتاع؟

سيبيون : لسيدة من ليفرون.. جاءت للكشف عليها..

مدام ريمى : ولكننا حسبناها لا تصل إلا هذا المساء..

سيبيون : هذا خطأ فإن السيدة القادمة هذا المساء هى من سان مارسيلين..

مدام ريمى : وهذه الحقيبة؟

سيبيون : هى حقيبة "أبو كشورة"..

مدام ريمى : كيف؟ مسيو بارباليد هنا؟

سيبيون : هو قادم خلفى بمسافة خمسين مترًا..

مدام ريمى : ما هو غرضه من المجىء؟ ليستعيد عيادته بالطبع..

سيبيون : ربما جاء يطلب الكشف عليه.

مدام ريمى : ولكن لم يبق عندنا من حجرة خالية إلا الحجرة رقم ٩ ورقم ١٤، ولقد حجزت رقم ٩ للسيدة القادمة من سان مارسيلين، وستكون الحجرة رقم ١٤ للسيدة القادمة من ليفرون، فلماذا لم تقل "لأبو كشورة" إنه لن يجد له حجرة خالية؟

سيبيون : لأنى كنت أعلم أن الحجرة رقم ١٤ الخالية أصبحت محجوزة للسيدة القادمة من ليفرون.. وما كان لى بغير تعليمات أن أفاضل بينها وبين "أبو كشورة..".

مدام ريمى : هذا شيء يضايقنى جدًّا.

سيبيون : دبرى أنت حلا للإشكال أما أنا فينبغى أن أنصرف لخدمة المرضى..

مدام ريمى : لا لزوم لذلك يا سيبيون انتظر مسيو بارباليد واشرح له أن جميع الحجرات

مشغولة، فإننى لا أستطيع أن أقول له ذلك بنفسى..

سيبيون : آسف يا سيدتى، أصبح وقتى لا يتسع إلا لارتداء معطفى فإن الدكتور كنوك على وشك الوصول وعلىَّ أن أجمع البول من الحجرة رقم ٥ و ٨ والبصاق من الحجرة رقم ٢ وأن أقيس حرارة شاغلى الحجرات رقم ١، ٣، ٤، ١٢، ١٧، ١٨ وبقية الحجرات أيضًا، ولا أود أن يفتح حلقه علىَّ..

مدام ريمى : أفلا تحمل على الأقل متاع هذه السيدة إلى الدور الأعلى؟..

سيبيون : والخادمة.. ماذا تفعل؟ هل "تلضم" اللؤلؤ؟.

[يخرج سيبيون من المسرح وتحذو مدام ريمى حذوه حين ترى باربااليد قادمًا].

المشهد الثانى

بارباليد وحده ثم تأتى إليه الخادمة

بارباليد : ألا يوجد أحد هنا؟ مدام ريمى! سيبيون! هذا شيء محير، ها هى حقيبتى وجدتها على الأقل.. سيبيون..

الخادمة : [تدخل وهى فى ثياب الممرضات] سيدى ما هو طلبك؟

بارباليد : أريد أن أرى صاحبة الفندق..

الخادمة : لماذا يا سيدى؟

الدكتور : لتعطينى حجرة..

الخادمة : أنا لا خبر عندى، هل أنت من المرضى الذين طلبوا حجز حجرة لهم!..

الدكتور : إننى لست من بين المرضى يا آنسة.. إننى طبيب!..

الخادمة : آه.. جئت تعمل مساعدًا للدكتور؟ الواقع أنه فى حاجة إلى من يساعده..

الدكتور : ولكن.. ألا تعرفيننى يا آنسة؟

الخادمة : كلا.. أبدًا..

الدكتور : الدكتور بارباليد! كنت لثلاثة أشهر خلت طبيب سان موريس، لاشك أنك لست من أهالى البلد..

الخادمة : كلا بل إننى من أهالى البلد، ولكن ما كنت أعلم أنه كان بها طبيب قبل الدكتور كنوك [لحظة صمت] عن إذنك يا سيدى، السيدة صاحبة الفندق ستأتى إليك ولا ريب، فإنه أمامى أن أعقم أكياس الوسائد.

الدكتور : هذا الفندق أصبح له وجه عجيب..

المشهد الثالث

بارباليد _ مدام ريمى

مدام ريمى : [تسترق النظر] إنه لا يزال باقيًا [ثم تقرر قرارها] صباح الخير يا مسيو باراليد، أرجو ألا تكون قد أتيت تطلب سكنًا عندنا.

الدكتور : أى نعم، كيف حالك يا مدام ريمى..

مدام ريمى : على أحسن حال.. ليس لدينا حجرة واحدة خالية..

الدكتور : هل اليوم هو يوم السوق؟

مدام ريمى : كلا.. إنه ليس يوم السوق..

الدكتور : وكل الحجرات عندك مشغولة في يوم هو ليس يوم السوق؟ ولم كل هؤلاء، هؤلاء الناس إذن؟

مدام ريمى : مرضى..

الدكتور : مرضى؟

مدام ريمى : نعم أناس تحت العلاج..

الدكتور : ولماذا يقيمون عندك؟

مدام ريمى : لأن سان موريس ليس بها فندق غير هذا الفندق، ومع ذلك فلا أحسبهم سيئى البخت أن نزلوا عندنا انتظارًا لإقامة المبنى الجديد، فإن علاجهم يتم هنا، ونحن نتبع بدقة كل التعليمات الطبية الحديثة..

الدكتور : ولكن من أين جاءوا؟

مدام ريمى : المرضى؟ إنهم منذ وقت يأتون من كل حدب وصوب ومن قبل كانوا أناسًا غرباء على سفر.

الدكتور : لا أفهم شيئًا..

مدام ريمى : نعم مسافرون نزلوا سان موريس لعمل لهم وبلغ أسماعهم اسم الدكتور

كنوك من أهالى البلد كلهـم، فحـدثوا
أنفسهم أن ينتهزوا الفرصة ويطلبـوا
استشارته، وبالطبع كـانوا يجهلـون
حالتهم مـن الوجهـة الصـحية وإن
خامرهم شك، بـإنهم ربمـا يعـانون
مرضًا من الأمراض، وإذا لـم يكـن
حسن حظهم قـد قـادهم إلـى سـان
موريس لكان نفر منهم قد أهيل عليـه
التراب اليوم..

الدكتور : ولماذا كانوا سيموتون؟

مدام ريمى : لأنهم فى غفلتهم عن حالتهم الصحية
كانوا سيداومون على شـرب الخمـر
والتهام الطعام وارتكاب مئـات مـن
الحماقات الأخرى.

الدكتور : وكل هؤلاء المسافرين بقوا هنا؟

مدام ريمى : نعم، فإنهم كانوا إذا عادوا من زيارة
الدكتور كنوك سارعوا إلى الرقاد فى

فراشهم وبدءوا العلاج، أما اليوم فالحال لم يعد كذلك، فإن النازلين عندنا قد قاموا بالرحلة إلينا خصيصًا، ومما يكربنى أن الحجرات لاتكفيهم وسنشيد مبنى آخر..

الدكتور : هذا شىء عجيب جدًّا..

مدام ريمى : [بعد تفكير] حقًّا إن ما تراه يبدو ولاريب شيئًا عجيبًا لك أنت، ولو كانت لك حياة مثل حياة الدكتور كنوك لدعوت الله أن ينقذك..

الدكتور : هيه.. وكيف حياته هو إذن؟

مدام ريمى : حياة رجل محكوم عليه بالأشغال الشاقة، فما يكاد ينهض من فراشه حتى يجرى يؤدى زياراته، وفى الساعة العاشرة يأتى للفندق وستراه بعد خمس دقائق، ثم يثوب إلى عيادته فيستقبل المرضى، ثم يخرج من جديد

يؤدى زياراته، من أول المركز إلــى آخره، لاأنفى أن لديه سيارة: سـيارة جديدة فخمة يقودها بسـرعة كبيـرة، ولكنى واثقة أنه تمر عليه أحيان كثيرة تقتصر فيهـا وجبـة الغـذاء علـى "ساندويتش" واحد..

الدكتور : يحدث لى أيضًا فى اليوم أن أكتفى "بساندويتش".

مدام ريمى : آه كان فى إمكانك هنا أن تنعم بحياة محتشمة هادئة [تميل لمداعبتـه] أتـذكر لعبك "للبلياردو" فى مقصف الفندق؟

الدكتور : لا مفر من الاعتقاد أن الناس كانوا فى زمانى يتمتعون بصحة أحسن..

مدام ريمى : لا تقل هذا يـا مسـيو باربـاليـد، إن الناس هنا لا يبالون بعلاج أنفسهم، هذا هو الفرق، هناك ظن بأننا أهل الريف أناس أجلاف لم يتمدنوا، وأننا لا نبالى

أقل مبالاة بسلامة الأبدان، وأننا ننتظر حتى تأذن ساعتنا فننفق كما ينفق الحيوان، وأن الدواء والعلاج والأجهزة الطبية وكل مبتكرات المدنية الحديثة هي جديرة بسكان المدن، هذا خطأ يا مسيو بارباليد، فإننا لا نقل في تقدير أنفسنا عن بقية الناس، وإذا كان الواحد منا لا يحب أن يبذر نقوده، فإنه لا يتردد أن يدفع ثمن ما لا غنى عنه، أما أنت يا مسيو بارباليد فلا تتصور الفلاحين إلا كما كانوا في الماضي يتعاملون بالمليم لا بالقرش ويفضلون فقد عين أو ساق على شراء دواء بثلاثة فرنكات، لقد تغيرت الأحوال والحمد لله..

باراباليد : ليكن الأمر كذلك، فإذا كان الناس أصبحوا يضيقون ذرعًا بحسن صحتهم

ويريدون التمتع بفخفخة عد أنفسهم من المرضى، فهم يخطئون إذا لم يحققوا غرضهم دون أن يبالوا بأى شىء آخر، ثم إن هذا كله مكسب للطبيب.

مدام ريمى : [وهى تحتد] على كل حال لن يسمح لك أحد أن تصف الدكتور كنوك بأنه رجل يجرى وراء مصلحته الشخصية، فإنه هو الذى بدأ لأول مرة العيادة المجانية التى لم نكن نعرفها هنا، أما عن ذهابه لزيارة مريض، فإنه لا يطلب أجرًا إلا ممن هو قادر على دفعه، ولو فعل غير ذلك لكان فعله مدعاة للأسف، ولكنه لا يقبل شيئًا قط من الفقراء، إن الناس تشاهده يقطع المركز بطوله ينفق عشرة فرنكات ثمنًا للبنزين ثم يقف بسيارته الفخمة أمام كوخ عجوز فقير لا يمتلك حتى

قطعة جبن من لبن الماعـز ليعطيهـا إليه، ولا ينبغى كذلك التلميح بأنه يقنع الأصحاء بأنهم مرضى، فأنا أول مـن أشهد على نفسى بأننى جعلته يكشـف علىّ ربما عشر مرات منذ أن أصـبح يأتى للفندق كل يوم وفى كـل مـرة يكشف على بنفس الصبر والأناة مـن الرأس إلى القدم مستعينًا بكل أدواتـه وأجهزته ويكرس لى ربع ساعة على الأقل وكان يقول لى فى كل مرة إننى غير مصابة بمرض وأنـه لا داعـى للقلق، وما علىّ إلا أن أتمتع بمـأكلى ومشربى وحاولت جهدى أن أدفع لـه أجرًا ولو مبلغًا قليلاً، فكان يأبى، وإنه يخص مسيو برنار المـدرس بـنفس المعاملة بعد أن استحوذت عليه فكـرة أنه من حاملى الميكروبات، واسـودت

الحياة فى عينيه، فمن أجل تطمينه لـم يتراجع الدكتور كنـوك عـن تحليـل برازه ثلاث مرات ولكن هـا هـو ذا مسيو موسكيه قادم بعد أن أخـذ فـى حضور الدكتور عينة من دم شـاغل الحجرة رقم ١٥، ويمكنك التحدث إليه [بعد فترة تفكير] ثم أعطنى علـى كـل حال حقيبتك وسأدبر لك مسكناً..

المشهد الرابع

باربالید _ موسكيه

موسكيه : [أصبح يرتدى حلة مـن آخـر طـراز] الدكتور غير موجود هنا؟ آه.. الدكتور باربالید؟ كأننى أرى شبحًا وأيم الحق، لقد رحلت عنا منذ أمد بعيد.

باربالید : بهذا القدر بدا رحيلى بعيدًا؟ كـلا.. فما رحلت إلا منذ ثلاثة أشهر.

موسكيه : هـذا حق، ثلاثة أشهر، شىء مدهش [يقول بلهجة عطف] أنت مسرور فـى ليون؟

الدكتور : مسرور جدًّا..

موسكيه : آه.. الحمد لله.. لعلك وجـدت بهـا عيادة لها زبائنها المخلصون.

الدكتور : هيه.. وزدتهم بنسبة الثلث، صحة مدام موسكيه طيبة؟

موسكيه : أحسن من الأول بكثير..

الدكتور : هل كانت مريضة؟

موسكيه : ألا تذكر هذا الصداع الذى كانت تشكو منه فى أكثر الأيام؟ لعلك لا تذكره لأنه لم يكن فى اعتبارك شيئًا مهما، ولكن ما كاد الكتور كنوك يفحصـها حتـى اكتشف أنها تعانى مـن نقـص فـى إفرازات المبايض ووصف لها علاجًا بالهرمونات كان مفعوله مدهشًا

الدكتور : هل انقطع ألمها؟

موسكيه : لم يبق أثر لهذا الصداع القديم، أما ثقل الرأس الذى لا يزال ينتابها فغير ناتج إلا من الإجهاد وهو ظاهرة طبيعيـة،

ذلك أننا أصبحنا مرهقين بالعمل وسأستعين بمساعد صيدلى، فهل تعرف واحدًا يعتمد عليه توصينى به؟

الدكتور : كلا، ولكن سأجعل طلبك فى بالى..

موسكيه : آه، لقد انقضت تلك المعيشة الهادئة التى كنا نعيشها فى الماضى، وما قولك أننى حتى وأنا آوى إلى فراشى فى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء لا أكون قد أنجزت تحضير كل الروشتات؟

الدكتور : باختصار قد وقعت على منجم من الذهب..

موسكيه : آوه، من المؤكد أننى ضاعفت دخلى خمس مرات، وحاشا لى أن أشكو من ذلك، ولكن لى أسبابًا تحملنى على الرضا لأنى يا عزيزى الدكتور بارياليد أحب مهنتى وأحب أن أشعر

أننى رجل مفيد وكثرة العمل تسـرنى أكثر من فراغ يسلمنى إلى التفكير فى همومى، مسألة مزاج، ولكن ها هو ذا الكتور قادم..

المشهد الخامس

بارباليد _ موسكيه _ كنوك

كنــوك : سلام عليكما، صباح الخير يا دكتــور بارباليد، كنت أفكر فيك، هــل كانــت رحلتك طيبة؟

الدكتور : طيبة جدًّا.

كنــوك : هل جئت بسيارتك؟

الدكتور : كلا، بل بالقطار..

كنــوك : حسن، جئت لقبض القســط.. ألــيس كذلك؟

الدكتور : المسألة أننى جئت، ولا بأس أن أنتهز الفرصة..

موسكيه : أترككما يا سادة [إلى كنوك] سأصعد إلى الحجرة رقم ١٥..

المشهد السادس

باربالید _ كنوك

الدكتور : لم تتهمنى الآن أننى ضحكت عليك..

كنـــوك : على الأقل كانت هذه نيتك يـــا زميلـــى العزيز..

الدكتور : أنت لا تنكر أننى تخليـــت لـــك عـــن عيادتى وأنها عيادة تساوى الكثير..

كنـــوك : أوه.. كان فى مقدورك أن تبقى عليها، إذن لما ضايق أحدنا الآخر.. هل أنبأك مسيو موسكيه بالنتائج الأولى؟

الدكتور : نعم.. حدثونى عنها..

كنـــوك : [ينقب فى محفظة النقود] سأطلعك بصـــفة سرية بيننا على بعض الرسوم البيانية التى أعددتها، وســـتجد لهـــا بســـهولة

علاقة بالحديث الذى دار بيننـــا منـــذ ثلاثة أشهر.. لنتكلم عن العيادة، أولاً: هذا الخط البيانى يمثل عدد المترددين على العيادة أسبوعيًا، ويبدأ الخط مـــن نقطـــة تمثـــل هذا العـــدد أيامـــك، وكنت لا أعرف هذا العـــدد وقدرتـــه بخمسة أشخاص.

باربالید : خمسة أشخاص فى الأسبوع؟ ليســت مبالغة منك إذا قلت إنهم كانوا ضعف هذا العدد على الأقل يا زميلى العزيز.

كنــوك : فليكن.. ها هى أرقـــامى أنـــا، وهـــى بطبيعة الحال لا تشمل الكشف المجانى يوم الاثنين: منتصـــف أكتـــوبر: ٣٧، آخر أكتوبر: ٩٠ آخر نـــوفمبر ١٢٨، آخر ديسمبر: لم أجمع العدد بعد، ولكن الرقم سيزيد عن ١٥٠، وعلى كل حال

فإننى سأعدل تضـــييق الوقــت عــن الاهتمام بنمو عدد الاستشارات ولــن أعنى إلا بالمنتفعين بعلاج طويل، فإن الكشف فى العيادة لا يستحوذ إلا على نصف اهتمامى، فهذا فن ساذج يشــبه الصيد بالشبكة، أما العــلاج الطويــل فيشبه زرع صغار السمك فـــى ميــاه الصيد.

الدكتور : عفوًا يا زميلى العزيز.. هــل أرقامــك دقيقة غاية الدقة؟

كنــوك : نعم.. غاية الدقة..

الدكتور : معنى هذا أنه تأتىً فى أسبوع واحد أن قبل ١٥٠ شخصًا مــن أهــالى ســان موريس تكبد مشقة الانتقال من منازلهم للوقوف فى صف أمام بــاب العيــادة

وفى يدهم أجر الكشف، لم يؤت بالقوة أو بتأثير ضغط ما..

كنـــوك : لم نكن فى حاجة للاســتعانة لا بقــوة البوليس ولا بقوة الجيش..

الدكتور : يستعصى علىَّ أن أجد لذلك تفسيرًا.

كنـــوك : لنمض فى متابعة الخط البيـــانى الـــذى يمثل عدد المرضى تحت العلاج، أول أكتوبر: كانت الحالة كما تركتها لـــى: عدد المرضى الذين يـــداومون علـــى العلاج فى منازلهم، العـــدد: صـــفر. أليس كذلك؟ [يبدى الدكتور بارباليد حركة تنم عن تبرمه بغير حماس بالموافقة] – آخر أكتوبر: العدد ٣٢، وآخـــر نـــوفمبر: العدد ١٢١، آخر ديسمبر: ســـيتراوح العدد بين ٢٤٥، ٢٥٠..

الدكتور : يخيل إلىَّ أنك تحسبنى ساذجًا..

كنـــوك : أما أنا فلا أجد أنها أرقام عالية جـــدًا، فلا تنس أنه يوجد بمركز سان موريس ٢٨٥٣ منزلاً، مـــن قاطنيهـــا ١٥٠٢ أسرة يزيد دخل كل واحد منها علـــى ١٢٠٠٠ فرنك.

الدكتور : وما شأن دخل الأسر فى الأمر؟

كنـــوك : [يتجه إلى حـــوض الغســـيل] لا مجـــال أن تفرض عبء مريض مزمن على أسرة لا يبلغ دخلها اثنى عشر ألف فرنـــك، فهذا جور غشوم، أما عن الأسر التى لها هذا الدخل، فكذلك لا مجال للتفكير فى تطبيق خطة واحدة عليها، فجعلتها من أربع درجات، فالخطة المرســـومة لأدنى الدرجات هـــى للأســـر التـــى يتراوح دخلها بين ١٢٠٠٠ و٢٠٠٠٠، ولا تتضمن إلا زيادة واحدة كل أسبوع وخمسين فرنكًا تقريبًا فى كـــل شـــهر

لثمن الأدوية، والدرجة العليا – درجة "اللوكس" – هى للأسر التى يعلو دخلها على ٥٠٠٠٠ فرنك، فهـى تتضـمن أربع زيارات فى الأسبوع على الأقل، وثلاثمائة فرنك شـهريا للمصـاريف المختلفة: أشعة إكس، علاج بالراديو، تدليك كهربائى.. تحليل.. إلخ.. إلخ.

الدكتور : ولكن كيف تعرف دخل زبائنك؟

كنـوك : [يبدأ بغسل يديه بعنـاية فائـقـة] ثق أننى لا ألجأ لمأمور الضرائب وحسناً أفعل، فعلى حين أننى أحصيت ١٥٠٢ دخلاً يزيد على ١٢٠٠٠ فرنك، فإن عددها المقيد عند مأمور الضرائب لا يزيـد على ١٧ فقط، وأكبر دخل مبين فـى إقرار مقدم له لا يزيد علـى ٢٠٠٠٠ فرنك، وحقيقة هذا الرقم عندى هـى ١٢٠٠٠٠ فـلا تطـابق قـط بـين

إحصائياتى وإحصائياتك، وماذا يهم مأمور الضرائب؟ لا تنس أنه موظف حكومة..

الدكتور : ولكن من أين تستقى معلوماتك؟

كنوك : [يبتسم] من مصادر عديدة، إنه عمل ليس بالهين شغلنى طوال شهر أكتوبر بأكمله، وإننى أصحح الأرقام باستمرار، انظر إلى هذه – حلوة.. أليس كذلك؟

الدكتور : كأنها خريطة للمركز، ولكن ما معنى هذه العلامات الحمر؟

كنوك : إنها خريطة التغلغل الطبى، فكل علامة حمراء تدل على مكان مريض غير منقطع، ولو اطلعت على هذه الخريطة قبل شهر واحد لكنت رأيت هنا بقعة ملونة بلون رمادى هى بقعة شابرير.

الدكتور : ماذا؟

كنـــوك : نعم هذا هو اسم القرية التى تقع وسط هذه البقعة، وهى التى وجهت إليها أول عنايتى فى الأسابيع الماضية، أما اليوم فإن البقعة لم تختف بعد ولكنها قسمت أجزاء، أليس كذلك؟ ونظرتك لا تتبين هذه البقعة إلا بعد تدقيق [فترة صمت]

الدكتور : حتى لو أردت أن أخفى عليك دهشتى يا زميلى العزيز لما استطعت، ومحال لى أن أشك فى نتائجك، فقد سـمعت تأييدًا لها من كل جانب، أنـت رجـل مدهش، وقد ينكص غيرى من الأطباء عن أن يصارحك بمثل هذا الرأى وهم يبطنونه وإلا لما كانوا أهلا لحمل لقب دكتور، ولكن أتسمح لـى أن أفصـح وأوجه إليك سؤالاً واحدًا؟

كنـــوك : تفضل..

الدكتور : إن ابتكرت خطة مثل خطتك وأصبحت
في قبضة يدى كما هى فى قبضة يدك
وإن أصبح كل ما يبقى على بعد ذلك
هو تطبيقها.

كنوك : نعم..

الدكتور : ألا يساورنى شىء من تقريع الضمير؟
[صمت] إنى أنتظر إجابتك..

كنوك : يخيل إلىَّ أن الجواب مرده إليك أنت..

الدكتور : لاحظ أننى لا أقطع بشىء، إنما أثرت
مسألة حساسة جدًّا [صمت]..

كنوك : حبذا لو أفصحت عن غرضك بوضوح
أكثر.

الدكتور : ستقول إننى رجل متشدد معقد، ولكن
ألا تكون مصلحة المريض طبقًا
لخطتك هى فى المحل الثانى بعد
مصلحة الطبيب؟

كنـــوك : يا دكتور باربالید، أنت تنسى أن هنـــاك مصلحة أسمى من هاتين المصلحتين..

الدكتور : وما هي؟

كنوك : مصلحة الطب ذاته، فهـــي المصـــلحة الأولى التي أهتم بها [صـــمت، باربالیـــد مستغرق في التفكير].

باربالید : نعم.. نعم.. نعم.

[وابتداء من تلك اللحظة إلى نهاية المسرحية تتحول إضاءة المسرحية شـــيئًا فشـــيئًا إلـــى إضاءة العيادات والمستشفيات، ويغلب عليها كالعهد بها الأنوار الخضر والبنفسجية بدرجة تفوق أنوار دور بقية خلق الله].

كنـــوك : أنت تسلمني مركزًا يسكنه آلاف يقفون من الطب على الحياد لا قـــرار لـــه، فمهمتي هي أن أدفعهـــم إلـــى اتخـــاذ القرار، أن أحملهـــم علـــى أن يكـــون وجودهم في الحيـــاة وجـــودًا طبيًّـــا،

فأجعـــــلهم يلزمـــــون الفـــــراش
وأنتظــر ما ينجم عن هذا الرقاد من سـفور
مريض بالسل أو مرض بالاضطراب
العصبى أو بتصلب الشرايين: إنســـان
مريض أيًا كان، ولكن إنسانًا مريضًـــا
على كل حال، ولا شىء يضايقنى أكثر
من هذا الذى لا هو طــالع ولا هــو
نازل، أى الرجل الذى لا يشكو مــن
مرض كما يقال.

الدكتور : ولكنك لا تستطيع أن تجعل المركز كله
يرقد فى الفراش..

كنــوك : [وهو ينشف يديــه] هــذه مســأله يمكــن
مناقشتها، فإنى أعرف خمسة أفراد من
أسرة واحدة مرضوا جميعًــا ولزمــوا
الفراش فى وقت واحد، ومع ذلك لــم
ترتبك حيــاتهم، واعتراضــك هــذا
يذكرنى بهؤلاء الأســاتذة فـــى علـــم

الاقتصاد الذين يزعمون أن الحـرب الحديثة لا يمكن أن تطول أكثر مـن ستة أسابيع، والحقيقـة أننـا جميعًـا تنقصنا الشجاعة، ولا يجـرؤ إنسـان حتى ولا أنا على المضى إلى أقصـى المدى فيجعل كل الأهـالى يلزمـون الفراش لانتظار سفور المرض فليكن، إنى أوافقك على أنه ينبغـى أن يظـل هناك أناس أصحاء ليعنوا على الأقـل بالآخرين، أو ليؤلفوا قـوة احتياطيـة وراء جـيش المرضـى المشـغولين بأمراضهم، ولكن الذى لا أحبه أن تتم الصحة عن التحدى فإن هذا كما ينبغى أن تعترف أنت شيء لا يطاق، لـذلك نحن نغمـض العـين علـى بعـض الحالات، ونترك على وجـوه بعـض الناس قناع الصحة، أما إذا جاءوا فيما

بعد يتبخترون أمامنا ويهزءون بنـــا، فإنى محق أن أغضب، وهذا ما حدث هنا لمسيو رافالنس..

الدكتور : آه.. هذا العملاق؟ هذا الذى يفاخر بأنه يستطيع حمل حماته علــى ذراعيــه الممدوتين؟

كنـــوك : نعم، إنه ظل يتحدانى ثلاثة أشهر ثــم وقع فى يدى..

الدكتور : ماذا؟

كنـــوك : والآن راقد فى الفــراش لأن جعجعتـــه بدأت تضعف عنــد الأهــالى ذهــنهم الطبى.

الدكتور : ولكن تبقى بعد ذلك مشكلة عويصة..

كنـــوك : ما هى؟

الدكتور : أنت لا تفكر إلا فى مهنة الطب ولكن ماذا عسى أن تكون عليه حالــة بقيــة المهن؟ ألا تخشى أن يــؤدى تعمــيم

تطبيق خطتك إلى تراخ بين في مختلف أوجه النشاط الاجتماعى مع أن بعضها له قيمته؟

كنوك : ليس هذا من شأنى، فأنا لا أشتغل إلا بالطب..

الدكتور : صحيح أن المهندس وهو ينشئ سكك حديدية لا يسأل نفسه عما عساه يكون رأى طبيب القرية..

كنوك : لافض فوك [يتجه إلى مؤخرة المسرح ويقترب من النافذة] تعال يا دكتور بارباليد، ألق نظرة من هنا، أنت تعرف المشهد الذى يطالع من يطل من هذه النافذة ولاشك أنه لم يفتك أن تتملى من هذا المنظر بين دورين من أدوار لعب البلياردو الذى كنت مغرمًا به، فأمامك على بعد، ربوة أليجر التى ينتهى إليها حدود المركز، وعلى

اليسار قرية مسكلا وتريبور؛ وفى هذه الناصية، لو لم تكن مساكن سان موريس قد تضخمت كالورم، لكنا أبصرنا كل دساكر الوادى متتالية واحدة بعد أخرى. لاشك أنه لم يستأثر بنظرك إلا جمال المنظر الطبيعى الذى أنت به مشغوف، كنت تراه كصعيد ريف غليظ الطبع لا تكاد الحياة تدب فيه، وهأنذا اليوم أقدمه لك، وقد تغلغل الطب فى أرجائه، وهبت النيران التحتية لمهنتنا تقلقله وتسرى فى جنباته، وفى أول يوم ركزت نفسى هنا – أى فى صبيحة يوم وصولى – كنت أبعد من أن يتملكنى الزهو إذ شعرت أن وجودى هنا لن يؤبه له كثيرًا، فستقف فى الأرض الشاسعة تعرض عنى وعن أمثالى بوقاحة. أما اليوم

فإنى مطمئن مستريح لمكانى بها كما يطمئن العازف المحنك لآلته، وأمامك مائة وخمسون منزلاً قد لا تراها كلها بسبب البعد وستور الأشجار، إن بها مائتين وخمسين حجرة، فى كل واحدة منها شخص يؤمن بالطب، أو بعبارة أخرى بها مائتان وخمسون فراشًا يتمدد فوق كل منها جسد يشهد بأن الحياة لها معنى هو بفضلى أنا معنى طبى، ويزداد المنظر بهاء بالليل حين تضاء الأنوار والفضل فى أغلب هذه الأنوار راجع إلىَّ، أما غير المرضى فيرقدون فى الظلمات وقد أسقطت حسابهم، ولكن المرضى قد استبقوا نور مصباح أو شمعة. وكل ما بقى على هامش الطب فقد خلصنى الليل منه ومن مضايقته وتحديه. وينقلب

المركز كله بالليل إلى فلك أنا خالقـــه الدائم وهأنذا لم أحدثك بعد عن نواقيس الكنائس، أعلم أن وظيفتها الأولى لهذا الخلق كله أصـــبحت أنهـــا تـــذكرهم بمواعيد تناول الدواء، وقرعها هو نداء تعليماتى، تصور أنه بعد بضع لحظات ستدق الأجراس معلنه حلول الســاعة العاشرة، والساعة العاشرة عند جميـــع مرضاى هى موعد قيـــاس الحـــرارة للمرة الثانية من الشرج، أى بعد بضع لحظات ســـتتخذ مائتـــان وخمســـون ترمومترًا أماكنها فى وقت واحد..

الدكتور : [وقد غلب عليه التأثر يمسك ذراع كنـــوك] يا زميلى العزيزلدى اقتراح أريـــد أن أقدمه إليك..

كنـــوك : ما هو؟

الدكتور : إن رجلاً مثلك لا يجد مكانه الجدير به في مركز بالريف بل تلزمـــك مدينـــة كبيرة..

كنـــوك : سأفوز بها عاجلاً أو آجلاً..

الدكتور : ولكن حذار، أنت الآن فى ذروة قواك، لن تمضى بعض سنوات حتى تكون قد وهنت، هذه هى تجربتى فثق بها.

كنـــوك : إذن؟

الدكتور : إذن ينبغى لك ألا تنتظر..

كنـــوك : هل تعلم مكانًا كالذى تعنيه تدلنى عليه؟

الدكتور : مكانى أنا؟ أنا أعطيه لك، وما بعد ذلك من برهان على إعجابى بك.

كنـــوك : نعم، وأنت ما هو مآلك؟

الدكتور : أنا؟ أنا سأقتنع بالعمل من جديد فى سان موريس..

كنـــوك : نعم..

موسكيه : بل سأذهب إلى أبعد من ذلك.. فقد بقى عليك عدة آلاف من الفرنكات دينًا لى فى ذمتك سأتنازل عنها هدية منى إليك..

كنوك : نعم.. فى الحقيقة أنك لست غرًّا كما يظن بك..

الدكتور : وكيف؟

كنوك : أنت لا تحسن الإنتاج، ولكنك تجيد البيع والشراء، وهذه هى صفة التاجر..

الدكتور : أؤكد لك.

كنوك : بل إنك فى هذه المسألة بالذات تثبت أنك تجيد أيضًا فهم النفوس، فقد حسبت أن هيامى بالمال سينقضى لحظة تدفقه علىَّ، وأن تطبيق خطتى فى التغلغل الطبى على حى واحد أو اثنين من أحياء ليون، كفيل أن

ينسينى رسومى البيانيـــة عــن ســان موريس، آه، نعم، ليس فى نيتـــى أن أبقى هنا حتى تركبنى الشيخوخة ولكن شتان بين هذا وبين أن أرتمى علـــى أول عرض يقدم إلىَّ..

المشهد السابع

كنوك _ باربالبد_ موسكيه

[موسكيه يخترق الصالة متسللاً ليخرج، يستوقفه كنوك]

كنـــوك : اقترب يا صديقى، أتعرف ماذا يقتـــرح علىَّ الدكتور باربالبد؟ أن نتبادل بيننا العيادتين فأذهب أنا إلى ليون ويعـــود هو إلى هنا.

موسكيه : هذه دعابة..

كنـــوك : أبدا، بل هو عرض جدى جدًّا..

موسكيه : كأننى سقطت من شـــاهق، ورفضـــت العرض بطبيعة الحال..

الدكتور : ولماذا يرفضه الدكتور كنوك؟

موسكيه : [موجهًا الحديث إلى الدكتور بارباليد]
حين يكون البدل هو النزول عن بندقية
ثمنها ألفان من الفرنكات نظير مسدس
قديم فإن من عادة العقلاء غير المغفلين
أن يرفضوا مثل هذا البدل، فكان في
إمكانك أن تقترح على الدكتور كنوك
تبادل السيارات..

الدكتور : أرجو أن تثق بأنى أملك في ليون
عيادة من الدرجة الأولى، فقد خلفت
فيها الدكتور مارلو، وكانت له فيها
شهرة مستفيضة..

موسكيه : هذا كلام كان يصح لو قيل منذ ثلاثة
أشهر، ففى ثلاثة أشهر، يقطع السائر
شوطًا في الطريق هو للنازل أطول
منه للصاعد [إلى كنوك]: ثم إن أهالى
سان موريس يا عزيزى الدكتور لن
يقبلو أبدًا..

الدكتور : وما دخلهم فى هذه المسألة؟ نحن لـــن نسألهم رأيهم..

موسكيه : ولكنهم سيصارحونك به، ولا أزعم لك أنهم سيعمدون إلى إقامة المتاريس فى وجهك، فإنها ليست من عادة أهل هذا البلد، وشوارعهم غير مبلطـــة ولكـــن أهالى البلد يستطيعون تشييعك إليهـــا [يشاهد مدام ريمى] وعلـــى كـــل حـــال فستحكم أنت بنفسك..

[تدخل مدام ريمى تحمل صفًا من الأطباق]

المشهد الثامن

جميع من سبق ومدام ريمى

موسكيه : يا مدام ريمى إليك بخبر سار، إن الدكتور كنوك سيفارقنا، الدكتور بارباليد سيعود إلينا.

مدام ريمى : [تترك الأطباق تكاد تهوى من يدها، ولكنها تلحقها قبل السقوط إلى الأرض وتحضنها كزهرة على صدرها] آه.. كلا.. كلا.. أقول لكم إن هذا لن يحدث أبدًا [إلى كنوك] اللهم إلا إذا خطفك ليلاً بطائرة، وإلا سأبلغ النبأ إلى أهل البلد ولن يتركوك ترحل، وما أسهل عليهم أن يخرقوا إطار سيارتك، أما فيما يتعلق بك أنت مسيو بارباليد فإن كان هذا هو

الغرض الذى جئت من أجله فيؤسفنى أن أبلغك أننى لا أجد لك حجرة خالية عندى، وبالرغم من أننا فى عز الشتاء فلا مفر لك من النوم فى العراء [تتجه إلى منضدة لتضع أطباقها عليها]

الدكتور : [وهو فى شدة التأثر] طيب.. طيب.. إنها فضيحة مخجلة أن يكون هذا هو شعور هؤلاء الناس نحو رجل كرس لهم خمسًا وعشرين سنة من حياته، ما دام لم يبق فى سان موريس مجال إلا للدجالين فإنى أفضل كسب قوتى بشرف فى ليون، أكسبه بشرف وبوفرة أيضًا، وإذا كنت قد فكرت لحظة فى أن أسترجع عيادتى القديمة فلأن صحة زوجتى وأقولها بلا خفاء لم يوافقها هواء المدن الكبيرة، يا دكتور كنوك

دعنا نصفى الحساب فى أقرب وقت
لأنى سأرحل هذا المساء..

كنوك : حاشا أن ترضى أهانتنا، إن مدام ريمى
فى دهشتها لسماع خبر هو فى الحقيقة
غير صحيح وبسبب ما لحقها من ذعر
أن تسقط أطباقها، لم تستطع ضبط
لسانها، إن كلامها لم يحسن التعبير
عن فكرها، وها أنت ذا ترى بنفسك
أن مدام ريمى بعد أن اطمأنت على
سلامة أطباقها قد استعادت سماحتها
وأصبحت عيناها لا تنطقان إلا بما
تكنه لك هى وأهل سان موريس جميعًا
من عرفان بالجميل لهذه الخدمة
الصامتة التى كرست لها حياتك بينهم
طوال خمسة وعشرين عامًا..

مدام ريمى : هذا أكيد، وعهدنا به دائمًا أنــه رجـل طيب جدًّا، وكان يؤدى واجبــه بيننــا كأى طبيب آخر لو كان مكانه طالمــا كنا نحن قادرين على أن نعــيش فــى غفلة عن مزايا الطب، ولم يكن فــى ذلك ضير إلا حين عم الوبــاء، فلــن تزعم لى أن طبيبًا جديرًا بهذا الاســم كان يترك هذا العدد الوفير من الناس يموت فى وباء الحمى الإسبانية.

الدكتور : طبيب جدير بهذا الاســم؟ أى كــلام أصبحنا نسمعه؟ أتظنين يا مدام ريمى أن يقدر طبيب جدير بهذا الاسم علــى مقاومة وباء عالمى، شأنك فــى هــذا تقريبًا شأن من يطلب إلى قــوة غفــر البلد مقاومة زلزال، فصبرًا يــا مــدام ريمى إلى الوباء القادم، لنرى إذا كان

الدكتور كنوك سيكون أكثـر نجاحًـا منى..

مدام ريمى : الدكتور كنوك: استمع إلىَّ يـا مسـيو باربائيد إنى لا أعمد إلى مجادلتك فى مسألة تتعلق بالسيارات لأنى لا أفهـم فى السيارات شيئًا ولكنى بدأت أفهم ما هو المريض إذن أستطيع أن أقول إن أناسًا نجد الضـعفاء مـنهم لائـذين بالفراش هم أقدر من غيرهم علـى أن يواجهوا بقدم ثابتة وبـاعك العـالمى القادم، وكما قال مسيو برنار منذ أيام فى محاضرته: المصيبة هى التعرض لمفاجأة تدهمنا كالرعـد فـى سـماء صافية..

موسكيه : يا عزيزى الدكتور إننى أنصحك ألا تثيـر هنـا خلافات من هـذا النـوع. فإن

مقام الطب والصيدلة قد توطد واستتب بيننا وشاع إدراكه بين الناس، واسـأل من شئت تجده خصمًا عنيدًا لآرائك.

كنــوك : ينبغى ألا نتوه فى جدل مـذهبى فقـد تختلف مدام ريمى والدكتور بارباليـد فى الرأى ومع ذلك تظل بينهما رابطة طيبة [إلى مدام ريمـى] ألـديك حجـرة للدكتور بارباليد؟

مدام ريمى : لا توجد حجرة. فكما تعلم لا يتأتى لنـا أن نجد مكانًا لكل المرضى، فإذا جاء مريض فلعلنى أنجح فى تدبير مكـان وأفعل المستحيل فإن هذا من واجبى..

كنــوك : ولكن إذا قلت لك إن الدكتور بارباليـد ليس فى حالة تمكنه من السفر اليـوم بعد الظهر، ولابد له من الوجهه الطبية أن يستريح يومًا كاملاً..

مدام ريمى : إذن الأمر يختلـف، ولكـن الـدكتور باربااليد لم يأت لطلب الكشف عليه..

كنــوك : حتى ولو كان هذا غرضه، فإن واجب الكتمان فى مهنتنا يقتضينى ألا أصرح بذلك علناً..

الدكتور : ما الذى ترمى إليه؟ إننى سأرحل اليوم بعد الظهر وهذا كل ما فى الأمر..

كنــوك : [ينظر إليه] يا زميلى العزيز، إننى جـاد فى قولى لك كل الجد لا غنى لك عن أن تسـتريح لمـدة ٢٤ ساعة، إننـى لا أنصحك بالسفر اليوم، وعند اللزوم سأمنعك من الرحيل..

مدام ريمى : حسن.. حسن يا دكتور، إننـى كنت لا أعلـم ذلك، وسنجد لمسيو باربااليـد فراشـًا فاطمئن، هل ينبغى قياس حرارته؟

كنــوك : سنتحدث عن ذلك وشيكًا [تنسحب مـدام ريمى].

موسكيه : اتركاكما برهة يا سادتى [إلى كنوك]: قد كسرت إبرة وسأذهب إلى الصـــيدلية لأخذ آخرى..

المشهد التاسع

كنوك _ بارباليد

الدكتور : قل لى.. هل هو مزاح [صمت قصـير] على كل حال إنى شاكر لك إذ ليس ما ترتاح إليه نفسى أن أستأنف السفر هذا المساء لمدة ثمانى ساعات [فترة صمت] فقد ولى الشباب وأنـا أعلـم بحـالى [صمت] إن طريقتك فى الاحتفاظ بهيئة الجد لما يدعو للإعجاب، فمنـذ قليـل كانت هيئتك تنم عن مكاشفتك لى بهذه الحقيقة [ينهض] نعم فما نفعنى علمـى، إنك تمزح، ولا بصرى بخفايا أساليب الطبيب مع مريضه، نعم كانـت لـك

هيئة ونظرة وشعرت كأنك نفذت بهما
تتفحص أحشـائى، آه هـذه مقـدرة
خارقة..

كنــوك : وماذا أفعل؟ إن هذا يحدث لــى رغمًـا
عنى بعض الشىء، فما أكـاد أجتمـع
بإنسان إلا وجدتنى لا أتمالك نفسى من
أن تتحرك لتشخيص علته تشخيصًـا
مبدئيًا، حتى لو كان عملي هذا لغـوا
خالصًا وجهدًا ضائعًا كله ولا مسـوغ
له.. [يسير إليه وكأنه يكاشفه بسر] حتـى
بلغ بى الحال أننى أصبحت منذ زمـن
أتحاشى النظر فى المرآه..

الـدكتور : ولكن هذا التشخيص ما تعنى به؟ هل
هو تشخيص عابث أم..؟

كنــوك : ما معنى وصفه بأنه تشخيص عابـث؟
لقد قلت لك إننـى إذا طالعـت وجـه

إنسان، فإن نظرتى ترتمى رغمًا عنى
وبدون تفكير منى على علامات، قد
تخفى على العين حالة الجلد والشعر
وإنسان العين وسرعة التنفس
وعلامات أخرى من هذا القبيل،
وعندئذ أجد جهاز استخلاص
التشخيص المستقر فى أعماقى يعمل
من تلقاء ذاته، وينبغى لى أن أضبط
نفسى وإلا أصبح طبعى هذا سخيفًا..

الدكتور : ولكن.. المسألة.. اسمح لى.. إننى
أصر بطريقة بلهاء قليلاً، ولكن لى
دوافعى.. حينما قلت لى إننى فى حاجة
إلى راحة يوم كامل، هل كان قولك من
قبيل المعاينة أم...؟ ومرة أخرى أقول
إننى إذا كنت أصر على هذا السؤال
فإن مسلكى هذا يرجع إلى هموم قد

تكون تساورنى، فأنا لم يفتنى منذ زمن أن ألحظ أشياء فى نفسى، فإنى متلهف جدًّا ولو من الوجهة النظرية البحتة أن أعرف هل جاءت ملاحظاتى مطابقة لنتائج هذا التشخيص غير الإرادى الذى ذكرت أنه أصبح من طبعك..

كنـــوك : يا زميلى العزيز فلنؤجل هذا البحث الآن [قرع أجراس] الساعة تدق العاشرة، ينبغى لى أن أقوم بجولتى، وسنتناول طعام الغذاء معًا إن أردت أن تبرهن لى على صداقتك أما عن حالتك الصحية، وما ينبغى اتخاذه بشأنها فسنتحدث عنه بعد الظهر على مهل فى عيادتى..

[يبتعد كنوك – تنتهى الساعة من دق العاشرة– بارباليد غارق فى التفكير وقد تهاوى على مقعد، يدخل سيبيون والخادمة

ومدام ريمى، يحملون أدوات طبية مألوفـــة.
ويسيرون متتابعين فى صف واحد تغمـــرهم
أضواء عالم الطب]

[ســــتار]

الطَّائِر الأزْرَق

أحْدُوثة مِن عَالم السِّحْر

فى ستة فصول

تأليف: موريس ميترلنك

مقدمة

موريس ميترلنك.. والمسرح الرمزى

١٨٦٢ - ١٩٤٩

بقلم: عبد الرحمن صدقى

موريس ميترلنك - البلجيكى موطنًا، الفلامنكى متحدًا ونسبًا، الفرنسى مقامًا وقلمًا وأدبًا، شاعر من أبدع الشعراء فى معانيه وبيانه، وحكيم من أكبر الحكماء فى زمانه، وهو غزير الإنتاج متنوعه، تجمع مؤلفاته بين ما يستولى على عقول الخاصة من المفكرين، وما يؤثر فى قلوب السواد من جمهور القارئين.

وتأييدًا لهذه الصفة المميزة التى أوردناها فى مستهل هذه التقدمة، نجد لزامًا علينا إيراد الشواهد، ويكفينا منها هنا لضيق

المقام الإشارة إلى هذين المثالين من مؤلفات ميترلنك، وهما من جهة الموضوع جد مختلفين.

الأول مبحث فى التاريخ الطبيعى، وهو كتابه عن "حياة النحل" الذى ترجم إلى جميع اللغات وتكرر طبعه مئات المرات، والكتاب صغير فى حجمه، ولكنه لا حد لسحره، سواء عند المتخصصين من العلماء، أو من ليس لهم فى هذا الخصوص ادعاء. والعجيب فى أمره أنه حوى بين دفتيه من صميم حياة النحل أكثر مما تضمنته كتب البحث العلمى، من غير أن يحمل مثلها طابع البحث العلمى. ولا خفاء فى أن السر فى ذلك أن صاحب الكتاب حكيم وشاعر، وقد صاحب النحل زهاء نصف قرن من الزمان لأنه من هواة تربيته، فهو قد اعتمد فى كتابه على طول المشاهدة والدرس، ولكنه فوق ذلك كان فى خلوصه إلى الحقائق يتلقاها بقلب العاشق، ويتعمقها بعقل الحكيم، ويرويها بلسان الشاعر. فلا غرو أن يسحر القراء كافة بما يقوله كأنه نفث ساحر. وهو فى ذلك ما تعدى قول الحقيقة وإنما أفاض عليها من حماسته وشاعريته،

وعمق فهمه وسعة أفقه وصدق تشبيهاته، ما جعل الحقيقة تبدو كالخيال عجيبة بديعة.

أما المثال الآخر فهو – كما سنرى – أبعد ما يكون عن البحث فى التاريخ الطبيعى، لأنه مسرحية من بدائع الفن الرمـزى، وهى عينها التى بين أيدينا: مسرحية "الطائر الأزرق". وهـذه المسرحية التى تعمد المؤلف أن تكون على أسـلوب قصـص الجنيات والمفترض أنها للأطفال، تتضمن خلاصة فلسفته.

ولما كانت هذه الفلسـفة للشـاعر والكاتـب والمؤلـف المسرحى "موريس ميترلنك"، هـى ثمـرة تجاربـه النفسـية ومطالعاته وتأملاته الفلسفية حتى كتابة هذه المسـرحية عـام ١٩٠٨ وقد تجاوز وقتئذ الخامسة والأربعين، فلا غنـى عـن لمحة خاطفة ولو كطرفة العين لمراجعة ما كان من أمرة قبل أن يبلغ هذه المرحلة من عمره.

كان الشاب "موريس ميترلنك" فى نحو الخامسة والعشرين من عمره، حين أخرجت المطبعة بواكير مؤلفاته عام ١٨٨٩، وأولاها مجموعة أشعار بعنـوان "الأكنان الدافئـة" Serres

Chaudes طبعت منها مائة وخمسًا وخمسين نسخة إحدى دور النشر فى باريس. وهذه الأكنان تضم رقائق من الأزهار الشعرية لا تمت إلى واقع الطبيعة، بل هى نظائر لها يبلغ من لطفها وشفوفها أنها تبدو وكأنها أطياف فى المنام من نسج الأحلام، ومثل هذه الأشعار كثيرًا ما تشغل الخاطر وتثير الشجون بما تنطوى عليه من الشعور الغامض والروح الحزين. وأمام هذا النزوع للخفاء والغموض، والهروب من الواقع المبتذل المحدود، مع غرابة التعبير من حيث التراكيب، والترديد بالذات لبعض الجمل أو المفردات، وتعمد الإيقاع الجديد، لا يمكن أن يخفى على القارئ تعرف سمات ذلك الفريق من الشعراء الذى منه "جوستاف كاهن" Gustave Kahn و"شارل موريس" Charles Morice و"لافورج" Jules Laforge وغيرهم من شباب الفنانين المنتمين إلى مدرسة الشعر الجديد، مدرسة الرمزيين التى رفع لواءها "بودلير" و"مالارييه" و"رامبو" من متقدمى الأعلام المشهورين.

كذلك طبع الشاعر البلجيكى الشاب بعد أشْهُر من طَبْـع مجموعة أشعاره فى بـاريس، مسـرحية بعنـوان "الأميـرة مالين"Le Princesse Maleine، وقد تولى مع صـديق له طبعها فى وطنه بلجيكا بمطبعة تدار باليد قام هو بإدارة عجلتها فـى حجرة مربعة صغيرة فى مكان كالإسـطبل ببلدتـه "غنـت" Ghent، وكانت هـذه الطبعلـة خاصة لا يكاد يتجاوز عددها الثلاثين نسخة. ولكنه لم يلبث بعدها أن طبعها فـى المطبعـة الصغيرة نفسها فى حدود المائة والخمس والخمسـين نسـخة وهى الحد الأقصى الذى لم يكن يتعداه شباب الكتاب فى هـذه المدينة القديمة تظاهرًا بالدلال وتحديًا لقلة الإقبال. وكان هـذا العدد المحدود يدخل فى عداده ما يرسل عادة لنقاد الصـحف والمجلات.

وكان المؤلف الشاب مقيمًا فى بيته الريفى فى ناحية (أوستاكر Austacker) بالقرب من "غنت"، فاتفق – فى الرابع والعشـرين من أغسطس عام ١٨٩٥ وهو جالس إلى المائدة يتناول فطوره – أن جاءته جريدة الفيجارو الباريسية، فإذا صفحتها الأولـى

مخصصة كلها لمقال بقلم ناقد الجريـدة المسـرحى الكاتـب المعروف "أوكتاف ميربو" Octave Mirbeau، استهله بما يلى:

(إنى لا أعرف شيئًا عن "موريس ميترلنك"، لا أعـرف من أين هو، ولا كيف هو. لا أعرف إن كان شيخًا كبير السن أو فتى فى ربيع العمر، غنيًا وافر المال أو فقيرًا رقيق الحال، لا أعرف. كل ما أعرف أنه ما من إنسان يجهله الناسُ أكثـر من جهلهم إياه، كما أعرف فى الوقت نفسه أن هـذا الإنسـان نفسه أتى بآية رائعة من الآيات، آية ليست من قبيل هذا النوع الذى تعد له البطاقة مقدمًا باسم المعجزة من قبـل ظهورهـا، كتلك المعجزات التى يطالعنا بها كل آن أساتذتنا من الشـبان، فتتغنى باسمهم وتلهج بذكرهم وتسبح بحمدهم على كل نغم من الأنغام، وبكل لحن من الألحان تلك القيثارة الحديثةُ الضخمة، أو – بعبارة أصح – ذلك المزمارُ الصاخب الجبار: الصحافة. كلا، إنها معجزة من نوع آخر، آية رائعة خالصة خالدة، آيـة تكفى وحدها لتخليد اسم صاحبها، وتقديس ذكره، عند جميـع المنهومين المتعطشين إلى ما هو رائع وعظيم، آية كالتى حلم

فى بعض الأحايين بتحقيقها الفنانون الشرفاء المعــذبون فـــى لحظات الحماسة لفنهم، ولكنهم لم يحققوها إلى اليوم وأخيــرًا طلع علينا السيد "موريس ميترلنك" بعمل من الأعمال الأدبيــة هو أعظم ما عرفه هذا العصر أصالة وعبقرية، عمل يجمــع بين إبداع الغرابة وأعذب البساطة، حتى ليضارع بل أكاد أقول – إذا أسعفتنى الجرأة – إنه ليفوق فى روعة جماله أجمل مــا فى شكسبير. هذا العمل الأدبى مســرحية اســمها "الأميــرة مالين").

قرأ الشاب البلجيكى مؤلف مسرحية "الأميرة مالين" هــذا المقال فى الصحيفة الفرنسية، فلم يكد يتمه حتى أحس انفجــار شيء فى نفسه، انفجر سد من القلق كان لا محالة يضيق بــه صدره حين يساوره فيكاد يعترض انطلاق طبعه، ويعوق دون انفساح مجراه، وتدفق المحتــبس مــن فيضــه إلــى مــداه، والاطمئنان إلى جدواه. إن ما قيل عنه فى صحف بلاده فـــى ذلك الحين قليل ولا يكاد عند حسن التقدير يعدو هذا القبيــل: "ذاك البصيص الصغير الذى يتألق فى الأفق، لا يدرى أحّــد

بعدُ أهو بصيص مصباح صغير أو نجم بعيد". أكان هذا القول وأمثاله في صحف بلاده من شأنه أن يبعث الثقة فـــي نفـــس كاتب مجدد يريد أن يستقيم على طريقه ويطمئن إلى حاله؟ أين هذا من فورة الإعجاب في مقال الناقد الفرنسي الذي لم يكـــن ليفوقه مقال في حماسة الاستقبال حتى لقد خيـــل إلـــى والـــد المؤلف في دهشته من كل هذه المبالغة فـــي الاحتفـــاء أنهـــا مقصود بها السخرية والاستهزاء بولده. ولكن المؤلف في واقع الأمر كان جديرًا بالثناء، وإنما المبالغة وحدها هي التي كادت تفوت على القراء مدلولها وتفسد أثرها.

وفي اعتقادنا أنه على الرغم من ذهاب الناقد الفرنسي في حماسته للمؤلف الشاب البلجيكي إلى حد المقارنة بينه وبـــين شكسبير أعظم شعراء العالم، وتفضيله عليه مع الفـــارق الذي لا يُحد بين الاثنين، فإننا نحمد على الأقل لذلك الناقد المتحمس أنه في ذكره شكسبير في معرض كلامه عن الباكورة الأولـــى لمسرح "ميترلنك"، قد أسلمنا طرفًا من الخيط الذي يؤدي إلـــى استكشاف جانب مهم في تكوين ميترلنك نفسه ونشأة مسرحه.

ولقد كان مولد "موريس ميترلنك" فى التاسع والعشـــرين من أغسطس عام ١٨٦٢ فى مدينة "غنت" **Ghent** الواقعة فى ملتقى النهرين (ليس _ و_ إسكو) بإقليم الفلمنك **Flandres** وفيها كانت نشأته حتى تجاوز الخامسة والعشرين، وهى مدينة قديمة من أجمع المدن لخصائص الإقليم، تتحدث جدرانها المســودة من قدمها بالماضى الحافل بالحياة، المزدحم بالذكريات، كمـــا تُشتم رائحة الموت والانحلال من الرطوبة المنبعثة من ذلـك العدد الكبير من القنوات. ثم هى أعمر مـــا تكـــون بـــالأديرة والمصانع فى وقت معًا، فهى مدينة أهل الصـــناعة العـــاملين وأهل الله المتصوفة الزاهدين. فلا غرو أن يكون لهذا الإقلـــيم بجوه المعتم القاتم وبيئته الحسية الصافية، ما لابد منه من الأثر الذى يتفاوت بحسب الملابسات فى حساسية الأجيال المتعاقبة.

ولا بأس من أن نستشهد هنا بما يعرفه الجميع عن حيـــاة كبير من أشهر مشاهير التاريخ من مواليد مدينة "غنت" نفسها، وهو الإمبراطور شارلكان الذى اجتمع له فى العالمين القـــديم والجديد عظمة الملك الواسع الذى لا تغـــرب عنـــه الشـــمس،

وجبروت الحاكم المطلق الـذى لا معقـب عليـه، ومظـاهر السلطان الذى ليس كمثله سلطان، فنزل فى عام ١٥٥٦ عـن هذا جميعه إيثارًا لحياة النسك فى دير "يوست" Yuste غربـى إسبانيا، وفى هذا الدير طلب قبل وفاته أن تُقام شعائر جنازته أمام عينيه فى حياته.

هذا المزاج بعينه هو المـزاج الغالـب علـى إحسـاس "موريس ميترلنك" وتفكيره، فى شعره وفى مسـرحه وسـائر مصنفاته على تعدد مباحثه واختلاف موضوعاته. ولما كـان مدار الحديث هنا على مسرحه، فلا مندوحة من قصر الكـلام على مسرحياته. وحسبنا لكى نبلغ الغاية أن نراجع مسرحياته الأولى، الطوال منها والقصار، كلها أو بعضها، لنـرى هـل الحياة فيها ما برحت على تكرارها هى الحكاية نفسها، حكاية يحكيها أبله معتوه، كلها ضجيج وصخب، ولا طائل من ورائها غير العذاب والتعب، ثم يطوى الردى أبطالها دون أن يعرفوا سرها أو يجدوا معنى لها؟ وهؤلاء الأبطال الفنـانون أثـراهم أجيالاً بعد أجيال، حين يسلكون مرحلة الحياة قصيرة كانت أو

طويلة يسلكونها أجمعون عميانًا كانوا أو مبصرين، كالسارى الذى طال فى الليل سراه يردد هذا القول أو ما فى معناه، "أنا الإنسان التائه لا يدرى أين هو ذاهب؟"

أجل إنها جميعًا نفس المأساة، مأساة القدر المتحكم فى الحياة كلها، فى سائر أمورها صغيرها وكبيرها، ليسلم الحياة – كل حياة – آخر الأمر إلى الموت الراصد منذ الصغر لها، المتربص بها، وهى أبدًا شاعرة به وهو يحوم حولها، متوجسة منه، متجنبة له، وقد تحاول الحياة تناسى الموت والتغافل عنه، ولكنه لا ينساها ولا يغفل عنها لحظة، حتى تحين الساعة فيخمد أنفاسها وينتزع روحها، سيان كانت على انفراد وحدها، أو بين أهلها وأحبائها أو وسط الألوف المؤلفة المحتاجة إليها المتعلقة بها.

فهذه "الأميرة مالين" – فى أولى مسرحيات "ميترلنك" – صبية كالزهرة الجنية فى رقتها وحسنها وبراعتها، وهى وحدها بالليل فى حجرتها، ولكنها مسهدة قلقة، تحس أن خطرًا تجهله يهددها، وفى الواقع كان هنالك قتلة لا تعرفهم أئتمروا

لسبب لا تعرفه على قتل الأميرة الصغيرة، إنهم علـــى الســـلم السرى المؤدى إلى باب خفى فى جدار من جدران حجراتها. إنها تجهل كل شيء عن هذا الممر الخفى، وتجهل أمر القتلــة كل الجهل، ولكنها تعرف أنها الليل هالكة، تحس أن المــوت قريب منها. أهى تلك الخطوة البعيدة التى خيــل إليهــا أنهــا سمعتها؟ لكم سمعت مثلها كل ليلة فى نواحى القصر. ولكنهــا فى هذه الليلة رهيبّة مخيفّة مروعة كأنما تؤذن بالشر. إن هذا الشر آت لا محالة. إنها لتشعر بوجود غيــر منظــور، غيــر منظور، ولكنه حقيقى إلى حد فظيع، إنه يرعبها فيجمد الدم فى عروقها. ويطول موقف الأميرة على هذه الحال، فإذا بنا نعيش فى عالم الخوف معها، لا إشفاقًا عليها من القتلــة المــؤتمرين على قتلها، بل على أنفسنا من الأقدار، من القـــوى المجهولــة التى تتصرف بنا وتسوقنا كما شاءت، وإلى حيث شاءت دون إرادتنا ومن غير علمنا.

هذه المسرحية "مالين" من الناحية الزمنية أولى مسرحيات "ميترلنك"، وقد كان تأليفه لها تحت سماء بلدته قبل النزوح إلى

باريس، وهى – على ما فيها من التردد الطبيعـــى – بمثابـــة النموذج الأول لما سيأتى فى أعقابها من عمل مسرحى، فنحن واجدون فيها ذلك الإطار من المناظر التى يخلع عليها المؤلف مسحة خيالية لا تخلو من الغرابة والغمـــوض، بحيـــث يبـــدو المكان كأنه فى بلاد أسطورية مع شعورنا بحقيقته الواقعيـــة. وهنا تطالعنا البحيرات هادئة ساكنة تكتنفهـــا الغابـــات ذوات الأشجار العالية الساهمة، وعلى مسافة منها القصور القديمـــة، دهاليزها وأسرابها لا آخر لها، وقباؤها الضخام الثقيلة كأنهـــا على النفس جاثمة، ومقاصيرها كثيرة الشقوق متآكلة من فرط الرطوبة، وحدائقها المهملة ملتفة الشجر كثيفة الورق مظلمـــة. والصروح المحصنة بأبهائهـــا الفـــاخرة المتهدمـــة، العـــامرة الموحشة تعيد إلى الذاكرة ذكريات ما شـــهدته فـــى الأجيـــال المتعاقبة من ضروب التعذيب وفظائع الجـــرائم، ممـــا أوقـــع الروع لا محالة فى نفوس ساكنيها صغارهم وكبـــارهم، فهـــم نهب الهواجس والمخاوف يشتركون فيها، على الرغم من قلة التفاهم بينهم للفارق الكبير بين أعمارهم.. وإلى هذا كثير من

أمثاله، وجميعه مما استوحاه المؤلف من مشاهد بلدته القديمة، وما أفاده من خلال مطالعاته وزاد عليه من تخيلاته.

فى هذه المسرحية التى لم يفكر مسرح فى تمثيلها، تظهر محاكاة "ميترلنك" لشكسبير فى كثرة المناظر وتعددها فى كل فصل من فصولها، وفى ازدحامها بالشخصيات الملكية، وذلك المزاج بين العناصر الفاجعة والعناصر المضحكة، وفى الغراميات المتعارضة، وكل هذه التنبؤات والنُذر قبل المقتلة الختامية.

ولكن هذه المحاكاة للوقائع تقف عند حد الظاهر، لأن "ميترلنك" في عرض شخوص المسرحية وأحداثها لا يقصد إلى واقعيتها، فقد كان غير مؤمن بالفن الواقعى، بل هو راسخ العقيدة بأن الواقعية فى عصره قد أخفقت، ويرجع إخفاقها إلى أنها اتجهت شطر صغار الحقائق – تلك الحقائق اليومية الغثة الهزيلة التى لا كنه لها، ولا كبير طائل ورائها – بدلاً من أن تحاول الاتصال بالحقيقة الكبرى، تلك الحقيقة الكامنة المستكنة وراء الأشياء كلها، أو بعبارة أخرى "تلك القوى الخفية"،

وبأوجز لفظ "ذلك المجهول" فهو وحده الـذى يعنـى الفنـان الرمزى بحيث لا يمل ذكره، ولا يستهويه غيره، ولا تشـغله الظواهر عن أمره ومحاولة استكناه سره.

من أجل ذلك لا يكون من المستغرب أن ميترلنـك – أو شكسبير البلجيكى على حد ما سماه "ميربو" فى مقاله الحماسى – لم يلبث أن أدرك أنه فى غير حاجة إلى أصحاب العـروش ذوى الهامات المتوجة، ومن حولهم الأمراء والحاشية، وكل ما هنالك – فى مسرحية مالين – من تلـك العناصـر الكثيـرة المتنوعة، فضلاً عن ذلك التفنن فـى ابتـداع الموضـوعات الفاجعة. نعم أدرك ميترلنك أنه فى غير حاجة إلى جميع هذا، إذ إن أبسط الحوادث العادية فى الحياة اليومية يغنى عنه، وقد يكون أعمق أثرًا منه بل أوفى بالغرض لبلوغ المؤلف ما يريده فى مسرحه الرمزى من إشعار الجمهور بمـا وراء الأشـياء والأحداث من القوى الخفية أو سلطان القدر، أو بالاختصار ما ينطوى تحت لفظ "المجهول".

وعلى هذا جرى المؤلف فى مسرحياته التالية، وهى قصار فى الغالب الأعم.

ونذكر من تلك المسرحيات القصار مسرحية "الدخيل" من فصل واحد ومن منظر واحد وهو غرفة مظلمة فى قصر قديم، حيث يجتمع أشخاص المسرحية وهم الجد الضرير، والأب والعم والبنات الثلاث، ولا يُضىء الغرفة غير مصباح واحد ضوءه خافت، والكل فيها يتهامسون بصوت خافت كذلك، وهم جميعًا واجمون مسهدون. وفى غرفة مجاورة ترقد تلك التى يفكرون فيها وعنها يتهامسون، المريضة التى يتهدد الخطر حياتها، ومن أجلها كان اجتماع هؤلاء ومحاولتهم أن يطمئن بعضهم بعضًا، ومن هذا القبيل ما كان يدور من المقال بين العم والأب: "إن طلعتها تبدو منذ العصر على أحسن ما يرام، وهى تنام نومًا عميقًا الآن، فهل ترانا ننغص على أنفسنا أول ليلة طيبة أتاحها الحظ لنا. من رأيى أنه يحق لنا أن نستريح، بل أن نضحك هذا المساء ولا نخشى شيئًا".

ولكن الجد الضرير كان يستبد به القلق، فلم يكن ليهدئ من روعه شيء. لم يكن يعنيه ما يقوله الآخرون. ذلك أنهم مبصرون، والواقع الذى يبصرونه يحول بينهم ورؤية الحق. أما هو فقد حجب العمى عن عينيه عالم الظواهر، فأصبح اتصاله بالعالم عن طريق الحواس الباطنة. إنه الوحيد الذى كشف العمى عن بصيرته، فهو يرى قبل سواه كل شيء على حقيقته. إنه يحس بالخطر يزداد، والأجل يدنو من المريضة سريع الخطوات... ومنذ هذه اللحظة تتركز المأساة كلها فى الشيخ العجوز، فى تباريح لوعته التى تنعكس فى ازدياد واشتداد على طلعته، ويضاعف الأثر ما يشيع فى جو الغرفة من دواعى الفزع متوافدًا من خارجها متصاعدًا من أرضها، فثمة عصفة من الريح تهب ثم تسكن، وشدو البلابل ينقطع ويسكت، ووقع خطوات خاطفة مرقت فى الحديقة، ولمحة من البستانى وهو يشحذ تحت الليل منجلَه، وعشرات من التفاصيل لو سنحت متفرقة لما كان يؤبه لها، ولكن تكرارها متلاحقة تألف منه وعيد وتهديد بالخطر. عندئذ لم يستطع الجد الضرير إلا إظهار الفزع، حتى إذا جاءت لحظة أحس فيها الجد

الضرير بين المجتمعين بوجود لم يشعروا هم بوجوده، نــدت منه الصرخة المخنوقة. وفجأة ينفتح الباب ويغمر الغرفة فيض مباغت من ضياء. وتدخل ممرضة من الراهبات وترسم على صدرها إشارة الصليب التى يستدل منها أن المريض مات.

ومع هذه المسرحية نشر المؤلف فى سنة ١٨٩٠ مسرحية أخرى مثلها عدد شخوصها اثنا عشر، ست رجال وست نساء كلهم عميان، ومن هنا سميت "العميان". وهؤلاء الخلق العميان نراهم فى الظلام وحدهم فى غابة من غابات الشــمال تبــدو عريقة فى القدم كأنها كانت هنا منذ الأزل، ومن فوقهم ســماء غائرة النجوم، وهم ينتظرون، ينتظرون من غير أمل، ولكنهم مع ذلك ينتظرون، إنهم فى انتظار قس، رجــل الله ومبعــوث العناية، إنه نورهم الهادى ودليلهم المرشد، لقد كــان يتقــدمهم ويقودهم، ثم غاب عنهم وطال غيابــه. وإنهــم ليتحسســون طريقهم فى الغابة بحثاً عنه، وفجأة يقع فى روعهم شعور مبهم تقشــعر فيــه أبدانهم، شــعور بوجــود شىء غــريب عنهم لا يبصرونه ولكنه قريب. ولم يكذبهم حدسهم، إنــه المــوت، فهنالك عند جذع الشجرة أسند القس ظهره جثة هامدة.

والمؤلف مع هذه الصدمة القاصمة يشعرك بـأن مقصـده الأخير ليس هو الدعوة إلى اليأس، يأس الإنسانية من جـدوى السعى والأمل فى الهداية إلى سواء السبيل، فإنه بـرغم ذلـك الإخفاق والفشل، يشير إلى استمرار الإنسانية فى الأمل، فـإن الستار ينزل على أبطال مسرحيته "العميان" وهـم لايزالـون ينتظرون.

هذا بعينه هو الذى مكن لمسرحيات "ميترلنك" على ما فى حتمية واقعها الموحش المظلم اليائس المؤلم من رهبة وقسوة، أن تستهوينا بما لا ينفك يغمرها من فيض الحيويـة وبهجـة النضارة الفنية لفرط إيمان المؤلف بالحياة، وعمق شعوره بتلك الغريزة الكونية، غريزة الحياة الغلابة القوية التى أورثت سائر الأحياء ما فيهم من قوة الجلد والعناد، كالذى نشهده فى النملـة الصاعدة على العود وهى تسقط مائة مرة، وفى كل مرة تعاود الصعود... أو مثل ذلك الإنسان الذى حكمت عليه الآلهـة أن يدفع الحجر الكبير إلى أعلى الجبل، فلا يزال الحجر كلما بلغ به إلى قمة الجبل يتدحرج إلى أسفل، وهو ماض مع ذلك فـى

تأدية العمل الموكول إليه. ذلك أن الحياة لم تكن منذ كانت إلا كذلك بطبيعتها، وهذه إرادتها. ولا يكون الحى حيًّا فى حياته إلا إذا استجاب – طائعًا أو كارهًا – لغريزتها، وعمل بإرادتها وإن جهل غايتها.

ولكن هذا كله لم يكن ليحجب عن "ميترلنك" خاطر الموت، فقد كان هذا الخاطر يلازمه منذ حداثته فلم يكف عن التحدث عن الموت فى شعره وفى مسرحياته وسائر كتاباته، بصريح الاسم تارة، وتارات أخرى بمختلف الكفايات، وجملة ما يقال آخر الأمر إن الموت كان عند "ميترلنك" موضوع تفكيره طوال العمر، وإنه قضى السبعة والثمانين عامًا من حياته وهو فى انتظار لقائه، لقاء ذلك الصاحب المجهول وجهًا لوجه.

ومع ذلك فقد وقعت فى حياة "ميترلنك" بعض تغييرات مادية وأخرى وجدانية يمكن أن يُرَد إليها ما يلاحظ على مسرحياته التالية من تسرب نوع من الرجاء، كالشعشاع من الضياء فى الليل الحالك.

ونذكر من تلك التغيرات المادية فى ظروف حياته انتقاله من جو الشمال البلجيكى الغائم القاتم، إلى الجنوب الفرنسى المشرق الباسم فى مدينة نيس أو على مقربة منها حيث كان يقضى معظم العام على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

ولكن هذا التأثير المادى لا يذكر إلى جانب التأثير الوجدانى، ونعنى به تأثير المرأة، وبعبارة أدق وألطف: الحب.

كان ميترلنك لا يزال مقيمًا فى إقليمه الفلمنكى فى بلجيكا حين التقى فى العاصمة البلجيكية فى إحدى الليالى بالمرأة التى أصبحت رفيقة حياته ونجية نفسه وموضع سره نحوًا من العشرين عامًا، وهى السيدة الفنانة "جورجيت لبلان" **Georgette Leblane** وكانت فى ذلك الحين تغنى "تاييس" و"كارمن" وغيرهما من الأوبرات فى التياترو الملكى فى ميدان لاموناى **Place de la Monnaie** الذى تحف به المقاهى والمطاعم على مختلف أنواعها ويعتبر مركز الملاهى فى العاصمة. وقد اتفق هذا اللقاء فى دار محام من المحامين الكبار مشهور بدعوته إلى التجديد فى الأدب البلجيكى، وكان الشاب ميترلنك يزاول

فى مكتبه المران على المحاماة على كره منه نزولاً على إرادة والديه، وكان صاحب الدار قد أعد مأدبة عشاء عنده تقام بعـــد الحفلة التمثيلية التى قدم فيها مســـرح دى بـــارك Theatre du Parc مسرحية " الأب" للأديب السويدى اســـترنبرج Strindberg وكان ميترلنك من المدعوين إلى هذه المأدبة، فترك النحـــل فـــى بلدته تلبية للدعوة، فهو كعادته، سيماء الجد على سحنته، يلتزم الصمت ويبدو كالحالم، مع شىء من الشعور بـــالقلق وعـــدم الارتياح كشأنه فى المدينة. ولم يكن هـــذا الصـــوت الوقـــور المستغرق فى التفكير ليخطر فى باله أنه فى هذه الليلة سيلقى فى شخص امرأة ممتازة مرموقة هى الفنانة جورجيت لـــبلان ما أعده له المقدور. وكانت القاعة على حين بغتة قد ســـادت عليها لحظة صمت عميق، فإذا بها قد طلعت على الحضـــور، وهى تمشى الهوينى متخطرة متهادية، ومن ورائها ينســـحب ثوبها المجرور الذى يشنف الأسماع بحفيف الحرير، وقد قـــام صاحب الدار بينهما بواجب التعريف، فبدرت منها عند تقديمه لها صيحّة مقتضبة خفيفة، أما هو فقد رفع كـــالقروى بصـــره

إليها مرتبكًا، وأحنى لها صعدته فى غير لباقة، على حين ردت له التحية بانحناءة من تلك الانحناءات العميقة التقليدية، بـــدت فيها وكأنها الملكة الشابة البيزنطية من لطف تأديتها المراســم الملكية، متعمدة أن تضع فى هذه الحركة كلً براعتها التمثيلية، لتكون منها بمثابة تحية الفن للفن.

وفى أثناء العشاء كان ميترلنك يطيل النظر إليهـــا دون أن يخوض فى الحديث معها.

وكان ميترلنك حين تم التعارف بينه وبين جورجيت لبلان مؤلفًا موفور الشهرة، عامر البدن بالعافية والصحة: ميســـور الحال لا يعوزه المال، ومع ذلك فإن هذا الرجل الذى أنعم عليه بكل هذه الخيرات كان فى دخيلة نفسه يعيش طول وقته مـــع الموت والخوف والملل. ولقد دعا الفنانة الحسناء إلـــى بلدتــه "غنت" حيث أولم لها وليمة فاخرة على الطريقة الفلمنكية، ثـــم خرجا للنزهة فى الشوارع الغائمة المكتئبة، وكان ميترلنك قليل الكلام، ولكنه أفضى مع ذلك بجوهر الكلام ولبابه، قال: "إنـــى غير مؤمن لا بالسعادة ولا بالحب". فاحتفظت المـــرأة بهـــذا

التصريح فى سويداء قلبها، وآلت على نفسها لتعلمَنّه ذلك الفن الشاق، فن التسليم للحياة والاطمئنان إليها والتعويل عليها. فما انقضى القليل حتى كان قد كتب مسرحية تختلف عما سبقها كل الاختلاف، مسرحية لم يَعُدْ يعصف فيها عاصفُ الجزع والخوف، بل يسرى فيها نسيم الأمل والرجاء.

لقد كان ميترلنك لا هم له فى مسرحياته إلا تمثيل القدر المحتوم على البشر فى صُور الشقاء والعذاب والموت وهى مقبلة علينا الواحد بعد الآخر فى خُطًى ثابتة يثنيها ويفت فى عزيمتها أو يعتاق سيرتها أو يقف فى مواجهتها فيسد طريقها ويحول بينها وبين فريستها، كانت هذه الفكرة مستبدة به مسيطرة عليه فى المرحلة الأولى من تفكيره الفلسفى، فإذا به فى المرحلة الثانية ينفض عنه هذا التسليم للقدر، ويتحدث عن الصراع غير مكتفٍ فيه بما كان من ذلك التخبط السلبى، تخبط العاجز، الشاعر بعجزه فى قبضة القدر. بل الصراع الحقيقى على مستوى البشر بين بعضهم البعض، والصراع الإيجابى بينهم وبين القدر على الرغم من علمهم بأن القوى غير

متعادلة. ولا عليهم من ألا يكون لهم النصر فى آخر الأمـــر. ويظهر هذا الصراع واضحًا فى مسرحية "أجلافين وسليزيت" **Aglavine et Selysette** عام ١٨٩٦ حيث يقــوم الصـــراع بـــين المرأتين على رجل هو ملياندر **Meleandre** وهو صراع كأشد مـــا يكون الصراع الحقيقى، ولكن كفة إحداهما لا تلبث أن تـــرجح على كفة الأخرى لأن العلائق التى تربط بين "سليزيت" وهذا الرجل ليست نسبيًّا إلا علائق سطحية على المستوى البشرى، فى حين يزداد ما يربط المرأة الأخرى "أجلافين" بهذا الرجـــل توثقًا واشتدادًا فى قوة الارتباط، وتأثلاً وإيغالاً فى الأعمـــاق. وذلك أن انجذاب كل من الاثنين – هذا الرجل وهـــذه المـــرأة بالذات – إلى الآخر غير مقصور على رغبتهما البشرية، بـــل من ورائها قوة خفية أقـــوى منهمـــا: هـــى تلـــك الجاذبيـــة الميتافيزيقية التى لا نعرف كنههـــا ولا نملـــك ردهـــــا، ولا نستطيع غير الانقياد لها والنزول على أمرها.

ولا نحسبنا مخطئين إذا رأينا فـــى شخصـــية "أجلافـــين" شخص الفنانة "جورجيت لبلان"، فقد كان لقاؤهما على النحـــو

الذى جاء وصفه فى المسرحية تمامًا فهما – كما جـاء فـى المسرحية – سواء فى المقابلة الأولى على غير موعد، أو فى الموعد الأول – لم يتبادلا إلا أبسط الكلمات وأكثرها تـداولاً بين عمـوم النـاس، فإذا بهمـا – مع ذلك – يشعران بأنهما لا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا حياة له بغير صاحبه، وقـد بلغت قمة الجذب بينهما أن دامت صحبتهما نحوًا من العشرين سنة. ولقد حرص المؤلف فى إثر تأليفه لهذه المسرحية علـى الكتابة إلى الفنانة يحدثها عن بطلته الجديدة، فيقول هذا الـذى قال فى أول حـديث بينهمـا: "إنى غـير مؤمن لا بالسـعادة ولا بالحب".. يقول اليوم (لقد حملت إلى "أجلافين" ما لاعهـد لى به. جو جديد وإرادة للسعادة وقوة على الرجاء).

ومنذ ذلك الحين دخل التغيير علـى مؤلفـات ميترلنـك المسرحية وغير المسرحية، حتى ليشعر القارئ لهذه المؤلفات بالنقلة المفاجئة من الجو القاتم المتلبد بالضباب إلى جو آخـر تَمزق ضبابُهُ فعرف الإشراق ودخل إليه النور مُشعشِعًا هنـا وهناك فى الآفاق، وكشفت الأرض لنا عـن بـدائع ودائعهـا

وأنفس كنوزها، فاكتست بالزهر والريحان من مختلف الألوان، وأخرجت لنا الأيام أبطالاً وبطلات أقل خوفًا من الحياة وأكثر شجاعة وهمة.

ولا نقصد بهذا القول إلى أن ميترلنك قد تخلى عن فلسفته وعن تفكيره الدائم فى القدر والموت، كلا، فإن الشىء الذى تغير لم يكن هو القدر والموت، وإنما هو نظرة ميترلنك إليهما وطابع شعوره بهما ولون تفكيره فيهما، حتى لنرى مؤلفنا المسرحى أميل إلى جعل الشقاء والعذاب والموت فى خلفية المسرح، وعرض إرادة الحياة ونشدان السعادة فى مقدمته.

وحسبنا للتحقق من ذلك جميعه أن نقابل بين المسرحيات التى طلع بها علينا المؤلف فى السنوات العشر الأخيرة فى القرن الغابر وهى مسرحيات المرحلة الأولى التى قدمنا للقراء عرضًا موجزًا لموضوعها، وبين أشهر وأبدع مسرحياته فى أوائل القرن الحاضر، وهى "الطائر الأزرق" التى نستأذن القراء أن نعفيهم من إيراد خلاصتها فهى لا تغنى عن الاستمتاع الكامل بقراءتها فى الترجمة التى بين أيدينا.

وهذه المسرحية التى ضمنها ميترلنك ما بلغه وهو فى طور النضج من تطور فى النظر والشعور والفلسفة، قد شاء له هذه المرة فنه – كما أشرنا فى مستهل كلامنا – أن يصبها فى قالب قصة من قصص الجنيات. وقد يبدو هذا من عجيب الأمر. ولكن الأعجب هو أن المؤلف الفنان، بما حقق فى هذه المسرحية من نجاح لم يتحقق له فى غيرها، أقام الدليل على أن هذا الأسلوب – أسلوبها – هو الأسلوب الذى يناسب ما أراد عرضه على المسرح من بحث عن السعادة، تلك الضالة المنشودة التى افتقدها فى الطبيعة أبناء الأرض، وهؤلاء هم – فى المسرحية – يبحثون عنها فيما وراء الطبيعة على نحو رمزى بديع شاعرى لا يثقل على النفس، بل يثير الخيال ويسكر الحس، وعن طريق الجمال والخيال يوقظ الذهن والتفكير.

ومسرحية الطائر الأزرق من ستة فصول فى عشر لوحات وقد كان أول عرض لها على المسرح فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٨ بالمسرح الفنى فى موسكو، ثم صدرت طبعتها الأولى

فى باريس عـــام ١٩٠٩، ثم مثلت فى ترجمتــها الإنجــليزية على مسرح هايماركت Haymarket فى لندن فـــى ٨ ديســـمبر عام ١٩١٠ ولقد شجع نجاح تمثيلها فى الخارج على اســـتقبال المسارح الفرنسية لها فكان أول المسارح التى فتحت أبوابهـــا مسرح ريجان (وهو اليوم مسرح باريس) فى الثـــانى مـــن مارس سنة ١٩١١ وهى السنة التى حصل فيه علـــى جـــائزة نوبل.

وبعد ما قدمناه من التعريف الوافى بهذا المؤلف من أعلام المسرح الرمزى "موريس ميترلنـــك"، وتحليـــل مســـرحياته الرمزية فى المرحلة الأولى ثم فى المرحلة التالية، مع عرض سريع للفكرة التى قامت عليها أشهر وأبدع مسرحياته الأخيرة؛ وهى "الطائر الأزرق" نرى لزامًا علينـــا أن نحيـــى الكاتـــب الروائى العربى الأستاذ يحيى حقى على ما اضطلع به من هذا التعريب الدقيق البليغ للمسرحية التى بين أيدينا، مـــع الحفـــاظ على خصائصها الجامعـــة بـــين الفلســـفة والتصـــوف وروح الطفولة، حتى جاء تعريبه للنصوص من واقع أصـــلها، مـــن

حيث الأمانة فى نقلها وحسن المطابقة لها، كصورة الحسـناء فى مرآتها فإليه نزف تحيات الشكر والتقدير على لسان قرائها.

عبد الرحمن صدقى

الفصل الأول

المنظر الأول: كوخ الحطاب

[المسرح على هيئة كوخ حطاب من الداخل، بسيط المظهر، ريفى البناء والمتاع ولكنه لا ينم بحال عن تعاسة العوز والفاقة، مدفأة مستورة لأنها محفورة داخل الجدار، بها حطب نعست ناره، آنية مطبخ، صوان، صنوق لحفظ الخبز، ساعة طويلة موروثة عن الأجداد تعمل بثقالين، عجلة مغزل، حوض للغسيل إلخ.. إلخ، مصباح مضيء على منضدة، أمام الصوان كلب فى جانب وهرة فى الجانب الآخر، كلاهما يرقد وقد تقبض جسده وجمح أنفه إلى ذيله، وبين الاثنين قمع سكر كبير ملون بالتناوب بالأبيض والأزرق، قفص مستدير مثبت على الجدار به عصفور، فى غيابة الكوخ نافذتان، خصاصهما مغلق، تحت إحدى النافذتين دكة من الخشب، على اليسار: الباب الأمامى للكوخ عليه مزلاج كبير، باب آخر على اليمين، سلم يدوى من الخشب، على رأسيهما كرسيان فوقهما ثياب مطبقة بعناية.

عند رفع الستار نرى المولد "تيلتيل" والبنت "ميتيل" يغطان فى سبات عميق فى مهديهما، "ماما تيل" تحبك الغطاء حولهمـــا وتنحنـــى عليهمـــا تتأملهما لحظة وهما نائمان، ثم تشير إلى "بابا تيل" وقد أبرز رأسه مـــن الباب الموارب، فتضع "ماما تيل" سبابتها علـــى فمهـــا لتفـــرض عليـــه بالإشارة التزام الصمت، ثم تخرج إلى اليمين وهى تمشى على أطـــراف أصابعها، وكانت قد أطفأت المصباح أولاً: يغرق المسرح فـــى الظـــلام برهة وجيزة، ثم يتسلل من خصاص النافذتين نور يزداد توهجه، يضـــاء المصباح ثانية من تلقاء ذاته، ولكن بنور يختلف عن نوره حين أطفأتـــه "ماما تيل" – ثم إذا بالطفلين كأنهما قد استيقظا وجلسا فى مهديهما].

تيلتيل : ميتيل!*

ميتيل : تيلتيل!*

هـــو : أنائمة أنت؟

هـــى : وأنت؟

هـــو : كلا وها أنذا أكلمك فكيف أكون نائمًا.

---

* لاختصار للأسماء المتشابهة رأينا الإشارة إلى تيلتيل فيما بعد بكلمة (هو) وإلى ميتيل بكلمة (هى).

هـــى : قل لى، هل اليوم هو يوم يجىء عيد الميلاد؟

هــو : لم يحن مجيئه بعد، إن موعده غـدًا، ولكن عمنا العيد لن يأتى لنا بشـــىء هذه السنة.

هـــى : ولماذا؟

هــو : سمعت أمى تقول إنهـا لـم تسـتطع الذهاب للمدينة لتلفت نظـره إلينـا، ولكنه سيأتى فى السنة القادمة.

هـــى : أبعيد موعده فى السنة القادمة؟

هــو : لا أقول إنه جد قريب، ولكـن عمنـا العيد سـيأتى الليلـة إلــى الأطفـال الأغنياء.

هـــى : حقًا؟

هــو : انظرى، قد نسـيت أمنـا أن تطفـئ المصباح، عندى فكرة...

هـــى : ما هى؟

هـو : هيًّا بنا نقوم من فراشنا.

هـى : هذا مُحرم علينا.

هـو : لا ضير، فما من أحد يراقبنا، أترين خصاص نوافذنا؟

هـى : ما أبهى النور الذى يتخلَّلها.

هـو : إنه نور الحقل.

هـى : أى حفل هو؟

هـو : أمامنا، عند الأطفال الأغنياء، إنها شجرة عيد الميلاد، سنفتح النافذة.

هـى : أمباحٌ لنا أن نفعل هذا؟

هـو : أىْ نعم، ما دمنا وحدنا، أتسمعين الموسيقى؟ فلننهض!.

[ينهضان ويجريان إلى إحدى النافذتين ويصعدان فوق الدكة، ويدفعان مصراعى النافذة فيعم الحجرة نور ساطع، يتطلع الاثنان بشغف للخارج].

هـو : ملكنا رؤية كل شىء.

هـــى : [وقدمها لا يفوز إلا بوقفة غيــر مطمئنـــة على حافة الدكة] أما أنا فلا أرى شيئًا.

هـــو : الثلج ينهمر، أرى عربتين تجر كُــلاً منهما ستة جياد.

هـــى : وينزل منها اثنا عشر صبيًّا.

هـــو : يا لك من مغفلة! إنهن بنات.

هـــى : لا أرى إلا سراويل تلف السيقان.

هـــو : نعم الخبيــرة أنــت بلــبس البنــات والصبيان! لا تدفعينى هكذا.

هـــى : لم ألمسك.

هـــو : [وهو يحتكر الدكة لنفســه] أنت تحتلــين الدكة كلها بمفردك.

هـــى : كيف وأنا لا أجــد فوقهــا موضــعًا لقدمى.

هـــو : الزمـــى الصــمت إذن، إنـــى أرى الشجرة.

هـــى : أى شجرة تعنى؟

هــو : شجرة عيد الميلاد، أنت لا ترينها لأن نظرتك مصوبة للجدار.

هــى : هو كذلك، لأنه لم يبق لى مكان فوق الدكة.

هــو : [هو يتخلى لها بشح عن طرف من الدكــة]
الآن هل اطمأنت وقفتك وفزت على؟
يا لها من أنوار فوق أنوار.

هــى : ماذا يفعل هؤلاء القوم الذين يثيــرون كل هذه الضجة؟

هــو : إنهم يعزفون الموسيقى.

هــى : أهم فى حدة من الغضب؟

هــو : كلا، وإنما عملهم مرهق.

هــى : ها هى ذى عربة أخرى تجرها جياد بيض.

هــو : الزمى الصمت واكتفى بالنظر.

هــى : ما هــذه الحليــة المذهبــة المعلقــة بالغصون؟

هــو : إنها لُعب ولا ريب، سيوف وبنــادق، وجند ومدافع.

هــى : والعرائس؟ هل هناك عرائس معلقــة أيضًا؟

هــو : عرائس! عرائس! إنها لُعب سـخيفة لا تروقهم.

هــى : ما كل هذا الذى نثر من فوق المائدة؟

هــو : كعك وفاكهة وفطيرة محشوة بالقشدة.

هــى : أكلت من أمثالها مرة فى صغرى.

هــو : وأنا كذلك، إنه طعام ألذ مــن الخبــز ولكن هذه الحلوى لا يُبذل لنا منهــا إلا بقدر ضئيل.

هــى : وليس هذا هو حالهم، إنها مبذولة لهم تغص بها المائدة. أسيأكلون كل هــذه الحلوى؟

هــو : نعم ولا ريب، فماذا عساهم يفعلــون بها؟

هـــى : ولماذا لا يأكلونها من فورهم؟

هـــو : لأنهم غير جياع.

هـــى : [وقد غلبتها الدهشة] غير جياع؟ لماذا؟

هـــو : لأنهم يأكلون منها متى أرادوا.

هـــى : [وهى غير مصدقة] كل يوم؟

هـــو : هكذا يقال.

هـــى : هل يأكلونها كلها ولا يجودون منهـا بشيء؟

هـــو : على مَنْ؟

هـــى : علينا.

هـــو : إنهم لا يعرفوننا.

هـــى : فلو سألناهم.

هـــو : هذا غير جائز.

هـــى : ولماذا؟

هـــو : لأنه عيب.

هـــى : [وهى تصفق فرحًا] أوه، ما أجملهم!

هـــو : [فى حماس] إنهم غارقون فى الضحك.

هـــى : وهؤلاء الصغار الذين يرقصون؟

هــو : نعم، نعم، فلنرقص نحن أيضًا.

[يتواثبان من الفرح فوق الدكة].

هـــى : يا لها من بهجة.

هــو : الكعك يقـــدم لهـــم، إن أرادوا لمســة بأصابعهم فعلوا، إنهم يأكلون ويأكلون ويأكلون..

هـــى : حتى الصغار منهم، أكلوا من الكعــك مثنى وثلاث ورباع.

هــو : [وقد أسكره الطــرب] يا لهـــا من لـــذة، يا لها من لذة.

هـــى : [وهى تزعم فى الوهم أنها تعد قطعًـــا مـــن الكعك] قد فزت أنا باثنتى عشر كعكة.

هــو : أما أنا فقد نلت أربعة أمثال نصـــيبك، على أننى سأعطيك منها.

["يدق باب الكوخ" تيلتيل وقد جمد وتملكـــه الخوف، مخاطبًا أخته] :

هــو : تُرى من يكون الطارق؟

هــى : [فى رعب] إنه بابا.

[وإذ يتوانيان عن فتح الباب يشاهد مزلاجه الغليظ يرتفع من تلقاء ذاته، ويسمع له صرير، ثم ينشق الباب عن امرأة عجوز ضئيلة تلبس ثوبًا أخضر وصدارًا أحمر، هى حدباء عرجاء عوراء، أنفها تقوس حتى لامس ذقنها، تمشى محنية الظهر تتوكأ على عصا، لا سبيل للعين أن تخطئ أنها جنية].

الجنية : هل عندكم العشب الذى يدندن والطائر الذىَ لونه أزرق؟

هــو : لدينا العشب ولكنه لا يدندن.

هــى : تيلتيل عنده الطائر.

هــو : ولكنى لا أفرط فيه.

الجنية : ولماذا؟

هــو : لأنه ملكى.

الجنية : هذا سبب وجيه ولا ريب، وأين هو هذا الطائر؟

هـو : [مشيرًا إلى القفص] إنه فى هذا القفص.

الجنية : "تلبس نظارتها لتتفحص الطائر" إنه ليس مطلبى، ينبغى أن تذهبا لتبحثا لى عن الطائر الذى أريده.

هـو : ولكنى لا أدرى أين هو.

الجنية : ولا أنا، من أجل هذا ينبغى البحث عنه، إننى أستطيع إذا يئست أن أتنازل عن العشب الذى يدندن ولكنى لابد لى من أن أجد الطائر الأزرق، إنه لازم لابنتى الصغيرة، هى فى شدة المرض.

هـو : وما مرضها؟

الجنية : لا أحد يدرى حقيقته، إنها تريد أن تكون سعيدة.

هـو : حقًا؟

الجنية : أتعرفان من أنا؟

هـو : إنك تشبهين قليلاً جارتنا الست غُريبة.

الجنية : [وقد تملكها الغضب فجأة] لا شبه مطلقًا، شتان ما بيننا، هذه إهانة بليغة، إنني الجنية غرباوية.

هـو : آه، صدقنا كلامك.

الجنية : ينبغى المضى فورًا.

هـو : ألست آتية معنا؟

الجنية : هذا مستحيل، بسبب الحساء الذى أقمته هذا الصباح على النار فإنه يهدد بالفوران والاندلاق إذا ما غبتُ أكثر من ساعة، [تشير بالتوالى إلى السقف والمدفأة والنافذة] من أين تريدان الخروج؟ من هنا أو من هنا أو من هناك؟

هـو : [وهو يشير بتهيب إلى الباب] الأفضل أن أخرج من هناك.

الجنية : [وقد عاودها الغضب المفاجئ] هذا مستحيل كل الاستحالة، ثم إن الخروج من الأبواب ليس إلا عادة سخيفة، [تشير إلى النافذة] سنخرج من هناك، وبعد، ففيم انتظاركما؟ ارتديا ثيابكما على الفور [يطيعها الاثنان، ويرتديان ثيابهما على عجل وتمضي الجنية قائلة] سأساعد ميتيل.

هو : ليس لدينا أحذية.

الجنية : ليس هذا بالمهم، سأهبكما قلنسوة صغيرة مدهشة، أين والداكما؟

هو : [مشيرًا إلى الباب الأيمن] إنهما هناك، نائمين..

الجنية : وأين جدكما وأين جدتكما؟

هو : مات الاثنان.

الجنية : وإخوتكما وأخواتكما الصغار، أليس لكما إخوة وأخوات؟

هـو : نعم نعم، لنا ثلاثة إخوة صغار وأربع أخوات صغيرات.

الجنية : وأين هم؟

هـو : ماتوا هم أيضًا.

الجنية : أتريدان رؤيتهم من جديد؟

هـو : نعم نعم، على الفور، الآن، دعينا نراهم.

الجنية : إنهم ليسوا في جيبى، ولكن بختكما حسن، فسيتاح لكما رؤيتهم وأنتما تعبران "أرض الذكريات" فى طريقكما إلى الطائر الأزرق، على اليد اليسرى فور اجتياز ثلاثة مفارق، ماذا كنتما تفعلان حين دققت الباب؟

هـو : كنا نلعب زاعمين أننا نأكل الكعك.

الجنية : وأين هو؟

هـو : فى قصر الأولاد الأغنياء، تعالى انظرى، ما أبهاه من مشهد [يجران الجنية إلى النافذة].

الجنية : [وهى بالنافذة] ولكن أفواها غير أفواهكما هى التى تأكله.

هـو : نعم ولكن يكفينا أن نرى أكلهم من هنا.

الجنية : أفى قلبكما موجدة عليهم؟.

هـو : ولماذا؟

الجنية : لأنهم يأكلون الكعك كله، إنه لخطأ كبير منهم أن لا يبذلوا لكما شيئًا مما يأكلون.

هـو : لا يبذلون لأنهم أغنياء، ما رأيك فى بيتهم؟ كم هو جميل.

الجنية : إنه ليس أجمل من بيتكما.

هـو : هيهات! بيتنا أقل ضوءًا ورحابة.. وليس به كعك.

الجنية : ليس هناك أقل فرق بين بينهم وبينكما، إنما أنت لا ترى.

هو : بالعكس، إننى أحسن الرؤية، وعيناى لا تنقصهما حدة البصر، إننى على خلاف أبى أتبين من بعيد عقارب الساعة على قمة برج الكنيسة.

الجنية : [تغضب فجأة] أقول لك إنك لا ترى، قل لى إذن كيف ترانى؟ ما هو شكلى فى نظرك؟ [تيلتيل يلوذ بصمت المتحرج] هيا، أجبنى حتى أعرف إن كنت ترى، أأنا جميلة أم دميمة؟ [يمتد الصوت ويزداد الحرج] ألا تريد أن تجيبنى؟ أأنا صبية أم عجوز؟ وبشرتى؟ أفى لون الورد أم هى مصفرة كالحة؟ ولعل لى أيضًا حدبة فوق ظهرى..

هــو : [وهو يسترضـيها] لا، لا، إن حـدبتك ليست كبيرة.

الجنية : نعم، لى حدبة، ولكن دهشة نظرتـك إليها تنبئ أنك تراها آية فى الضخامة. ألى عين معقوصة وعين مفقوءة؟

هــو : لا، لا، إنى أتبين ذلك، ولكن من الذى فقأها؟

الجنية : [وقد زاد تململها] ولكنها ليست مفقوءة يا وقح، يا لعين، إنها أجمل من أختهـا، هى أوسع وأصفى، إن لونها فى زرقة السماء، وشعرى هل تراه؟ إنه أشـقر كسنابل القمح بل قد يُظن أنـه مـن العسجد الخالص، ولى من هذا الشعر ثروة تثقل رأسى وتفيض مـن كـل جانب، ها هو ذا على يدى، ألا تـراه [تعرض عليه جديلتين نحيلتين مـن شـعر أشهبَ].

هــو : نعم، إنى أرى جديلة من شعرك.

الجنية : تقول جديلة إنها حزمة ملء الذراعين كالنبت الملتف، هى ذوب عسجد، إنى عالمة أن بين النـــاس نفــر يزعم أنه لا يرى منه شيئًا، ولكنك – فيما أؤمل – لست من هذا النفر الأعمى الخبيث؟

هــو : كلا كلا، إننى أرى كل مـــا تكشــف للعين منه.

الجنية : ولكن ينبغى أن ترى بقيته بشطارتك المعهودة، ما أعجب بنى الإنسان! منذ أن انقضى عـــالم الســـحر طمســـت أبصارهم وخبت مداركهم، ومن حسن الحظ أننى مزودة دائمًا بكل ما يبعث النور فى العيون المنطفئة. فما هـــذا الذى أُخرجه من كيسى؟

هـو : أوه، ما أجملها من قلنسوة صغيرة خضراء، وما هذا الذى يبرق فى زرها؟

الجنية : إنها الماسة الكبرى التى نورها هو جلاء العيون.

هـو : حقًا؟

الجنية : نعم، حين تضع القلنسوة على رأسك تدير الماسة قليلاً من اليمين إلى اليسار، مثلاً هكذا، أرأيت؟ إنها حينئذ تضغط على عظم نافر فى الرأس لا يعرفه أحد وهو الذى يفتح العينين.

هـو : وهل سأحس بألم؟

الجنية : على العكس، وإنه سحر ستحس بلطفه، وفى اللحظة ذاتها تتجلى لك سريرة الأشياء! سريرة الخبز والنبيذ والفلفل.

هـو : وتتجلى لى أيضًا سريرة السكر؟

الجنية : طبعًا، إنى لا أحب الأسئلة الفارغة، إن سريرة السكر لا تفضل سريرة الفلفل، والآن ها أنذا أمنحكما كل ما تحتاجان إليه من أجل البحث عن الطائر الأزرق، إننى لا أجهل أن "خاتم المُلك" الذى يحجب لابسه عن الأنظار، وأن البساط الطائر أنفع لكما، ولكنى أضعت مفتاح الخزانة التى كنت خبأتهما فيها، آه! كدت أنسى، [تشير إلى الماسة] حين تضع يدك عليها وتديرها مرة أخرى قليلاً هكذا فسيتكشف لك الماضى، ثم تديرها أيضًا قليلاً فيتكشف لك المستقبل، إنها شىء عجيب نافع يعمل فى صمت.

هـو : إن بابا سيأخذها منى.

الجنية : إنه لن يراها، لن يقدر أحد أن يراها ما دامت على رأسك. أتريد أن تجـرب [تضع القلنسوة الصغيرة الخضـراء علـى رأس تيلتيل] والآن أدر الماسة وانظر..

[ما يكاد تيلتيل يدير الماسة حتى يحدث تغير عجيب يشمل كل الأشياء بغتة، وتنقلب الجنية العجوز فجأة إلى أميرة جميلة رائعة البهـاء، وتضيء حجارة الصوان المبنية بها الجدران بلمعان الياقوت الأزرق، وتصبح شفافة براقة تخطف الأبصار شأن الأحجـار الكريمـة، الأثاث الفقير تدب فيـه حيـاة ذات بهـاء، المنضدة المصنوعة من الخشـب الأبـيض تصبح تنطق بالوقار والمجد مثل منضدة من المرمر، ووجه الساعة يغمز بعينه، ويبتسـم ببشاشة، على حين ينفتح غطاء دولابها الذى يتأرجح رقاصها من ورائه يمينًا ويسارًا ثـم تنطلق منه الساعات وهى مشـبكة الأيـدى مجلجلة الضحكات، وتأخذ فى الرقص علـى نغم حلو، وحق لتيلتيل أن يدهش].

هـو : هاته الآنسات الجميلات، من هن؟

الجنية : لاتخف، إنهن ساعات عمرك، هن فى غمرة من الحبور إذ ملكن الحرية والانكشاف للأعين مدى برهة ولو وجيزة.

هـو : ولماذا تتلألأ الجدران؟ أهى من السكر أم من الأحجار الكريمة؟

الجنية : كل الأحجار سواء، كل الأحجار كريمة، ولكن الناس لا ترى إلا قلة منها.

[وإذ يدور هذا الحوار بينهما تتوالى لمسات السحر حتى تبلغ كمال غايتها، وتبرز سرائر الأرغفة على شكل أقزام فى سراويل بلون قشرة الخبز الجاف، سكارى من الدهشة، تتاثر فوقهم الدقيق، ويخرجون من صندوق الخبز فيدورون حول المنضدة فى خطى مرحة عابثة فتعترضهم سريرة "النار" التى قفزت من المدفأة وهى فى سروال أصفر

وقرمزى وتتلوى من الضحك وهى تطـــارد سرائر الأرغفة].

هــو : وهؤلاء الأقزام الأمساخ، من هم؟

الجنية : ليس أمرهم بالجلـــل، أنهـــم ســـرائر الأرغفة ينتفعون بسفور عالم الحقيقة ليخرجوا من سجنهم فـــى الصـــندوق الضيق.

هــو : وهذا العفريت الأحمر كريه الرائحة؟

الجنية : اسكت، لا ترفع صوتك، وهى شرسة الخُلق.

[لا يقطع هذا الحوار توالى لمسات السحر، فــإذا بالكلب والهرة وهما نائمان مكوران إلى جانــب الصوان يطلقان معًا فجأة صرخة عالية ثم ينشق تحتهما غطاء سرداب ويبلعهما فيختفيان ويبــرز بدلهما قزمان أحدهما يتلثم بقناع على هيئة وجــه كلب من فصيلة "البولدوج" وقناع الآخــر علـــى هيئة وجه هرة، فإذا بالقزم الـــذى يلـــبس قنـــاع البولدوج (وسنكتفى فيما يلـــى بكلمـــة "الكلـــب" لتسميته). يرتمى على تيلتيـــل يعانقـــه ويرشـــقه

بقبلات هوج، ويغرقه حتى يشل حركته بتمسحات زائطة متأججة، على حين أن الفتاة القزم الملثمة بقناع الهرة (وسنكتفى فيما يلى بكلمة "الهرة" لتسميتها) تشرع تتمشط وتلعق يديها وتسوى شاربها من قبل أن تقترب من ميتيل].

الكلب : [وهو ينبح ويقفز وينفلت عياره فيخبط كل شيء فى طريقه بتهور لا يطاق] مولاى الصغير أهلاً، أهلاً بمولاى الصغير، وأخيرًا، أخيرًا، استطعت أن أتكلم، إن لدى أشياء كثيرة أود أن أقولها لك فلم يُسعفنى ويفصح عنّى نباح ولا هز ذيل، وكنت لا تفهم عنى، أما الآن، أما الآن فمرحبًا بمولاىّ، إنى أحبك، أحبك، أتريد أن أريك بعض ألعابى المدهشة؟ أن أقف وقفة المستجدى؟ أن أسير على يدى وحدهما؟ أن أرقص على قدمى وحدهما؟

هــو : [للجنيــة] من هذا السيد الذى له وجــه كلب؟

الجنية : ألا تدرك؟ إنها سريرة كلبك "تيلو" وقد استنقذتها أنت من الأسْر.

الهرة : [تمد إلى ميتيل يدا موقرة متهيبة] تحيــة يا ستى، ما أجملك هذا الصباح.

هــى : تحية سيدتى [إلى الجنية] من تكون؟

الجنية : من السهل أن ترى بنفسك أنها سريرة هرتك "تيليت" التى تمد إليــك يــدها فامنحيها قبلة منك.

الكلب : [وهو يزحزح الهرة] وأنا أيضًا أريــد أن أقبل مولاى الصغير، وأقبل ســتى الصغيرة، إنى أريد تقبيل الجميع هنا، ما أسعدنى! سيطيب لنا لهــو كثيــر. سأبدأ بأن أخيف تيليت، هاو، هــاو، هاو [ينبحها].

الهرة : [للكلب] سيدى، إنى لا أعرفك.

الجنية : [وهى تزجر الكلب بعصاها السحرية] أما أنت فالزم الهدوء وإلا رددناك إلى عالم الصمت إلى يوم القيامة.

[وفى عين الوقت تكون لمسات السحر ماضية فى عملها، تنطلق فى ركن الحجرة عجلة "المغزل"، وتدور بسرعة هوجاء، وتنسج أشعة من ضياء ذات بهاء، يبدأ الصنبور فى ركن آخر يصفر بصوت عال وتنبعث منه نافورة مضيئة تملأ الحوض بجدائل من اللؤلؤ والياقوت، تنفلت منها سريرة الماء على هيئة فتاة شابة تتساقط منها القطرات، شعرها مشعث ونشيجها مرتفع وتبدأ من فورها عراكها مع سريرة النار].

هـو : ومن تكون هذه السيدة المبللة؟

الجنية : لا تخف، إنها سريرة الماء قد انفلتت من الصنبور.

[ينقلب إبريق اللبن ويقع من على المنضـــدة ويتحطم على الأرض وينبعــث مــن اللــبن المراق شخص أبيض خجول كأنه يتهيب كل شيء حوله].

هـــو : ومن تكون هذه السيدة الخائفة التـــى طلعت لنا بقميص النوم؟

الجنية : إنه اللبن وقد كسر إناءه.

[نرى قمع السكر أمام الصوان يأخذ فى النمو ويزداد حجمه ويمزق ورق غلافه وينبعــث منه شخص يصطنع الرقة وهو بادى النفاق، يرتدى معطفاً ملوناً على التــوالى بــالأبيض والأزرق ويتقدم إلى ميتيــل وعلـــى شـــفتيه ابتسامة تزعم التقى والورع].

هـــى : [فى قلق] ماذا يريد؟

الجنية : إنه سريرة السكر.

هـــى : [وقد اطمأنــت] هل عنده حلوى "تبوت الخفير".

الجنية : ليس فى جيوبه شئ سواها، وكل إصبع فى يده "تبوت خفير".

[يسقط المصباح من على المنضدة وما يكاد يفعل حتى يتصاعد وهجه على هيئة فتاة عذراء وضاءة فائقة الجمال، تجللها غلالات شفافة براقة وتجمد فى مكانها كأنها فى وجد].

هو : إنها الملكة!

هى : إنها العذراء البتول.

الجنية : كلا يا أولادى، إنها بسمة النور.

[وإذ يحدث هذا نرى الطواجن النحاسية على الرف وهى تدور على محاورها كلعبة النحل، وينفتح باب الصوان على مصراعيه يدوى، ويلفظ سيلاً رائعًا من أقمشة بعضها فى لون أشعة القمر وبعضها فى لون أشعة الشمس يختلط بها سيل لا يقل روعة من الخرق والمزق يهبط على السلم من المخزن، ثم يقرع الباب الأيمن فجأة بدقات ثلاث عنيفة نوعًا ما].

هــو : [فى خوف] إنه بابا، قد سمعنا.

الجنية : أدر الماسة من الشمال إلــى اليمــين [تيلتيل يدير الماسة بعنــف] لا تعفرتهــا هكذا، يا إلهى! لقد تأخرنا فضــاعت الفرصة من أيدينا، أنت أدرتها بعجلة شديدة، لن يبقى لمــن حولنــا وقــت للعودة إلى أماكنهم المألوفة، وســنلقى متاعب كثيرة.

[ترتد الجنية إلى امرأة عجوز، تطفئ جدران الكوخ ضياءها، وتــؤوب الســاعات إلــى مثواها، وتكف عجلة المغزل عن الــدوران، إلخ، إلخ. ويعم المكان هرج ومرج، وربكة، تجوب النار أرجاء الحجرة فى حركة هوجاء لتبحث عن المدفأة، وإذ تفعل ذلك نرى رغيفاً يعجز عن الاندساس فــى صــندوق الخبــز فينفجر بكاؤه وتدوى صرخات فزعة].

الجنية : ماذا حدث؟

الرغيف : لم يبق لى مكان فى الصندوق.

الجنية : [تنحنى فوق الصندوق] بل فيه مكان، فيه مكان لك، [تدفع الأرغفة التى سبقت فاحتلت مكانها القديم فى الصندوق] هيا، هيا، اسرعوا، انتظموا، أفسحوا بينكم مكانًا.

[يدق الباب من جديد].

الرغيف : [وهو مرتعب مضيع يجاهد عبثًا للدخول إلى الصندوق] لا وسيلة للدخول، سأكون أول ما يأكله.

الكلب : [وهو يتواثب حول تيلتيل] مولاى الصغير! إننى لا أزال هنا، لا أزال أستطيع الكلام، لا أزال أستطيع تقبيلك مرة، وثانية، وثالثة.

الجنية : ماذا؟ أنت أيضًا لم تتصرف بعد؟

الكلب : إننى محظوظ إذ لم ألحق العودة إلى عالم الصمت فإن غطاء السرداب كان أسرع منى فانقفل وبقيت.

الهرة : كذلك كان شأنى، ماذا سيحدث؟ هل ستواجهنا أخطار؟

الجنية : يا إلهى! ينبغى أن أصارحكم بالحقيقة، كل من سيصحب الصبيين فى رحلتهما سيموت عند نهايتها.

الهرة : ومن لا يصحبهما، ما مصيره؟

الجنية : يمتد أجله قليلاً.

الهرة : [للكلب] تعال نأوى إلى السرداب.

الكلب : كلا، كلا، لا أطاوعك فإنى أحب أن أصحب مولاى الصغير وألا أكف عن مناجاته.

الهرة : يا لك من غر أبله!

[الباب يدق مرة أخرى].

الرغيف : [وهو يذرف دموعًا ساخنة] لا أريد أن أموت عند نهاية الرحلة، أريد أن أدخل فورًا إلى الصندوق.

النار : [وهى لا تنفكُ تدور فى الحجـرة بحركـــة هوجاء وترسل أزيزًا ينم عن كربها] لم أعد أجد المدفأة.

الماء : [وهى تحاول عبثًا الرجوع إلى الصنبور] لم أعد أملك العودة إلى الصنبور.

قمع السكر : [وهو يطوف باضطراب حول مزق غلافه] قد مزقت غلافى .

اللبن : [فى سكينة وخجل] وقد كسرت إبريقى الصغير..

الجنية : يا لهم من أغبياء، أغبياء جبنـــاء، إن بقاءكم فى صندوقكم الكريـــه وفـــى سراديبكم وصنبوركم أفضل عنـــدكم من مصاحبة الصبيين للبحـــث عـــن الطائر الأزرق.

الجميع : [فيما عدا الكلب وبسمة النور] نعم، نفضل العودة فورًا، إلـــى صـــنبورى، إلـــى صندوقى، إلى مدفأتى، إلى سردابى.

الجنية : [إلى بسمة النور وهى تصوب نظرة حالمة إلى حطام مصباحها] وأنت يا بسمة النور ما قولك؟

بسمة النور : سأصحب الصبيين.

الكلب : [وهو يهتف بفرح] وأنا أيضًا، وأنا أيضًا.

الجنية : هذه شيمة أفضل، على كل حال قد فات أوان النكوص، لم يبق لكم خيار، ستخرجون كلكم معنا. ولكن أنت يا نار، لا تقتربى من أحد، وأنت يا كلب، لا تشاكس الهرة، وأنت يا ماء اصلبى عودك وحذار أن تندلقى أينما حللتِ.

[لا يزال الباب الأيمن يدق بعنف].

هو : [وهو يتسمع] هذا الدق منذ بدأ: هو دق بابا، إنه نهض من فراشه وأنا أسمع خطوه.

الجنية : لنخرج من النافذة. ستأتون جميعًا إلى بيتى لأتخير لكل حيوان ولكل شىء ما يليق به من الثياب، وأنت يا رغيف، خذ معك القفص لنضع فيه الطائر الأزرق، ستكون حارسه المسئول عنه، هيا هيا، لا نضع الوقت.

[تتسع النافذة فجأة وتصبح بمثابة باب فيخرجون منها جميعًا ثم تعود إلى وضعها الأول وتقفل مصراعيها وهى تزعم البراءة، تعود الحجرة للظلام ويختفى المهدان فى العتمة، ينفتح الباب الأيمن إلى آخره ويظهر فى إطاره بابا وماما تيل].

بابا تيل : لا شىء مريب، لم يكن إلا صرير الجنادب.

ماما تيل : هل نملك تبين أولادنا؟

بابا تيل : نعم ولا ريب، إنهما نائمان فى هدوء.

ماما تيل : إنى أسمع أنفاسهما.

[ينقفل الباب].

[ستــــــار]

الفصل الثانى

المنظر الثانى: بيت الجنية

[بهو فخم فى قصر الجنية غرباوية، أعمدة من المرمر لهـا تيجان من الذهب والفضة، سلالم ومقاصير وشرفات إلخ، إلخ. يـدخل إلى غيابة المسرح من اليمين كل من الهرة وقمع السكر والنار وهم فى ثياب بديعة، إنهم خرجوا من حجرة تُرسل فيضًا من الأضـواء، هـى خزانة ثياب الجنية، تلفعت الهرة بغلالة بيضاء شفافة فوق قميص لهـا من حرير أسود، وارتدى قمع السكر ثوبًا من الحرير مزدوج اللـون: أبيض وأزرق حائل، ولبست النار معطفًا طويلاً قرمزى اللون، مبطنًـا بالذهب، ووضعت فوق رأسها ريشة متعددة الألوان، يخترقون البهـو كله طولاً حتى يبلغوا مقدمة المسرح فتجمعهم الهرة فى مقصورة].

الهرة : من هنا، إننى خبيرة بكل مسالك هـذا القصر الذى ورثته الجنية غرباوية عن صاحب اللحية الزرقاء، لقد ذهبت هى

والصبيان لزيارة ابنتها، فلنغتنم في غيبتهم آخر دقيقة ننعم فيها بحريتنا، جمعتكم هنا من أجل أن نبحث معًا هذا الموقف ألذى وجدنا أنفسنا فيه، فهل ينقصنا أحد؟

قمع السكر : ها هو ذا الكلب يخرج من خزانة الملابس.

النار : عجبى! أى ثوب هذا الذى يرتديه!

الهرة : إنه اصطفى لنفسه رداء الخادم الذى يحرس عربة سندريللا، لعمرى لقد اختار ما يليق به، لأنه له طبع الخدم، فلنختبئ فى هذه الشرفة فإنى لتأخذنى من الكلب ريبة أعجب لها. والأفضل أن لا يسمع ما سأقوله لكم.

قمع السكر : جهد ضائع فقد دلته حاسة الشم علينا، انظروا ها هى ذى سريرة الماء تخرج

أيضًا من خزانة الملابس، ما أبهى جمالها.

[يلتحق بهم الكلب والماء]

الكلب : [وهو يتواثب] انظروا انظروا إلى جمالنا وبهائنا، إلى هذه الدانتلا وهذه الزركشة، إن خيوطها من ذهب خالص، لا ريب فيه.

الهرة : [إلى الماء] يخيل إلى أن ثوبك ليس بغريب على، لقد سمعت وصفه في أحدوثة للأطفال.

الماء : نعم نعم، إنى وجدته فوق ذلك أليق الأثواب لى.

النار : وجهلت أن لابسة هذا الثوب ينبغى أن تحمل مظلة لا تفارقها.

الماء : لا أفهم، ماذا تعنين؟

النار : لا شيء، لا شيء.

الماء : [تهزأ بالنار وتعرض بأنفها] ظننتك تتحدثين عن أنف حمراء متورمة رأيتها أخيرًا..

الهرة : هيا هيا، كفوا عن النقار والشجار، فأمامنا شيء أفضل نفعله، أصبح لا ينقصنا إلا الرغيف. أين هو؟

الكلب : هو يقيم الدنيا ويقعدها من أجل أن يختار ثوبه.

الهرة : حق لمن بدت بلاهته وبرز كرشه أن ينقب ويتخير..

الكلب : وأخيرًا اصطفى له طيلسانًا من لباس الأتراك محلى بالفصوص وله خنجر وعمامة.

الهرة : ها هو ذا قادم إلينا، إنه اختار أجمل رداء لصاحب اللحية الزرقاء.

[يدخل الرغيف مرتديًا الثوب الذى وصفناه هو طيلسان من الحرير قد ضاق بكرشه

البارز فلم تنعقد أزراره فوق بطنه إلا بمشقة، للرغيف يد على مقبض الخنجر المثبت طى حزامه، واليد الأخرى ممسكة بالقفص المعد للطائر الأزرق].

الرغيف : [وهو يراقص أمامهم فى خيلاء وغرور] والآن، كيف ترونني فى هذا الطيلسان؟

الكلب : [وهو يتواثب حوله] ما أجمله! ما أسخفه. ما أجمله.. ما أسخفه.

الهرة : [للرغيف] وهل ظفر الصبيان بثوبين لهما؟

الرغيف : كان من نصيب السيد تيلتيل ثوب "عقلة الأصبع" سترة زرقاء وسروال أحمر، ومن نصيب الآنسة ميتيل ثوب ست الحسن والجمال وحذاء سندريلا. ولكن المشكلة كانت فى اختيار ثوب بسمة النور.

الهرة : ولماذا؟

الرغيف : لأن الجنية أبت من فرط جمال بسمة النور أن تسترها بغطاء، فاحتججت أنا باسم كرامتنا نحن سرائر العناصر الأولى وباسم شرفنا الرفيع وأعلنت فى النهاية أننى أرفض فى هذه الأحوال أن أخرج فى صحبة بسمة النور وهى عارية.

النار : كان ينبغى أن نشترى لبسمة النور ظليلة (أباجور).

الهرة : وبماذا أجابت الجنية؟

الرغيف : آمنت بحكمها صاغرًا على الفور ولكن بسمة النور قررت فى آخر لحظة أن تختار ثوبًا لونه من ضياء القمر.

الهرة : كفى ثرثرة، الوقت يتعجلنا، إن المسألة تتعلق بمستقبلنا. قد سمعتم ما قالته الجنية من أن نهاية الرحلة هى فى الوقت ذاته نهاية عمرنا، فينبغى إذن

أن نطيل ما أمكن من أمد هذه الرحلة، بكل حيلة نملكها، ثـــم هنـــاك مســـألة أخرى، ينبغى أن نعنى بمصير أجناسنا ومستقبل ذريتنا.

الرغيف : كلام جميل، الهرة على حق.

الهرة : انصتوا لى: نحن جميع الحاضرين هنا من حيوان وجماد وعنصر لنا سريرة لم يتبينها الإنسان بعد، ولـــذلك بقينـــا نتمتع بفضلة من الاستقلال ولكن لـــو عثر الإنسان على الطائر الأزرق فإنه سيعرف كل شىء ويرى كل شـــىء، ونصبح جميعًا فى قبضـــته، أســـرى رحمته، هذا ما قالته لى صديقة قديمة هى فحمة الليل، إنها أيضـًــا حارســـة أسرار الحياة. فمن مصلحتنا جميعًا أن نمنع – مهما كـــان الـــثمن – عثـــور الإنسان عـــلى الطـــائر الأزرق حتى

ولو اقتضانا الأمر أن نعرض حياة الصبيين للأخطار.

الكلب : [فى حنق] ماذا تقول هذه البنت؟ أعيدى قولك لو تكرمت لأتبين جلبته.

الرغيف : سكوت! لم أعطك حق الكلام، وأنا رئيس هذا الاجتماع.

النار : ومن الذى أسند إليك الرياسة.

الماء : [للنار] سكوت. ما دخلك فى هذا؟

النار : أنا أتدخل حين أشاء، وليس لمثلى أن يعترض عليه مثلك.

قمع السكر : [محاولاً المصالحة] من فضلكم، من فضلكم، ينبغى أن نكف عن العراك، فالساعة عصيبة، أمامنا قبل كل شىء أن نتفق على خطة نتبعها.

الرغيف : إن رأيى مطابق كل المطابقة لرأى قمع السكر.

الكلب : هذا سخف، لا تنسوا وجود الإنسان، هذه هى المسألة كلها، لا مفر لنا من طاعته والانصياع لرغباته، هذه هى الحقيقة التى ليس غيرها حقيقة أخرى، إننى لا أعترف إلا بالإنسان، فليحيا الإنسان! حياتنا ومماتنا ملك يديه، وفى خدمته، فالإنسان هو مولانا جميعًا.

الرغيف : إن رأيى مطابق كل المطابقة لرأى الكلب.

الهرة : ولكن جُدْ علينا بذكر مبررات قولك هذا.

الكلب : ليس هناك مبررات إنى أحب الإنسان، وفى حبى كفاية، فإذا تآمرتم عليه فإنى سأخنقكم أولاً ثم أذهب إليه وأفضحكم عنده.

قمع السكر : [يتدخل بلهجة حلوة] من فضلكم، لا داعى لهذا النقاش المر، هناك وجهة

نظر تسوغ القول بأن كلاً منكما على حق، ولكل رأيٍ ما له وما عليه.

الرغيف : إن رأيى مطابق كل المطابقـة لـرأى قمع السكر.

الهرة : ألسنا نحن الموجودين هنا جميعًا، الماء والنار، حتى أنت أيها الرغيف وأنـت أيها الكلب، ألسـنا ضـحايا اسـتبداد غاشم؟ اذكروا العهد الذى كنـا قبـل مجىء الطغاة ننعم فيه بالحرية ونروح ونغدو كما يحلـو لنـا علـى سـطح الأرض؟ لم يكن للدنيا مـن سـيد إلا النار والماء، فـانظروا كيـف كـان مصيرهما. أما نحن فلن نصبح على يد الإنسان إلا سلالة هزيلة ممسـوخة لأجدادنا العظام: وحـوش الغابـات. اسكتوا. انتبهوا. تصنعوا البراءة كأنما لم نجتمع لأمـر، فـإنى أرى الجنيـة

وبسمة النور قــادمين نحونـــا، لقــد
انحازت بســمة النــور إلـــى صــف
الإنسان، إن بسمة النور ألد أعدائنا، ها
هما قد أقبلا.

[تدخل الجنية من اليمين ومعها بسمة النــور
وفى أثرهما تيلتيل وميتيل].

الجنية : وَىْ وَىْ، ماذا أرى؟ فيم اجتماعكم فى
هذا الركن المنعزل؟ حالكم ينبئ بأنكم
تتآمرون، قد آن أوان البدء فى الرحلة،
وقد قررت أن تكون بسمة النور قائدكم
تطيعونهـــا جميعًـــا طـــاعتكم لـــى
وسأســتودعها عصـــاى الســحرية،
وسيزور الصبيان هذا المساء أجدادهما
الموتى ولا داعى لمفارقتكمـــا لهمـــا،
حياء من الفضول.. سيقضــيان هــذه
الليلة بــين أحضـــان الــراحلين مــن
أسرتهما فاغتنموا وقت غيابهما وأعدوا

العدة لرحلة الغد إنها ستكون مرحلة طويلة، هيا، انهضوا، وابدأوا العمل، كل واحد منكم فى وظيفته.

الهرة : [بنفاق] هذا هو عين ما كنت أقوله لهم يا سيدتى، كنت أحثهم على أداء واجبهم بحرص وحماس ولكن الكلب كان مع الأسف لا ينفك يقاطعنى.

الكلب : ماذا تقول؟ مهلاً مهلاً، (ويوشك أن يهجم على الهرة ولكن تيلتيل يحدس نيته فيصده بإشارة مهددة)

هـو : ارقد يا تيلو، إذا عدت لهذه الفعلة مرة أخرى فإنى..

الكلب : يا مولاى الصغير، أنت لا تدرى، إنها هى التى..

هـو : [وهو يزجره] اسكت.

الجنية : كفى كفى، هيا نفرغ من ترتيباتنا، على الرغيف أن يترك القفص هذه الليلة لتيلتيل فمن الجائز أن يكون الطائر الأزرق مختبئًا فى طيات الماضى عند الراحلين من أسرته، إنها فرصة على كل حال لا يحسن إغفالها، وأنت يا رغيف، هات القفص.

الرغيف : [بلهجة مراسيمية] دقيقة واحدة من فضلك، يا سيدتى، [يتحول إلى لهجة خطابية] إننى أتخذ منكم جميعًا شهداء على أن القفص الفضى الذى كان فى عهدتى..

الجنية : [مقاطعة] كفى، كفى شقشقة، سنخرج من هناك، أما الصبيان فسيخرجان من هنا.

هو : [وهو شديد التوجس] سنخرج وحدنا؟

هى : إنى جائعة.

هــو : وأنا أيضًا.

الجنية : [للرغيف] افتح طيلسانك التركى واقتطع لهما شريحة من أطيب لحم فى بطنك.

[يفتح الرغيف طيلسانه ويستل خنجره ويقطع به من بطنه شـريحتين كبيـرتين يمنحهمـا للصبيين].

قمع السكر : [يقترب من الصبيين] اسمحا لى أن أقدم لكما أيضًا شيئًا من حلوى نبوت الخفير

[يكسر من يده اليسـرى أصـابعها الخمـس واحدًا بعد آخر ويمنحها للصبيين].

هــو : ماذا يفعل؟ إنه يكسر أصابعه كلها.

قمع السكر : [وهو يحثهما بكرم] هيا ذوقاها، إنهـا حلوى بديعــة، نبــوت خفيـر بحــق وحقيق...

الجنية : حذار يا ولدى من الإفراط فـى أكـل السكر ثم لا تنسيا أنكمـا سـتتناولان العشاء بعد قليل عند أجدادكما.

هــو : أهم هنا؟

الجنية : ستريانهما وشيكًا.

هــو : وكيف نراهم وهم موتى؟

الجنية : كيف تقول عنهم موتى وهم يعيشـــون في ذاكرتكما، إن الناس لا يدركون هذا السر لأنهم لم يبلغوا من العلم إلا قليلاً، أما أنت فسترى بفضـــل الماســـة أن الموتى الباقين في الذاكرة يعيشون في هناء كما لو كانوا غير موتى.

هــو : وهل ستأتي بسمة النور معنا؟

بسمة النور : من الأليق أن لا نفسد علـــى الأســـرة خلوتها إذا اجتمعت، وســـأبقى قريبًـــا فلا أظهر لهم حتى لا أتهم بالفضـــول وقلة الحياء، ثم لا تنس إنني لم أتلـــق منهم دعوة.

هــو : من أي طريق ينبغي أن نذهب؟

الجنية : من هناك، أنتما الآن على عتبة أرض الذكريات، وحالما تدير الماسة سترى شجرة سامقة عليها لافتة فتفهم منهـــا أنك قد وصلت ولكن إياكما أن تنســيا العودة فى الساعة التاسعة إلا ربعًــا، هذا شىء فى غاية الأهمية، فاحرصــا قبل كل شىء على العودة فى الموعــد المحدد، وسيضيع كل شىء هبـــاء إذا تأخرتما، فإلى اللقاء إذن، [تنادى الهــرة والكلب وبسمة النور إلخ، إلخ] أنتم من هنا، والصبيان من هناك.

[تخرج من اليمين مع بسمة النــور وزمــرة الحيوان إلخ، إلخ.. ويخرج الصــبيان مــن اليسار].

[ستـــــــار]

المنظر الثالث

أرض الذكريات

[ضباب كثيف، على اليمين فى مقدمة المسرح جذع شجرة بلوط ضخمة، معلق عليها لافتة، الضوء كاللبن المسكوب، غامض غير شفاف. تيلتيل وميتيل عند جذع الشجرة].

هو : هذه هى الشجرة.

هى : وعليها اللافتة.

هو : عينى لا تستطيع قراءتها، انتظرى، سأصعد فوق هذه الجذور، نعم هى المقصودة حقاً، فمكتوب عيها "أرض الذكريات".

هــى : وهل تبدأ هذه الأرض من هنا.

هــو : نعم، هناك رسم سهم يشير إليها.

هــى : ولكن أين جدى وجدتى؟

هــو : من خلف الضباب، فالنصبر حتى نرى.

هــى : إنى لا أرى شيئًا، بل لم أعد أرى يدى وقدمى [بلهجة متباكية شاكية] أحس بالبرد يقرصنى، ولا أريد متابعة الرحلة، أريد أن أعود للبيت.

هــو : شدى حيلك، أهكذا دأبك، البكاء، كما تفعل صاحبتنا الماء، ألا تخجلين؟ فتاة شابة مثلك؟ انظرى، ها هو ذا الضباب ينقشع، وسنرى ما كان يخفيه عنا.

[يبدأ الضباب فعلاً فى التموج، فيرق ويشف، ويتبدد ويتبخر، ويحل محله ضوء يزداد سطوعه شيئًا فشيئًا، يتكشف تحت سقيفة من الأغصان بيت ريفى صغير ينطق بالبشر،

تغطيه نباتات متسلقة، النوافذ مفتوحة، وكذلك الباب، ونرى تحت عريشة خلايا نحل، وأصص زهر على حافة النوافذ، وقفصًا به شحرور أسود قد أغفى، وبجانب الباب دكة يجلس عليها شيخ وزوجه العجوز، كلاهما مستغرق فى نوم عميق هما الجد والجدة].

هو : [يعرفهما فجأة] هذا جدى، وهذه جدتى.

هى : [تصفق طربًا] نعم، هو جدى، وهذه جدتى.

هو : [وبعض الشك لا يزال يساوره] احذرى، فلسنا ندرى هل هما قادران على الحركة فلنختبئ وراء الشجرة.

[تفتح الجدة تيل عينيها وترفع رأسها وتتمطى وتتنهد، وترمق الجد تيل وهو ينفلت من قبضة النوم قليلاً قليلاً]..

الجدة : قلبى يحدثنى أن حفيدينا سيزورانا اليوم من عالم الأحياء، لاشك.

الجد : لاشك أننا خطرنا على بالهما بدليل خفقان قلبى وخدر ساقى.

الجدة : أظن أن وصولهما قد اقترب لأن دموع الفرح تتراقص أمام عينى.

الجد : كلا كلا، هم لا يزالان على بعد وإلا لدبت الهمة فى بدنى.

الجدة : أؤكد لك أنهما أصبحا بالقرب منا، فها هى قواى تعود إلى كلها.

هو وهى : [وهما يندفعان نحوهما من وراء الشجرة] ها نحن قد جئنا، ها نحن قد جئنا، يا جدى، يا جدتى. نحن حفيداكما، نحن حفيداكما.

الجد : ها هما قد وصلا. ألم أقل لك؟ كنت واثقًا أنهما سيحضران اليوم.

الجدة : تيلتيل، ميتيل حفيداى [تحاول النهوض لتسبقهم فى اللقاء] لا أستطيع الجرى فلم يفارقنى الروماتزم.

الجد : [يحاول الجرى وهو يعرج] وأنا أيضًا عاجز عن الجرى على ساقى الخشبية، أين هى من ساقى التى انكسرت يوم سقطت من على شجرة البلوط.

[يشترك الحفيدان والجدان فى عناق حار].

الجدة : شد ما قوى عودك ونما يا تيلتيل.

الجد : [وهو يربت على شعر ميتيل] وميتيل، انظرى إليها! بربك ما أجمل شعرها، وما أجمل عينيها، ثم شذى عرفها، ما أطيبه!

الجدة : هيا نتعانق مرة أخرى، تعالا اجلسا على حجرى.

الجد : وأنا؟ ألم يبق لى نصيب؟

الجدة : كلا كلا، أنا أولاً، كيف حال بابا وماما.

هو : على أحسن حال يا جدتى، كانا نائمين حين خرجنا.

الجدة : [وهى ترمقهما ولا تكف تربت عليهما] تالله ما أبهى جمالكما، وظرفكما ونظافتكما، وجواربكما غير ممزقة، قد كنت أنا من قبل أقوم برفوها، لماذا لا تواليان زيارتنا؟ فإن هذا يسرنا كثيرًا، امتد نسيانكما لنا شهورًا طويلة، ولم نعد نرى أحدًا منكما.

هو : لم نكن نقدر يا جدتى، وإذا كنا قد جئنا اليوم فذلك بفضل الجنية.

الجدة : نحن هنا دائمًا نترقب من الأحياء زيارة ولو قصيرة، إنهم لا يحضرون إلا نادرًا، فآخر مرة جئتما فيها.. دعونى أتذكر، متى كانت؟ نعم كانت فى عيد القديسين حين كانت أجراس الكنائس تدق أنغامها.

هو : عيد جميع القديسين؟ إننا لم نخرج ذلك اليوم بسبب الزكام.

الجدة : نعم ولكن زارنا فكركما.

هــو : نعم كنا نفكر فيكما.

الجدة : فى كل مرة تفكــران فينــا نســتيقظ ونراكما من جديد.

هــو : كيف؟ أيكفى أن..

الجدة : بلا ريب، أنت تعلم هذا..

هــو : كلا، لا أعلم.

الجدة : [للجد] ما أعجب حال أهل الدنيا! إنهــم لا يعرفون هذا! هــل عجــزوا عــن الإدراك..

الجد : كنا مثلهم فى عهدنا، ما أغبى حــديث الأحياء عن الراحلين.

هــو : أكنتما نائمين طول الوقت؟

الجد : نعم، نحن نبقى نائمين ننتظر أن يمــر ذكرنا ببال أحد الأحياء فنستيقظ، مــا أحلى النوم حين تولى الحياة ولكن ما أحلى اليقظة أيضًا بين الحين والحين.

هـو : فأنت لست بميت حقًا، وكذلك جدتى.

الجد : [وهو يفز] ماذا تقول؟ ماذا يقول؟ ها هو ذا ينطق بكلمات لم نعد نفهمها، أهـى كلمة مستحدثة أم اختراع جديد.

هـو : تعنى كلمة "ميت"؟

الجد : نعم هذه الكلمة ما معناها؟

هـو : معناها ينطبق على كل ما انتهت حياته.

الجد : ما أغباهم أهل الأرض.؟

هـو : أأنتم فى راحة هنا؟

الجد : لا بأس، لا بأس، وحبذا أيضًا لو أتيح لنا التدخين.

هـو : أغير مسموح لك به؟

الجد : نعم، التدخين مباح ولكنى كسرت غليونى*.

---

* نقلت هذه الفقرة من الترجمة الإنجليزية لأنها فى الأصل الفرنسى واردة على صورة لا تتسق مع بقية الحوار.

الجدة : سنكون بخير إذا أكثرتما من زيارتنا، أتذكر يا تيلتيل آخر مرة أعددت لـــك فيها فطيرة تفاح جميلة وكيف أفرطت فى الأكل منها حتى مرضت.

هـــو : لم آكل فطيرة تفاح منذ العام الماضى وليس لدينا تفاح هذا العام.

الجد : كفى هراء، التفاح موفور هنا.

هـــو : الأمر يختلف.

الجد : كيف يختلف؟ لا يختلـــف مـــا دمنـــا نتعانق.

هـــو : [وهو ينقل نظره بين الجد والجـــــدة] شكلك يا جـــدى لم يتغير، وكذلك جدتى، بل قد زدتما وسامة وجمالاً.

الجد : لا بأس بحالنا، لم نعد نتقدم فى العمر فنكبر، أما أنتما فما أسرع نموكما، إنه نمو مليح. التفت إلى البـــاب، عليـــه علامة قياس طولك آخر مرة، يوم عيد

جميع القديسين، فلننظر الفـرق، شـد
قامتك [تيلتيل يستند إلى البلاب ويشد قامته]
الفرقة أربعة أصابع، يا لها من طفرة
هائلة، [ميتيل تشد قامتهـا هـى الأخـرى]
وميتيل؟ أربعة أصابع ونصف أصبع،
ما أسرع نمـو النباتـات الشـيطانية،
عجبى لطولكما.

هـو : [يتأمل فيما حوله بمتعة وانبهـار] كل شىء
هنا باق كما كان، كـل شـىء فـى
موضعه، وإن ازداد جمالاً، هذه هـى
الساعة وعقربها الكبير الـذى كنـت
كسرت رأسه.

الجد : وهذا هو قدر الحسـاء الـذى كنـت
كسرت طرفه.

هـو : وهذا هو الخرم الذى أحدثته بالباب يوم
وقع المثقاب فى يدى.

الجد : نعم، ما كان أكثر اتلافك، وهذه هي شجرة البرقوق التى كنت تحب تسلقها حين أغيب.. إنها لا تزال تجود بثمر أحمر شهى.

هو : ولكنه ازداد جمالاً.

هى : وهذا هو الشحرور الهرم.. ألا يزال يُغنى.

[يستيقظ الشحرور وينطلق فى الغناء]

الجدة : أرأيت؟ إنه يغنى على الفور حين يمر ذكره ببال.

هو : [يلحظ بدهشة أن الشحرور لونه أزرق] إن لونه أزرق، إذن هو الطائر الأزرق الذى ينبغى أن آتى الجنية به، كيف سكتما عن إخبارى أنه عندكما. نعم. نعم. إنه أزرق اللون، يشبه الزرقاء من الحبات الزجاجية التى نلعب بها،

[يستعطف الجد والجدة] يا جدى، يا جدتى، هل لكما أن تسمحا بإعطائه لى.

الجد : نعم، ربما، ربما، ما رأيك يا ستى؟

الجدة : نعطيه ولا ريب، فما نفعه هنا. لا صنعة له إلا النوم، فلا نسمع له شدوًا.

هو : سأضعه فى قفصى، وى، أين هو قفصى؟ نعم، لقد نسيته خلف الشجرة. [يجرى إليها ويعود بالقفص ويحبس فيه الشحرور] أحقًا سمحتما به هديَّة لا تسترد؟ ستسر به الجنية. أما عن بسمة النور فلا تسألنى عن فرحتها حين تراه.

الجد : ليكن فى علمك أننى لا أضمنه، وأخشى أن لا يألف من أهل الأرض اضطراب حياتهم فيركب أول ريح يهب إلينا ويعود، على كل حال سنرى ماذا يكون من أمره، أما الآن فدعه إلى

حين، وتعال نلقى نظرة علـــى خلايـــا النحل*.

هـــو : [وهو يلحظ خلايا النحل]: وكيــف حـــال النحل.

الجد : لا بأس بحالهـــا، لعــل أهـــل الأرض يقـــولـــون عنهـــا ماتت أيضًا ولكنها لا تزال هنا تعمل بنشاط.

هـــو : [يقترب من الخلايا] نعم، إنى أشم رائحة العسل، لا ريب أن الخلايـــا عـــامرة، فكل الأزهار هنا جميلـــة، وشـــقيقاتى اللاتى متن، أهن هنا أيضًا.

هـــى : وأشقائى الثلاثة الذين واريناهم التراب. أين هم؟

[ما تكاد تنطق بهذه العبارة حتى ينفلت مـــن باب الكوخ واحدًا إثر آخر سبعة من الأولاد

---

* تلقى نظرة على البقرة، هكذا فى الأصل والترجمة الإنجليزية، وأظنها غلطة مطبعية للتشابه فى الفرنسية بين كلمة "بقرة، وكلمة خلايا" إذ لم يرد للبقرة ذكر فيما بعد.

يختلفون طولاً، يحمل كل منهم مزمار (بان) رمز الطبيعة بين أرباب الأغريق وهو لا يرسم إلا بمزمارة].

الجدة : ها هم أمامكما، حالما يمر ذكرهم ببالكما أو ينطق باسمهم لسانكما فإنهم يظهرون، ما أعز أولادى جميعًا.

[تيلتيل وميتيل يجريان للقاء إخوتهما ويشيع التزاحم والتعانق والرقص والدوران وهتافات الفرح].

هو : تعال يا بيرو، [ويشد كل منهما شعر أخيه] سنتعارك كما كنا نفعل فى الأيام الخوالى، وأنت يا روبير، أنعم صباحًا يا جان، أين نحلتك التى تلعب بها؟ مادلين، بيريت، بولين، ها هى ريكيت.

هى : ريكيت، ريكيت، إنها لا تزال تحبو على اليدين والقدمين.

الجدة : نعم، لم تكبر.

هــو : [يلحظ الكلب الصغير وهو ينبح حولهم] هــا هو كيكى، كنت قطعت ذيلــه بمقــص بولين. إنه لم يتغير أيضًا.

الجدة : [فى لهجة الحكيم] لا شىء يتغير هنا.

هــو : ولا يزال على أنف بولين دملها.

الجدة : إنه ضيق ثقيل، لا يرحل ولا نستطيع طرده..

هــو : ما أبدع صــحتهم وامــتلاء أبــدانهم وصفاء بشرتهم وتورد خدودهم لاريب أنهم ينعمون بطعام وفير.

الجدة : صحتهم تحسنت مذ فارقتهم الحياة فقد نجوا من معاناة الخــوف والمــرض والقلق.

[تدق الساعة فى الكوخ ثمانى دقات].

الجدة : [فى دهشة] ما هذا؟

الجد : لَعَمرى لست أدرى، لابــد مــن أنهــا الساعة.

الجدة : هذا مستحيل، إنها لم تدق قط من قبل.

الجد : نحن لم نفكر فى الساعة، فهل فكر فيها أحد منكما.

هـو : نعم، أنا، كم الساعة الآن.

الجد : لست أدرى وربى، لم نعد نبالى بالوقت، وقياسه، لقد دقت ثمانى مرات، لابد من أنها الساعة الثامنة فى حساب أهل الأرض.

هـو : إن بسمة النور تنتظرنى فى الساعة التاسعة إلا ربعًا، هذا هو أمر الجنية، إنه موعد مهم فلابد لى من أن أنصرف.

الجدة : أيرضيك أن تتركنا وقد حان موعد العشاء، فلنعد المائدة فورًا أمام الباب، من حسن الحظ أننى كنت أعددت من الكرنب حساءً بديعًا وكذلك فطيرة برقوق.

هــو : ولم لا ما دمتُ قد ظفــرت بالطــائر الأزرق، ثم إن حساء الكرنب لم أذقــه منذ عهد طويل فهذا هو حال المسافر مثلى، إنه طعام لا يقدم فى الفنادق.

الجدة : ها هو الحساء، قد تم إعداده، هيا إلــى المائدة يا أولادى، إن كنتم تســتعجلون الذهاب فلا تضيعوا الوقت.

[أشعلوا المصباح وقد حل المســاء وجلــس الأحفاد مع الجدين حول مائدة العشاء وهــم يتزاحمون ويلكز بعضهم بعضًــا ويتعــالى ضحكهم وصيحات فرحهم].

هــو : [يأكل بشراهة] ما ألذه من حساء، يا لــه من حساء لذيذ، مزيدًا منه، مزيدًا منه.

الجد : يا للعيب! اهدأ قليلاً، لا زلت كعهــدى بك سيئ الأدب، إنك ستكسر طبقك.

هــو : [ينهض نصف نهوض من على مقعده] أريد المزيد.

[يمسك بالقدر ويسحبها نحوه فيقلبها وينـــدلق الحساء فوق المائدة ويتساقط علـــى ركــب الأطفال ويحرقها فيصرخون من الألم].

الجدة : أرأيت؟ ألم أحذرك؟

الجد : [وهو يهوى على خد تيلتيل بصفعة رنانـــة] هذا جزاؤك..

هــو : [يتخاذل لحظة ثم يضع يده على خده متلذذاً] هكذا كانت صفعاتك حين كنت تضربنا وأنت حى بيننا، ما أبركها، وما ألذها، ينبغى أن أقبل اليد التى صفعتني..

الجد : طيب طيب، عندى منهـــا المزيـــد إذا أحببت.

[تدق الساعة النصف بعد الثامنة].

هــو : [وهو يفز] الثامنـــة والنصـــف، [يقــذف بالملعقة] هيا، لم يبق أمامنا إلا الوقـــت الذى يلزمنا.

الجدة : أيجمل بك هذا، اصبر بضع دقائق، فبيتكم لم يندلع فيه حريق، نحن لا نراكما إلا نادرًا.

هو : كلا، لا أستطيع فإن بسمة النور طيبة القلب، وقد وعدتها، هيا يا ميتيل، هيا.

الجدة : عجبى للأحياء، لا يخرج من يدهم إلا إزعاج الغير، متعللين بأشغالهم واضطراب أيامهم.

[يأخذ تيلتيل القفص ويدور على الجميع يعانقهم بعجلة].

هو : الوداع يا جدى، الوداع يا جدتى، الوداع يا إخوتى وأخواتى، بيرو، روبير، بولين، مادلين، ريكيت وأنت أيضًا يا كيكى، إن مقامنا بينكم قد آذن بالانتهاء، لاتبك يا جدتى، سنأتى لزيارتكم مرارًا.

الجدة : تعال كل يوم ومعك أختك.

الجد : نعم، نعم، سنعود ما أمكننا.

هـو : هذا هو كل ما بقى لنا من أسباب الفرح، ويوم يمر ذكرنا بالكما هو عندنا يوم عيد.

الجد : هذه هى تسليتنا الوحيدة.

هـو : البدار! البدار! أين القفص؟ أين الطائر؟

الجد : [يعطيه القفص] ها هو ذا، ليكن مفهومًا أننى لست ضامنه ولا ضامن صدق لونه.

هـو : الوداع، الوداع.

الإخوة والأخوات : الوداع يا تيلتيل، الوداع يا ميتيل، لا تنسيا أن تجيئا لنا بحلوى، عودا إلينا، عودا إلينا.

[يلوح الجميع لهما بمناديلهم على حين يبتعد الصبيان ببطء ويحدث فى أثناء الفقرات الأخيرة من الحوار السابق أن الضباب الذى

شاهدناه فى مطلع المنظر يعود فينعقد وتخفت الأصوات وتختفى المرئيات كلها إلا تيلتيـل وميتيل وهما واقفان والستار يهم بالنزول عند شجرة البلوط الضخمة].

هـو : من هنا الطريق يا ميتيل.

هـى : أين بسمة النور؟

هـو : لست أدرى، [ينظر إلى الطائر فى القفص] عجبى! لم يبق له لونه الأزرق، أصبح أسود اللون.

هـى : خذ بيدى فأنا فى شدة الخوف والبرد.

[ستـــــار]

الفصل الثالث

المنظر الرابع: قصر فحمة الليل

[بهو فسيح رائع، له فخامة تنطق بالجد والصرامة ووقار الأضرحة، واشتركت مختلف المعادن فى إقامته، يخيل لرائيه أنه بإزاء معبد إغريقى أو فرعونى، أعمدته وعقودها وكذلك زينته وكساء أرضه من المرمر الأسود، والذهب والأبنوس، البهو على هيئة مستطيل ضلعاه الأفقيان متوازيان والأمامى أطول من الخلفى، وضلعاه الجانبيان غير متوازيين، درجات السلم الذى يتسلقه تكاد تشغل عرضه كله، وتقسمه إلى ثلاثة مسطحات تؤدى إلى غيابته، الواحد منها يرتفع عن سابقه قليلاً، بين الأعمدة على اليمين واليسار أبواب من البرونز الداكن، وفى وسط البهو من ناحية الخلف باب ضخم من النحاس، لا يعم البهو إلا ضوء غامض كأنه مستمد فى أغلبه من بريق المرمر والأبنوس، ونرى عند رفع الستار "فحمة الليل" على هيئة امرأة رائعة الجمال ترتدى ثوبًا أسود طويلاً، جالسة على درج المسطح الثانى، يحف بها طفلان، أحدهما يكاد يكون

عاريًا شأن كيوبيد رسول الحب عند الإغريق أما ثانيهما فواقف جامـدًا، تغطيه غلالة من رأسه إلى أخمصيه، تدخل الهرة من على اليمـين فـى مقدمة المسرح].

فحمة الليل : من القادم؟

الهرة : [وهى تتهاوى من الإعياء على درج السـلم المرمرى] أنا يا أمى، قد هدنى التعب.

فحمة الليل : ماذا بك يا بنيتى، لقـد بـدا عليـك الشحوب والهـزال وتلطـخ بـالطين جسدك حتى شـواربك فهـل عـدت للعراك على الأسطح بين المزاريـب تحت الثلج والمطر؟

الهرة : ليس الشأن شأن أسطح ومزاريب، بل شأن جلل يهدد السر الذى بيننا. لقـد نجحت فى الهرب لحظة لأطير إليـك بالخبر، ولكن يخشى أن يكون الأمر قد خرج من يدنا.

فحمة الليل : ماذا تقولين؟ ما الذى حدث؟

الهرة : سلف لى أن حدثتك عن تيلتيل ابن الحطاب وعن الماسة السحرية، إنه سيحضر إليك ليطلب منك الطائر الأزرق.

فحمة الليل : دعيه يجرى وراءه.

الهرة : ولكنه سيظفر به عما قريب إن لم نصنع معجزة، سأقص عليك ما جرى، إن بسمة النور التى تقود خطى تيلتيل وتخوننا جميعًا قد انضمت قلبًا وقالبًا إلى صف الإنسان، وقد علمت بسمة النور أن الطائر الأزرق الصادق لا الزائف والوحيد الذى يقوى على العيش فى ضوء النهار مختبئ هنا بين أشباهه فى اللون من طيور الأحلام التى تستمد غذائها من ضوء القمر وتموت حالما ترى الشمس، وبسمة

النور على علم بأن اجتياز عتبة هـذا القصر محرم عليها ولكنهـا سترسـل الصبيين بدلاً منهـا، وإذا كنـت أنت لا تستطيعين صد الإنسان عن فتح أبـواب أسرارك فلا أدرى ما الحال. لأنـه إذا حلت النكبة وفاز الصـبيان بالطـائر الأزرق فلا سبيل لنا إلا أن نختفى.

فحمة الليل : يا إلهى، يا إلهى، ماذا جرى للـدنيا؟ فى أى زمن أصبحنا نعيش؟ لم أعـد أنعم بالراحة لحظة واحدة وعجزت فى السنوات الأخيرة عن فهم الإنسان. ما غرضه؟ أحتم له أن يعرف كل شىء؟ لقد نجح إلى اليوم فى أن يهتـك مـن أسرارى ثُلثَها، فالمخاوف التى أطلقها أصبحت بدورها خائفـة، ولا تجـرؤ على الخروج للناس، والأشباح التـى

استخدمها قد هربت وأغلب الأمراض
التى أنشرها قد أقعدتها العلل.

الهرة : أعلم هذا يا أمى فحمة الليل. وأعلم أن الزمن عصيب، إننا نكاد ننفرد وحدنا فى خـوض غمـار المعركـة ضـد الإنسان، ولكن ها أنذا أسـمع خطـو الصبيين يقـترب، فلا أجـد أمامنـا إلا حلا واحدًا ينبغى – لأنهمـا فـى مرحلة الطفولة – أن نقذف فى قلبيهما من الرعب ما يسلبهما الشجاعة علـى المضى فى سبيلهما أو على فتح الباب الكبير فى نهاية البهو للوصـول إلـى طيور القمر التى تختفى وراءه. أمـا أسرار بقية الكهوف فهى كفيلـة بـأن تزيغ بصرهما أو تزلزل من الرهبـة قلبيهما.

فحمة الليل : [وهى تسترق السمع إلى ضجة فى الخارج] ماذا أسمع؟ إن القادمين أكثر من اثنين.

الهرة : لا تخشى شيئًا، إنهم أصدقاؤنا، الرغيف وقمع السكر، أما الماء فقد أقعدها المرض والنار عاجزة عن المجيء لأنها تمُتّ بنسب إلى بسمة النور أما الكلب فهو وحده الذى ليس من حلفائنا، وهيهات لنا أن نهرب من ملاحقته.

[تيلتيل وميتيل والرغيف وقمع السكر والكلب يدخلون بتهيب من اليمين عند مقدمة المسرح].

الهرة : [تسارع إلى التقدم للقاء تيلتيل] من هنا، من هنا، يا سيدى الصغير، لقد أنبأت فحمة الليل بمقدمكم وقد سرها كل السرور أن تستقبلكم، واعذروها إذا

هى لم تسارع إلى باب القصر للحفاوة بكم فإن بها وعكة خفيفة.

هـــو : طاب صباحك سيدتى فحمة الليل.

فحمة الليل : [بصوت محنق] طاب صباحى؟ هذا كلام لا أستسيغه، وكان ينبغـــى أن تقـــول "طابت ليلتك" أو على الأقـــل "طـــاب مساؤك".

هـــو : [وهو خجل من ذنبه] عفوًا سيدتى، كنـــت أجهل هذا [يشير بأصـــبعه إلـــى الطفلـــين الملازمين لفحمـــة الليـــل] أهمـــا ابنـــاك الصغيران؟ ما ألطفهما.

فحمة الليل : نعم، الأول هو السبات.

هـــو : ولماذا هو جد سمين؟

فحمة الليل : لأنه يشبع من النوم.

هـــو : وهذا الآخر المتستر. لمـــاذا يحجـــب وجهه؟ ما علته؟ ما اسمه؟

فحمة الليل : إنها بنت، هى أخت السبات ومن الخير أن لا أذكر اسمها.

هو : ولماذا؟

فحمة الليل : لأن اسمها تنفر منه الأذان، دعنا نتكلم فى مسألة أخرى، لقد أنبأتنى الهرة أنك جئت تبحث عن الطائر الأزرق.

هو : نعم سيدتى، فهل لك إن أذنت أن تخبرينى أين هو؟

فحمة الليل : لا أعرف عنه شيئًا، يا صديقى العزيز، غاية ما أستطيع أن أؤكد لك أنه ليس موجودًا هنا وأننى لم أره قط.

هو : لا. لا. لقد أخبرتنى بسمة النور أنه هنا. وهى على ما تقول أمينة، فهل لك أن تعطينى مفاتيحك.

فحمة الليل : ولكن يا صديقى الصغير أنت تدرك ولا ريب أننى لا أستطيع أن أسلم مفاتيحى لأول قادم. فإنى قيمة على كل

أسرار الطبيعة وأنا مسئولة عنها. وحرم على كل التحريم أن أعهد بمفاتيحى إلى أحد فما بالك إذا كان طفلاً.

هـو : ليس لك الحق فى حجزها عن الإنسان إذا طلبها، إنى على علم بهذا.

فحمة الليل : من الذى قال لك؟

هـو : بسمة النور.

فحمة الليل : بسمة النور مرة أخرى، بسمة النور دائمًا أبدًا، ما دخلها فى هذا؟

الكلب : أتحب يا مولاى الصغير أن أنتزع منها المفاتيح عنوة؟

هـو : الزم الصمت والهدوء وحسن الأدب [إلى فحمة الليل] لا داعى للجدل سيدتى، اعطنى المفاتيح من فضلك.

فحمة الليل : هل لديك العلامة على الأقل، أين هى؟

هـو : [يلمس قمة القلنسوته] أترين الماسة؟

فحمة الليل : [وقد أسقط فى يدها] أمرك، هـا هـو ذا مفتاح كل أبواب البهو، ننبك على جنبك، إذا أصابك شر. فإنى بريئة مما يحدث لك.

الرغيف : [فى قلق شديد] أثمة أخطار؟

فحمة الليل : أخطار؟ غاية القول أننى أنا نفسى لا أدرى كيف أسلم حين تنشق بعض هذه الأبواب البرونزية عن الهوة، وراءها، فهناك حول البهو فى كل كهف من كهوف البازالت مجمع كل علة وكل بلاء وكل مرض وكل أنواع الرعب وكل المحن والأرزاء، وكل تدبير خفى تعانى منه الحياة. منذ الخليقة وليس إلا ببذل غاية الجهد إن استطعت حبسها فى مخابئها بعون من "القدر"، وأؤكد لك أننى أجد أكبر المشقة فى أن أفرض شيئًا من النظام على هذه

الكائنات الهوج المتمردة، فأنت سترى رأى العين ماذا يحدث حين يهرب أحدها وينفلت إلى سطح الأرض.

الرغيف : إن تطاول عمرى وتجربتى وإخلاصى تؤهلنى بطبيعة الحال لأن تسند إلى حماية هذين الصبيين، من أجل هذا، سيدتى فحمة الليل، اسمحى لى أن أوجه إليك سؤالاً.

فحمة الليل : هاته.

الرغيف : إذا حاق بنا خطر فمن أى ناحية نهرب؟

فحمة الليل : لا وسيلة للهرب.

هـو : [يأخذ المفتاح ويصعد أول الدرج] لنبدأ من هنا، هذا الباب البرونزى ما وراءه؟

فحمة الليل : وراءه الأشباح فيما أعتقد لقد مضى زمن طويل منذ أن خرجوا حين فتحت لهم الباب آخر مرة.

هــو : [يضع المفتاح فى القفـل] سـأرى [إلـى الرغيف] قفص الطـائر الأزرق. أيـن هو؟

الرغيف : [أسنانه تصطك] لا أقـول هـذا لأنـى خائف ولكن ألست ترى من الأفضـل أن لا نفتح الباب وأن نكتفى باختلاس نظرة من ثقب القفل؟

هــو : لم أطلب مشورتك.

هــى : [تنفجر بالبكاء فجـأة] أنا خائفة. أين قمع السكر؟

قمع السكر : [يقترب منها وهو مهموم لها ومُحتف بهـا] إننى هنا بجانبك يا آنسـتى، كفكفـى دمعك، سأقطع أحد أصـابعى وأهبـك حلوى نبوت الخفير.

هــو : فضوها وخلصونا.

[يدير المفتاح فى القفل ويجذب الباب بحـذر وحالما يفعل تنفلت خمسة أو ستة أشباح لكل

منها هيئة عجيبة تختلف عن هيئة الآخر، وتنتشر في كل جانب، يُلقى الرغيف من الرعب بالقفص ويختبئ في غيابة البهو وتقوم فحمة الليل بمطاردة الأشباح وهى تصرخ في وجه تيلتيل].

فحمة الليل : أسرعوا أسرعوا، أغلقوا الباب وإلا خرجوا جميعًا ولم نستطيع أن نقبض عليهم. إنهم فى محبسهم يعانون الملل منذ ألِف الإنسان أن يهزأ بهم [تطارد الأشباح وتحاول أن تسوقهم إلى باب محبسهم مستعينة بسوط على شكل أفعى] أعينونى، أعينونى، من هنا، من هنا.

هو : [إلى الكلب] أعنها يا تيلو، هيا.

الكلب : [وهو يقفز وينبح] نعم. نعم. نعم.

هو : الرغيف، أين هو؟

الرغيف : [من مخبئه في غيابة البهو] إنني هنا، بجانب الباب حتى أمنع بقيتهم من الخروج.

[وحين يتقدم أحد الأشباح إلى ناحيته نراه يهرب منه جريًا وهو يطلق صيحات مرتعبة].

فحمة الليل : [إلى ثلاثة أشباح قبضت على أعناقهم] أما أنتم فمن هنا، [إلى تيلتيل] وارب الباب قليلاً، [تدفع بالأشباح إلى الكهف] لا خير من بقائهم هناك، [الكلب يسوق شبحين آخرين إلى المحبس] هيا ادخلا أنتما أيضًا، أنتم تعلمون أن لا خروج لكم إلا يوم عيد جميع القديسين [تقفل الباب].

هو : [يذهب إلى باب آخر] وماذا وراء هذا الباب!

فحمة الليل : وما جدوى بحثك؟ لقد قلت لك إن الطائر الأزرق لم يأت هنا قط، ولكن

الأمر أمرك، افتحه إن كان هذا يروقك. ستجد من ورائه الأمراض.

هـو : [والمفتاح فى القفل] أينبغى الاحتراس منها حين أفتحه؟

فحمة الليل : لا تتعب نفسك، إنها يا ولداه صغيرة مسكينة هادئة مستخذية لا تعرف طعم السعادة فإن الإنسان يشن عليها منذ زمن غاراته العنيفة وبالأخص منذ أن اكتشف الميكروب، فافتح إذن لترى بنفسك.

[تيلتيل يفتح الباب على مصراعيه فلا يرى شيئًا].

هـو : أهم لا يخرجون!

فحمة الليل : لقد سلف لى أن أخبرتك، فأغلبها قد أقعدته العلة وقلة الهمة، لأنها لم تجد فى قلوب الأطباء أقل ذرة من الرحمة، فادخل لحظة فسترى بعينك.

هــو : [ما يكاد يدخل حتى يخرج] لم أجد الطائر الأزرق، إن الأمراض بادية العلة لــم تقو حتى على رفع رءوسها.

[مرض صغير فى مباذله من ثياب المنــزل خف وعباءة وطاقية من القطن يخرج ويذرع البهو جيئة وذهابًا].

هــو : انظروا، هذا مرض صغير قد هرب، مَنْ هو؟

فحمة الليل : إنه أصغرهم ولا خطــر لــه، هــو الزكام. إنه أقلهم لقــاء للاضــطهاد، وأوفرهم عافية. [تنادى الزكام] تعال هنا يا ولدى، قد بكرت فى الخروج قبــل أوانك، ينبغى لك أن تنتظــر حلــول الربيع.

الزكام : يعطس ويسعل ويمسح أنفه ويعود إلى الكهف فيغلق تيلتيل بابه.

هــو : [يتجه إلى الباب المجاور] لنر حكايته، وما وراء هذا الباب؟

فحمة الليل : احترس. وراؤه الحروب، إنها بلغــت اليوم ما لم تبلغه من قبل من الضراوة والعنفوان، الله وحده يعلم ماذا عســى أن يحدث لو هربت واحدة منها ولكنها لحسن الحظ مفرطة البدانة مــن أثــر التخمة، ثقيلة الحركة، فلنتساند جميعًــا ونستعد لصد الباب وأنت تواربه لتلقى نظرة عجلى إلى ما وراؤه.

[تيلتيل يأخذ كل حذره وهو يــوارب البــاب بحيث لا ينفرج إلا بأقل قــدر يتــيح لــه أن يصوب من خلاله نظره، فما يكاد يفعل حتى يقوس ظهره من شدة الجهد وهو يصد الباب ويصرخ].

هــو : أسرعوا أسرعوا أســرعوا، صــدوا الباب فى وجوههم، قد رأتنى فأقبلــت هاجمة على الباب تريد أن تقتحمه.

فحمة الليل : هيا بنا جميعًا نصد عليها الباب بقوة، وأنت يا رغيف، ماذا دهــاك؟ مــاذا تفعل؟ تعال معنا نصد الباب جميعًا فما أشد قوتها، ها قد نجحنــا، إنهــا قــد استسلمت، جاء نجاحنــا فــى آخــر فرصة، [إلى تيلتيل] أرأيت؟

هــو : نعم، ما أشد ضــخامتها ومــا أبشــع منظرهــا، لا أظــن الطــائر الأزرق عندها.

فحمة الليل : لا ريب أنه ليس عندها، وإلا لكانــت التهمته على الفور، هل قنعــت الآن؟ ألست ترى أن لا جدوى من بحثك؟

هــو : ينبغى أن أرى كل شىء، هــذه هــى وصية بسمة النور إلىّ.

فحمة الليل : وصية بسمة النور! ما أسهل الكلام على مَنْ يخاف ويقبع فى داره.

هـو : فلنمض إلى الباب المجاور. ما خبره؟

فحمة الليل : إننى أحبس وراءه أصناف الدياجير والرعب.

هـو : هل أستطيع أن أفتح الباب؟

فحمة الليل : كل الاستطاعة، فإنها على شيء من الهدوء، شأن الأمراض.

[تيلتيل يفتح الباب بتوجس ويجازف بنظره إلى ما وراءه].

هـو : لا أرى شيئًا. إنها ليست وراء الباب.

فحمة الليل : [تنظر بدورها إلى الكهف] يا بنات الدياجير، ماذا تفعلن فلتخرجن إذن قليلاً، ففى الخروج متعة لكن تفك عنكن تجمد أوصالكن، ويا بنات الرعب، لا تخشين شيئًا.

[تخرج بنات الدياجير وبنات الرعب، الجماعة الأولى فى ثياب سود، والجماعة الثانية فى ثياب يميل لونها إلى الاخضرار، ويتلمسن بمذلة خطوة لهن قصيرة خارج الباب فإذا صدرت من تيلتيل حركة غير متعمدة يسرعن إلى دخول الكهف].

فحمة الليل : ماذا أصابكن، تجلدّن قليلاً، فليس هو إلا صبى لا يخرج من يده إيذاؤكن، [إلى تيلتيل] قد بلغ التهيب عندهن ذروته، اللهم إلا كبرياتهن اللاتى تبصرهن فى غيابة الكهف.

[تيلتيل يصوب نظره إلى غيابة الكهف].

هو : ما أبشع منظرهن.

فحمة الليل : إنهن مقيدات بالسلاسل، هن وحدهن اللائى لا يخفن من الإنسان، أقفل الباب وإلا ثار غضبهن.

هو : [ينتقل إلى الباب المجاور] هذا باب يخيم عليه الظلام، ما خبره؟

فحمة الليل : وراءه أصناف من الأسرار، فإذا لم تعدل عن إصرارك فلك أن تفتح الباب ولكن إياك أن تدخل، وكن أشد حذرًا، ولنستعد نحن جميعًا لصد الباب عليها كما فعلنا مع الحروب.

[تيلتيل يوارب الباب بحذر شديد ويمد بخوف رأسه من خلال الفرجة].

هـو : وى، ما أشد البرودة، إنها تلسع عينى، أسرعوا إلى الباب فأغلقوه، صدوه لإحباط جهد من يدفعه، [فحمة الليل والكلب والهرة وباقى الزمرة يصدون الباب] آه، رأيت..

فحمة الليل : ماذا رأيت؟

هـو : [وهو مضطرب] لا أدرى، إنه شىء مرعب، كن جميعًا جالسات كالأصنام التى لا عيون لها. من كان هذا العملاق الذى أراد إمساكى؟

فحمة الليل : أظنه هو الصمت لأنه حارس هذا الباب، لا ريب أنك رأيت شيئًا مرعبًا فما زلت لا يفارقك شحوبك وارتعاشك.

هـو : نعم، رأيت شيئًا لم أكن أتصوره، شيئًا لم يصادفنى قط من قبل، إن يدى قد جمدتا من الصقيع.

فحمة الليل : سيحيق بك عما قريب بلاء أشد إذا مضيت فى بحثك.

هـو : [ينتقل إلى الباب المجاور] وهذا الباب.. أمن ورائه أيضًا شىء مخيف؟

فحمة الليل : كلا، وراءه خليط من أشياء كثيرة، إنى أحتفظ وراءه بالنجوم الخامدة، وعطورى المفضلة، وبعض أصناف من الوميض الذى أختص به وحدى كوميض السعالى ووميض الدود المنير

والبراعة المضيئة وأضم إليها أيضًا قطر الندى وأغنية البلبل وما إلى ذلك.

هـو : نعم قصدى أن أرى النجوم الخابية وأغنية البلبل كما تزعمين، لا ريب أن هذا هو بابها.

فحمة الليل : افتحه إن شئت فليس لمن وراءه شر يصيب أحدًا.

إتيلتيل يفتح الباب على مصراعيه وما يكاد يفعل حتى تنفلت النجوم من المحبس على هيئة فتيات رائعات الجمال، يجللهن وميض منوع الألوان، وتنتشر فى البهو وتؤلف على الدرج وحول الأعمدة حلقات ذات ظرف وحسن، يغمرهن ضوء مثل ضوء الغسق، ثم تبدأ فى رقصة دائرية، وتنفلت أيضًا عطور فحمة الليل على هيئة أطياف رقت حتى تكاد العين ألا تراها، وينفلت كذلك وميض السعالى والبراعة المضيئة وقطر الندى الشفاف وتنضم إلى سابقاتها، على حين

تنبعث من الكهف أغنية البلبل وتجوب أرجاء قصر فحمة الليل].

هـــى : [وهى تصفق بانبهار] ما أجملهـــن مـــن فتيات.

هــو : وما أبرع رقصهن!

هـــى : وما أطيب عرفهن!

هــو : وما أحلى غنائهن.

هـــى : ومن هى هــذه الأطيــاف التى تكاد ألا نراها.

فحمة الليل : هى عطور ظلالى.

هــو : وهاتيك اللاتى يشبهن سبائك النــور الصافى، من هن؟

فحمة الليل : إنهن جماعة قطر الندى الذى تألفـــه الغابات والسهول ولكن آن للهوهن أن ينقضى، سيتمادين فيه فلا يفرغ منه أبدًا، إنهن إذا أخذن فى الرقص فلـــن أفلح إلا بعد مشقة بالغة فى سوقهن إلى

المحبس من جديد [تدعوهن إلى الانصراف بدق كف على كف] هيا هيا أسرعن يا نجوم ليس هذا أوان الرقص فالسماء قد حجبتها سحب كثيفة، هيا هيا أسرعن ارجعن جميعًا، وإلا ذهبت أتصيد شعاعًا من الشمس.

[النجوم والعطور تهرب فى رعب وتهرع إلى الكهف فينقفل عليها الباب وتنقطع أغنية البلبل].

هـو : [يتجه إلى الباب الكبير فى غيابة البهو] هذا هو الباب الكبير، باب وسط البهو.

فحمة الليل : [بجد] لا تفتح هذا الباب.

هـو : لماذا؟

فحمة الليل : لأن فتحه محرم.

هـو : إذن فالطائر الأزرق مختبئ وراءه، هذا ما قالته لى بسمة النور..

فحمة الليل : [تكلمه بحنان الأم] أنصت يا بنى، لقـد عاملتك بطيبة ومجاملة، وفعلت لك ما لم أفعله هنا لأحد من قبلك، كشفت لك عن أسرارى، لأننى أحبك وأشفق على صباك وبراءتك، وها أنذا أكلمك كلام أم لوليدها، أنصت إلى، صـدقنى يـا بنى، كف عن بحثك ولا تمض فيـه، وإياك أن تتحدى القـدر فتفـتح هـذا الباب.

هـو : [وقد تزعزع كثيرًا] ولكن لماذا؟

فحمة الليل : لأنى لا أحب لك أن تهلك، لا أحـد، اسمع كلامى، لا أحد ممن فتحوا هـذا الباب ولو بمقدار شعرة رجـع حيًّـا لضوء النهار، فإن كل مـا يتصـوره العقل من أصناف المخاوف وكل أنواع الهلع، وكل ما يتحـدث عنـه أهـل الأرض من الأهـوال البشعة المنكرة

لا تعد شيئًا مذكورًا إذا قيست حتى بأهون ما يهاجم الإنسان منها إذا ما لمحــت أول نظــرة له حــافة الهــاوية التى لا يجرؤ أحد على تسميتها، ينبغى اتقاء هذا الباب، حتى أنا، إن بقيت أنت على إصرارك رغم كل تحذير لن أجســر على التصدى لهذا الباب ولو بلمسة من طرف أصبعى، فــأرجوك أن تصــبر حتى ألوذ ببرج لى منيع ليس به نوافذ، الأمر الآن بين يــديك، وفــق عقلــك وتفكيرك.

هـــى : [تنفجر باكية وتتوالى من الرعب صرخات لها لا يبين فى طيها كلامها وتجاهد فى جــر تيلتيل].

الرغيف : [أسنانه تصطك] لا تقــدم يــا ســيدى الصغير [يركع أمامه] رحمة بنا، إننـــى

أتوسل إليك وأنا راكع أمامــك، أنــت
ترى أن فحمة الليل على حق.

الهرة : إن حياتنا جميعًا هى التى تضحى بها.

هــو : لا مفر من أن أفتح الباب.

هــى : [بدنها ينتفــض من النشــيج] لا أريــــد،
لا أريد.

هــو : ليأخذ كل من الرغيف وقمع الســكر
أختى ميتيل من يد للهرب معها فــإنى
عامدٌ إلى فتح الباب.

فحمة الليل : ليهرب مــن قــدر، ســارعوا إلــى
الخروج، فقد آن الأوان.
[تهرب فحمة الليل].

الرغيف : [يهرب فى ذعــر] انتظر حتى نبلغ على
الأقل باب البهو.

الهرة : [تهرب أيضًا] انتظر، انتظر.

[يختبئون وراء الأعمدة فى الطرف الأدنى من البهو ويبقى تيلتيل وحده مع الكلب بجانب الباب الكبير].

الكلب : [يلهث ويلحقه الفواق وهو يجاهد فى كتم هلعه] أما أنا فسأبقى، سأبقى، لست بخائف، سأبقى، سأبقى إلى جانب مولاى الصغير سأبقى، سأبقى.

هو : [يربت عليه] أحسنت، أحسنت، تعال يا تيلو قبلنى، ها نحن قد أصبحنا لا ثالث لنا فلنتجلد، وإلا فالويل لنا.

[يضع المفتاح فى القفل فتبعث صرخة رعب من الطرف الأدنى للبهو حيث لاذ الهاربون، وما يكاد المفتاح يلمس القفل حتى ينشق الباب الكبير من وسطه وينزلق مصراع إلى اليمين ومصراع إلى اليسار ويختفيان داخل جدار الباب فتتبين فجأة حديقة مدهشة كأنما أبدعتها أروع الأحلام وجللتها بضياء الغسق، جاوزت فى جمالها حد كل تصديق وكل قيد

وكل وصف بالكلام، تحلق بها خلال الكواكب والنجوم سروب من طيور زرق كأنها الحور تضيء كل شيء تلمسه وهى لا تنفك في طيرانها تلم بجوهرة إثر جوهرة وتنتقل من شعاع إثر شعاع من أشعة القمر، وهى تحوم دوامًا وفى انسجام حتى تبلغ حد الأفق، أصبحت من كثرتها يُظن أنها أنفاس هذه الحديقة المدهشة وسماؤها الزرقاء، بل يظن أنها هى الحديقة ذاتها، تيلتيل واقف يغمره ضوء الحديقة وهو منبهر في ذهول].

هو : ما أبدعها من سماء [يلتفت ناحية الهاربين] أسرعوا، تعالوا، الطيور الزرق هنا، بعينها وذاتها، لقد فزنا بها أخيرًا، آلاف من الطيور الزرق، بل ألف ألف منها، عندنا منها هنا أكثر من مطلبنا بكثير، تعالى يا ميتيل، تعال يا تيلو، تعالوا جميعًا، أعينونى [يندفع نحو الطيور] إنها فى متناول اليد. طيعة

لا ترهبنا، تعالوا من هنا [تسرع إليه ميتيل يرافقها الآخرون ويدخلون إلى الحديقة المدهشة ولا تتخلف عنهم إلا فحمة الليل والهرة] انظروا، انظروا، ما أوفر عددها، إنها تتهاوى على أكتافنا، انظروا، إنها تأكل ضوء القمر، ميتيل، أين أنت إذن، من كثرة الأجنحة الزرق وريشها المتساقط أصبحت لا أتبين شيئًا سواها، إياك أن تعضها يا تيلو، لا تؤذها تناولها برفق.

هـي : [تحف بها الطيور الزرق] اقتنصت سبعة منها. كم تصفق أجنحتها، إن يدى لا تفلح فى القبض عليها.

هـو : وأنا كذلك، فقد أمسكت منها بعدد أكثر من ملء يدى، ها هى قد هربت، ها هى قد عادت، تيلو كذلك قد أمسك ببعضها، إنها تجرفنا معها وتكاد

تحملنا إلى السماء، تعالوا نخرج من هنا، إن بسمة النور تنتظرنا، ما أشد سرورها حين ترى غنيمتنا، من هنا، من هنا.

[يغادرون الحديقة فى لهفة وأيديهم ملأى بطيور زرق تصفق أجنحتها ويخترقون البهو وسط موجة من أجنحة مضطربة ويخرجون من ناحية اليمين من حيث دخلوا من قبل، وراءهم الرغيف وقمع السكر ولم يمسك أحدهما بطائر. وتبقى فحمة الليل والهرة وحدهما فتصعدان إلى غيابة البهو تتأملان الحديقة بقلق].

فحمة الليل : أتراهم قد فازوا بالطائر الأزرق؟

الهرة : كلا، فإنى أراه فوق شعاع من أشعة القمر لم تطله أيديهم لأنه جاوزها بارتفاعه.

[وتهبط الستار فلا تلبث أن تدخل بسمة النور من اليسار أمامها فى عين الوقت الذى يدخل

فيه من اليمين تيلتيل وميتيل والكلب وهم يندفعون وأيديهم مثقلة بالطيور الزرق ولكنها أصبحت جثثًا هامدة، رءوسها متدلية وأجنحتها. محطمة].

بسمة النور : هل ظفرتم بطائر أزرق؟

هو : نعم، نعم، بقدر ما نود، بل بألف منه إن شئنا، ترحل هى ذى أمامك، هل ترينها؟ [ينظرون إلى الطيور وهم يمدون بها إلى بسمة النور فيتبينون أنها فارقت الحياة] ماذا جرى، إنها ماتت، ماذا فعلوا بها؟ طيورك أنت يا ميتيل، أميتة هى أيضًا طيور تيلو ميتة كذلك [يلقى وهو محنق بجثث الطيور] مستحيل أن أصدق، يا للبشاعة! من الذى قتلها، إننى جد تعيس. [يخفى رأسه فى إبطه وينتفض بدنه بالنشيج].

بسمة النور : [تحضنه بحنان الأم] لا تبك يا بنى، إنــك لم تمسك بالطائر الأزرق الذى يقــوى على العيش فى ضوء النهار. لقد أفلت منا، ولكننا سنجده ولا ريب.

الكلب : [يتأمل جثث الطيــور] أتصــلح للأكــل؟

[يخرجون جميعًا من اليسار].

[ستــــــار]

المنظر الخامس

الغــابة

[الغابة، والوقت ليل، والقمر مضيء، وأشــجار هرمــة مــن أصناف مختلفة، من أبرزها شجرة سنديان، وزان، ودردار، وحور، وصنوبر، وسرو، وزيزفون، وقسطل إلخ.. إلخ..].

[تدخل الهرة].

الهرة : [وهى تحنى رأسها بالتحية والتوقير أمام كل شجرة] إلى كل شــجرة هنــا، تحيــة وسلامًا.

الأشجار : [وأوراقها تهمس] تحية لك وسلامًا.

الهرة : يومنا هذا يوم أغر، فإن عدونا سيأتى ليفك عقالكن ويسلم إليكن رقبته، إنــه تيلتيل ابن الحطاب الذى طالما نــالكن

بالأذى، إنه يبحث عن الطائر الأزرق
الذى تخفينه عن الإنسان منذ بدء
الخليقة، والذى يعلم وحده سرنا، [همس
أوراق الشجر] ماذا تقلن؟ آه، إنه يملك
الماسة السحرية التى تكشف عن
سريرتنا، إنه قد يرغمنا على أن ندفع
له بالعصفور الأزرق، ونصبح جميعًا
بعدئذ أسرى فى قبضة الإنسان وتحت
رحمته، [همس أوراق الشجر] من تتكلم؟
أنت يا شجرة السنديان؟ وكيف حالك؟
[همس أوراق شجرة السنديان] لا يفارقك
الزكام أبدًا؟ هل كف الليمون عن
علاجك؟ تشكين دائمًا من الروماتيزم؟
سببه – صدقينى – هو هذه الأعشاب
الكثيرة التى تفرطين فى لف قدميك
بها، هل الطائر الأزرق لا يزال

عندكن؟ [همس أوراق شجر السنديان] ماذا تقولين؟ نعم، لامجال للتردد، هذه فرصة متاحة لنا ينبغي أن نقتنصها لابد من القضاء على الصبي [همس أوراق الشجر] ماذا تقلن؟ نعم، إنه مع أخته، ينبغي أن تموت هي أيضًا، [همس أوراق الشجر] نعم، الكلب يرافقهما أيضًا، هيهات أن نبعده عنهما، [همس أوراق الشجر] ماذا تقلن؟ نقدم إليه رشوة؟ هذا مستحيل، لقد جربنا كل حيلة فلم نفلح، [همس أوراق الشجر] ها أنت يا شجرة الصنوبر تتكلمين. أعددن أربعة ألواح من الخشب لأربعة نعوش، فتلتيل ترافقه أيضًا النار وقمع السكر والماء والرغيف، إنهم جميعًا في صفنا اللهم إلا الرغيف فهو غير

مضمون، بسمة النور لها ولاء للإنسان
ولكنها لن تأتى فقد قمت بإقناع تيلتيل
وأخته بالتسلل خفية حين نامت، هـــذه
فرصة فريدة [همس أوراق الشجر] هأنذا
أسمع صوت شجرة الزان، نعم، الحق
معك، نعم، ينبغى إبلاغ الخبـــر إلـــى
الحيوانات، هل الأرنب ما يزال يملك
طبلته؟ إنه عندكن؟ فليدق على الطبلة
لينادى جميـــع الحيوانـــات، هـــا هـــم
أصحابنا قد أتوا.

[يبتعد صوت دق الطبلة، يدخل تيلتيل وميتيل والكلب].

هـــو : أهذا هو المكان؟

[الهرة تسرع فى اهتمام إلى لقائهما وتفـــرط فى مظاهر الاحترام لهما والحفاوة بهما].

الهرة : ها أنت ذا قد أتيت يا سيدى الصغير، ما أجمل طلعتك وأبهى عافيتـــك هـــذا

المساء، لقد سبقتك لأعلن عن مقدمك، كل شيء على ما يرام، سنظفر بالطائر الأزرق هذه المرة، إني واثقة من ذلك، لقد بعثت بالأرنب يدق طبلته مناديًا أكابر حيوان هذه المنطقة، إنها متهيبة لا تجسر على الاقتراب [ضجة أنواع مختلفة من الحيوان من بينها بقر وجاموس وخنازير وجياد وحمير إلخ.. إلخ. الهرة تنتحي بتيلتيل جانبًا وتهمس له] ولكن لماذا جئت بالكلب؟ لقد سلف أن قلت لك إنه على خصام مع الجميع حتى مع الأشجار، وأخشى أن يفسد كل شيء برفقته الكئيبة.

هو : لم أستطع التخلص منه [إلى الكلب مهددًا] هل لك أن تغرب عني أيها اللعين!

الكلب : من؟ أنا؟ ماذا فعلت؟

هــو : قلت لك اغرب عن وجهى، أصـعب عليك أن تفهم؟ المسألة بسيطة، لسـنا فـى حاجـة إليـك، أنـت تضـايقنا بإصرارك وقد نفذ صبرنا.

الكلب : سألجم لسانى، سأتبعكم من بعيد فـلا يرانى أحد، هل أقف لك على ساقى وقفة المستجدى؟

الهرة : [تهمس لتيلتيل] هل تصبر علـى هـذا العصيان؟ اضربه بعصاك مرارًا على أنفه، إنه حقًا لا يطاق.

هــو : [يضرب الكلـب] هـذا درس يعلمـك المسارعة إلى الطاعة.

الكلب : [يصرخ من الألم] أى، أى، أى.

هــو : ماذا تقول؟

الكلب : ينبغى أن أقبل اليد التـى ضـربتنى، ضرب الحبيب كأكل الزبيب، [الكلـب

يغالى فى التمسح بتيلتيل ويرشـقه بقـبلات حارة].

هـو : رشادك، أحسنت أحسنت، وهذا يكفى، فاغرب الآن عن وجهى.

هـى : كلا كلا،أريده أن يبقى، إنى أخاف من كل شىء فى غيبته.

[يثب الكلب إلى ميتيل حتـى يكـاد يوقعهـا ويفيض حماسة ولهفة وهو يربت عليها].

الكلب : نعم الفتاة الطيبة القلب، ما أجملهـا! ما أطيبها، ما أجملها وأرقها، ينبغى أن أقبلك مرة وأخرى.

الهرة : يا له من غر مأفون، لندع هـذا لمـا بعد، ولا نضع الوقت، [إلى تيلتيـل] أدر الماسة.

هـو : أين ينبغى لى أن أقف؟

الهرة : تحت هذا الشعاع من القمر، إذ تحته تحسن الرؤية، نعم هكذا، أدر الماسة برفق.

إتيلتيل يدير الماسة فما يكاد يفعل حتى تدب رعشة فى الغصون والأوراق وتنشق جذوع الأشجار التى هى أكثر هرمًا وضخامة لتلفظ سرائرها المكونة وكل سريرة تطابق شجرتها فى الطبع والهيئة، فسريرة شجرة الدردار مثلاً على هيئة قزم ممسوخ أكرش لا ينفك يلهث من فرط بدانته، وسريرة شجرة الزان أنيقة خفيفة الحركة، وسريرة شجرة التابول بيضاء البشرة متحفظة قلقة، وسريرة شجرة الصفصاف مذكوكة مشعثة الشعر نواحة، وسريرة شجرة الصنوبر هيفاء ممشوقة القامة ذات تكتم وصمت، وسريرة شجرة السرو ذات شجن يوحى بجو مأساة، وسريرة شجرة القسطل ذات غرور وحذلقة، وسريرة شجرة الحور ذات مرح ونزوات وثرثرة، بعض السرائر تخرج من جذوع بعض الأشجار

متثاقلة مجمدة الأوصال فتتمطى كأنما تنفلت من قيد أو كرى طال دهورًا، وبعضها يخرج قفزًا فى نشاط ويقظة وعجلة، وتلـزم كـل شريرة ما أمكنها جوار الشجرة التى ولدتها].

شجرة الحور : [وهى أول من تنطلق وتصرخ بصوت عال] جاءنا أناس، جاءنا أنـاس فـى سـن الصبا، سيتاح لنا أخيرًا أن نتكلم، قـد انتهى عهد الصمت، انتهى، من أيـن أتيا؟ ما شأنهما؟ من هما [تتقدم شـجرة الزيزفون على مهل وهى تـدخن غليونهـا بهدوء] أتعرفينهمـا أنـت يـا شـجرة الزيزفون؟

شجرة الزيزفون : لا أذكر أننى رأيتهما من قبل.

شجرة الحور : كيف؟ رأيتهما من قبل ولا ريب فأنت تعرفين الناس جميعًا فمقامـك دائمًـا بجوار بيوتهم.

شجرة الزيزفون : [تتفحص الصبيين] أؤكد لك أنني لا أعرفهما، فهما لا يزالا صبيين، إنني لا أعرف إلا العشاق الذين يأتون لزيارتي في ضوء القمر، والسكارى الذين يشربون الجعة تحت غصوني.

شجرة القسطل : [في أنفة وهي تحكم في كبرياء مصطنعة وضع نظارتها الفرد فوق عين لها] ما الذي أرى؟ إنهما من الفقراء، من الفلاحين.

شجرة الحور : بعض هذا التعاظم يا ذات الصون والعفاف، هذا دأبك منذ ترفعت إلا عن سكنى الشوارع الفسيحة في العواصم.

الصفصاف : [تتقدم وهي نواحة، في قدميها خفان من خشب] يا إلهي، يا إلهي، لقد عاد الإنسان مرة أخرى ليقطع رأسي وأوصالي ويحملها حطبًا له.

شجرة الحور : اصمتي، ها هي شجرة السنديان تخرج من قصرها، إنها عليلة هذه الليلة،

ألا ترونها قد شاخت؟ كم يبلغ عمرها في ظنكن؟ تقول شجرة الصنوبر عنها إن عمرها أربعة آلاف سنة، ولكنـــى واثقة أنها تغالى، انتبهن، إن شـــجرة السنديان ستقضى لنا بخبرها.

[تتقدم شجرة السنديان بهدوء، لا مثيل لهرمها إلا فى تهاويل الأساطير والخرافات، علـــى رأسها تاج النباتات، وعلى بدنها ثوب طويل أخضر مزركش بالأعشاب، هـــى عميـــاء، شعرها الأشعث متهدل حول وجهها، تعتمـــد يد لها على عصا معقدة، ويد أخـــرى علـــى شجرة سنديان صغيرة تقود خطاها، الطـــائر الأزرق حاطط على كتفها، وحـــين تقتـــرب تصطف بقية الأشجار وتنحنى لهـــا تبجـــيلاً واحترامًا].

هـــو : الطائر الأزرق عنـــدها [إلـــى شـــجرة السـندیان] أسرعى، أسرعى، تعالى من هنا، أعطنى الطائر.

الأشجار : اصمت، إنها شجرة السنديان.

شجرة السنديان : [لتيلتيل] من أنت؟

هــو : أنا تيلتيل يا سيدتى، متى أستطيع أخذ الطائر الأزرق؟

شجرة السنديان : تيلتيل ابن الحطاب؟

هــو : نعم سيدتى.

شجرة السنديان : قد أصابنا على يد أبيك شر كبير، فقد صرع من أسرتى ستمائة من أبنــائى، وأربعمائة وخمسة وسبعين من أعمامى وعماتى، وألفًا ومائتين من أولادهــم، وثلاثمائة وثمانين من زوجات أبنــائى واثنى عشر ألفًا من أحفادى.

هــو : لا أعرف هــذا يا سيدتى، غــير أنه لم يصرعهم عمدًا.

شجرة السنديان : ماذا جئت تفعل هنا؟ ولمــاذا أطلقــت سرائر الأشجار من مكامنها؟

هــو : عفوًا سيدتى إذا كنت قد أزعجــتكن، هى الهرة التى قالت لى إننى سأعرف منكن أين هو الطائر الأزرق.

شجرة السنديان : نعم، أعلم هذا، أنت تطلــب الطــائر الأزرق وهو السر الأعظــم للأشــياء كافة، وهو سر السعادة أيضًا، وبــذلك يتاح للإنسان حين يملكه أن يشتد فــى تطويقنا بأغلال الأسر والعبودية.

هــو : كلا يا سيدتى، وإنمــا أطلبــه لبنــت الساحرة غرباوية فإنها جد مريضة.

شجرة السنديان : [تومئ إليه آمرة بالصــمت] كفى، مــالى لا أسمع الحيوانات؟ أيــن هــم فــإن حكايتك تهمهم كما تهمنا، وينبغى إذن أن لا يقع على عاتق الأشجار وحدها اتخاذ القرارات الخطيرة التى يتطلبهــا الموقف، فلو علم النــاس مــا نحــن مقدمات على فعله لانتقموا منا بقسوة،

فينبغى إذن أن تكون خطتنا مرسومة باتفاق الجميع بكتمان السر والتزام الصمت.

شجرة الصنوبر : [تمد نظرتها وهى تعلو بقية الأشجار] الحيوانات قادمة وراء الأرنب، هذه هى سريرة الجواد والثور والجاموسة والبقرة والذئب والحمل والديك والعنز والحمار والدب، وكلما ذكرت شجرة الصنوبر اسمًا لحيوان دخلت سريرته ثم تجمعت السرائر وجلست بين الأشجار، اللهم إلا سريرة العنز فإنها أخذت تتواثب هنا وهناك وإلا سريرة الخنزير فإنها عمدت إلى نبش جذور الأشجار.

شجرة السنديان : هل حضر الجميع؟

الأرنب : الدجاجة اعتذرت بأنها راقدة على بيضها، والأرنب البرى بأن وراءه

مشوارًا، والغزالة بألم فـــى قرنيهـــا، والثعلب بأنه مريض، وأرسل شـــهادة بذلك من طبيبه، أما الأوز فلم تفهـــم، والديك الرومى انفجر غاضبًا.

شجرة السنديان : تخلف هؤلاء يؤسف له لكل الأســـف، ولكن عدد الحاضـــرين كـــاف لعقـــد الاجتماع. يا أخـــواتى أنـــتم تعلمـــون المسألة. هذا الصـــبى الـــذى أمـــامكم يستطيع أن يضع يده علـــى الطـــائر الأزرق بفضل طلسم اختلسه من قدرة الأرض وبذلك ينتزع منا السر الـــذى حرصنا على إخفائه منذ بدء الخليقـــة. ونحن عـــلى عـــلم بالإنســـان بحيث لا يخامرنا أقل شك فى المصير الذى ينتظرنا، إذا تملك هذا السر. من أجل ذلك فإن كل تردد من جانبنا هو فـــى نظرى جرم وحماقة، الساعة خطيرة،

وينبغى القضاء على الصبى قبل فوات الوقت.

هــو : ماذا تقول؟

الكلب : [يدور حول شجرة السنديان. وهو مكشر عن أنيابه] هل ترين أسنانى أيتها العجــوز الكسيحة؟

شجرة الزان : [فى حنق] إنه يهين شجرة السنديان.

شجرة السنديان : أهذا هو الكلب؟ اطردوه، ينبغى لنا أن لا نصبر على اندساس خائن بيننا.

الهرة : [تهمس إلى تيلتيل] أبعده! هذا سوء تفاهم دعه لى فإنى سأعالج الأمــر، ولكــن ينبغى أن نسرع فى إقصاء الكلب.

هــو : [إلى الكلب] ألا تنصرف؟

الكلب : دعنى أمزق خفــى هــذه الكســحانة وستضحك مما يحدث لها.

هــو : احترس وانصرف، انصرف يا وقــح. يا ثقيل الدم.

الكلب : طيب طيب، سأنصرف وسأعود حين تحتاج إلى.

الهرة : [تهمس إلى تيلتيل] من الأحوط أن تقيـده وإلا عاد لحماقاته، إن الأشجار تغضب وتكون العواقب وخيمة.

هـو : ماذا أفعل؟ لقد أضعت سلسلته.

الكلب : [وهو يزمجر يهدد شجرة السنديان] سأعود، سأعود يا مقطوعة النفس يـا فريسـة الربو، تبا لكن من أشجار كسيحات فى سـن اليـأس، إن الهـرة هـى رأس المؤامرة، سأصفى الحساب معها ذات يوم، فيم همسك ووسوستك يا خـائنة، يا لئيمة، [ينبحها].

الهرة : [لتيلتيل] أرأيت كيف يهين الجميع؟

هـو : هو حقًا لا يطاق، إنه يوشوش علينـا فلا نسمع ما يقال، سيدى اللبلاب، هل لك أن تقيده؟

اللبلاب : [يتقدم بحذر إلى الكلب] هل يعض؟

الكلب : [وهو يزمجر] على العكس، على العكس، إن الكلب سيقبلك انتظر فسوف ترى ما يحث لك. اقترب. اقترب قليلاً أيها الوغد بأحابيلك العتيقة.

هو : [يهدده بالعصا] تيلو!

الكلب : [يجثم تحت قدمي تيلتيل ويهز ذيله] ماذا تريد مني أن أفعل يا مولاي الصغير؟

هو : ارقد على بطنك وأطع اللبلاب ودعه يقيدك وإلا..

الكلب : [يزمجر واللبلاب يقيده] أوصالك خيوط مزقة يا حبل المشنقة، يا مقود النور، يا سلسلة الخنزير، انظر يا مولاي الصغير، إنه سيلوى ساقي.

هو : جزاءً وفاقًا، فهذا ما كنت تطلب، اخسأ واهدأ، فأنت لا تطاق.

الكلب : لا أبـــالى، ولكنـــك مخطـــئ، إنهـــم يضمرون لك أســـوأ النيات فـــاحترس يا مولاى الصغير، ها هو يكمم فمـــى فلن أستطيع الكلام.

اللبلاب : [وقد كور الكلب بعد شد وثاقـــه] أيـــن أمضى به؟ لقد أحكمت وثاقه ولن يفتح فمه.

شجرة السنديان : اربطه بإحكام وراء جذعى وشده إلى أضخم جذورى، وسنتدبر مصيره فيما بعد.

[يستعين اللبلاب بشجرة الحـــور ويحمـــلان الكلب ويضعانه وراء جذع شجرة السنديان].

شجرة السنديان : هل فرغتما؟ حسنٌ، الآن وقد تخلصنا من هذا الشاهد المقلق، هـــذا الخـــائن، فلنتشاور فيما يقضى به الحق والعدل فى نظرنا، لا أخفى عليكم ما أحس به فى أعماقى من اهتياج مُضْـــنٍ، فهـــذه

أول فرصة يتاح لنا فيهـا أن نحـاكم الإنسان، وأن نشعره بسطوتنا، أظن أن الإنسان بعد كل الذى ذقناه على يديـه من الشـرور ومن المظـالم الفادحـة لا يخامره أدنى شك فى الجزاء الـذى يستحقه.

كل الأشجار

وكل الحيوانات : نعم، نعم، هو يعلم الآن علم اليقـين، إلى المشنقة، إلـى المـوت، لطالمـا ظلمنا، وطالما سدر فى غلوائه، لقـد نفذ صبرنا، فلنسحقه ونلتهمه، فـورًا، فورًا..

هـو : [للهرة] ماذا جرى لهم؟ إنهم غاضبون.

الهرة : لا تنزعج إنهم غضاب لأن الربيع قـد تـأخر قدومـه دع الأمـور لـى، وسأعالجها جميعًا.

شجرة السنديان : كان حتمًا أن يصدر حكمنـا بإجمـاع الآراء، وبقى علينا أن نعرف إذا شئنا تجنب ثأر الإنسان كيف نختار من بين طرائق القتل أحكمها وأسهلها وأسرعها وأضمنها وأقلها دلالة على التهمـة إذا ما عثر الناس على جثتى الصبيين فى الغابة.

هـو : ما هذا كله؟ ما هدفهم؟ لقد بدأت أضيق ذرعًا بهم، ما دامت شجرة السـنديان عندها الطائر الأزرق فلتسلمه إلى.

الثور : [يتقدم إليه] أيسر طرائق الموت وأحكمها أن أطعنه بقرنى فـى بطنـه، فهـل تريدون أن أنطحه؟

شجرة السنديان : من الذى يتكلم؟

الهرة : إنه الثور.

البقرة : الأفضـل لى أن أنأى عن المتـاعب فلا دخل لى فى هذا الموضوع، وإنى

منصرفة إلى أكل هذا العشب كله فـــى المراعى التى ترونها فى زرقة القمر، إن ورائى عملاً طويلاً يشغلنى.

الجاموسة : وكذلك أنا، وإنى على كل حـــال أقـــر مقدمًا كل شىء تفعلونه.

شجرة الزان : إنى أقدم أعلى فروعى ليشنق عليها.

اللبلاب : وأكون أنا حبل المشنقة.

شجرة الزان : وأمدكم أنا بألواح للنعــوش الأربعـــة الصغيرة.

شجرة السرو : وأهيئ أنا لهم قبرهم الأبدى.

شجرة الصفصاف : أسهل الطرائق أن نغرقهم فـــى أحـــد الأنهار التى أطل عليها، دعوهم لى.

شجرة الزيزفون : [وهى تمهد للصلح] رشـــادكم رشـــادكم، أحتم أن نلجأ للعنف، إنهما لا يـــزالان فى نضارة الصبا، ونحن نقدر بسهولة أن نغل أيديهما عن الشر بأن نبقـــيهم

أسرى داخل سياج أتولى أنـــا بنفســـى إقامته من ضلوعى.

شجرة السنديان : من التى تتكلم هكـــذا؟ [يــدلنى صــوتها المعسول أنها شجرة الزيزفون].

شجرة الصنوبر : صدقت.

شجرة السنديان : إذن نكبنا كالحيوان باندســـاس خـــائن بيننا، لقد ظفرنا إلى اليوم بولاء جميع الأشجار اللهم إلا أشجار الفاكهة وهى على كل حال لا تعـــد فـــى الحقيقـــة أشجارًا بمعنى الكلمة.

الخنزير : [يدير مقلتين صغيرتين نهمتين] أمـــا أنـــا فأظن أنه ينبغى أولاً أن نلتهم البنـــت الصغيرة فلابد من أن لحمها طرى.

هـــو : ماذا يقـــول هـــذا الأحمـــق؟ انتظـــر قليلاً يا...

الهرة : لا أدرى مـاذا دهـاهم، إن مسـلكهم لا يبشر بخير.

شجرة السنديان : سكوت! المسألة الآن هى أن نعـرف من ينال شرف توجيه أول طعنة ومن يزيح من هامتنا أكبر خطر يتهددنا منذ ولد الإنسان.

شجرة الصنوبر : هذا الشرف حق لك فأنت أمنا وسيدتنا.

شجرة السنديان : أهذه شجرة الصنوبر التى تتكلم؟ إننى مع الأسف عجوز طاعنة فى السـن، عمياء عليلة، وأصبحت أوصالى مـن الخدر تأبى أن تطيعنى، كلا، بل أنت يا أختى الصنوبر دائمًـا مخضـرة، مستقيمة لا تعرف الانحراف، شـهدت عيناك مولد أغلب هذه الأشجار، أنـت أحق منى بمجد تحريرنا جميعًا.

شجرة الصنوبر : شـكرًا لك يا أمـى المبجـلة، ولكن ما دمت قد نلت أنا شرف إعداد قبـر

لهذين الصغيرين فإنى أخشى إذا وقع اختيارك على أن أثير غيرة زميلاتى، وأظن إذا تنحينا نحن الاثنتين عن هذا الشرف فإن الجديرة بعدنا هى شـجرة الزان، لأنها تفوقنـا عراقـة، ثـم إن ضربتها أشد لأنها أصلبنا عودًا.

شجرة الزان : لا يغيب عنكم أن السوس قـد نخـر أوصالى وأن ضربتى لم تعد محكمة، أما شجرة الدردار وشجرة السرو فلهما سلاح ماضٍ.

شجرة الدردار : ليس أشهى على من نوال هذا الشرف ولكنى أكاد لا أحسن صلب عـودى، وقد قرض فأر هذه الليلة إبهام قدمى.

شجرة السرو : أما أنا فعلى استعداد، ولكنـى علـى غرار أختى شجرة الصنوبر إذا فاتنى شرف إعداد القبر فإنى سأحظى علـى الأقل بميزة الانفراد بـذرف الـدموع

على هذا القبر وليس من العدل أن أجمع بين وسامين. واسألا شجرة الحور.

شجرة الحور : أنا؟ هل اتجه ذهنكما إلى؟ ولكن خشبى طرى شأن لحم الأطفال، ثم إنى لا أدرى ماذا دهانى، إنى أرتجف من الحمى، انظروا إلى أوراقى، لابد من أن البرداء أصابتنى اليوم عند الفجر.

شجرة السنديان : [تنفجر غاضبة] أنت ترهبين الإنسان حتى هذين الصبيين الغريرين، وكلاهما مضيع أعزل من السلاح، إنهما ينفخان فى قلبك بهذا الرعب الخفى الذى طالما طوقنا بما نحن فيه من ذل ورق، إنى أرفض هذا الكلام، كفى، ما دام الأمر كذلك وما دامت الفرصة المتاحة هى فرصة العمر فسأمضى أنا وحدى، أنا العجوز

الكسيحة المرتعشة العمياء للاقتصاص
من عدونا الأزلى. أين هو؟

[تتهادى بحذر على عصــاها وتتقــدم نحــو
تيلتيل].

هـــو : [يستل السكين من جيبه] منى وحدى تريد
أن تقتص هــذه العجــوز أم النبــوت
الضخم.

[تند من بقية الأشجار صرخة فــزع لرؤيــة
السكين، هى فى يد الإنسان سلاح يحــارون
فى سره، بتار لا يقاوم، فيتوسطن بين الاثنين
ويمسكن شجرة السنديان].

الأشجار : السكين! احترسى، السكين.

شجرة السنديان : [وهى تدافعهن] اتركننى، فما الجــدوى،
إن نجوت من السكين فلن أنجو مــن
البلطة، من التى تمسك بــى؟ أأنــتن
جميعًا هنا؟ ماذا؟ أهذا اتحاد منكن على
نية واحدة. [تقذف بعصــاها] إذن لــتكن

مشيئتكن، والعار لنا جميعًا، لن ينقذنا بعد إلا الحيوان.

الثور : نعم هو هذا، أنا لهما، فبنطحة واحـــدة من قرنـى.

[تعمد البقرة والجاموسة إلى شده من ذيله].

البقرة والجاموسة: لماذا تحشر نفسك، إياك والحماقة، هذه مسألة وخيمة العواقب ســندفع نحـــن غرمها، دعها إذن للحيوانات الضارية فهذا هو شأنها.

الثور : كلا كلا بل شانى أنا، اصبرا فتريـــا، ولكن إذا لم تمسكا بى فستقع نكبة.

هـــو : [إلى ميتيل وقد انبعثت منها صرخة حـــادة] اختبئى ورائى، لا خوف وهذه السكين فى يدى.

الديك : شجاعة هذا الصبى يالها من شجاعة..

هـــو : هل قر قراركم؟ الاقتصاص منى أنا؟

الحمار : أكيدٌ يا بنى، كيف تطلب فهمك للحقيقة مثل هذا الوقت الطويل.

الخنزير : لك أن تصلى، فافعل، فقد حانت منيتك، ولكن لا تحجب عنا صبيتنا الصغيرة، أريد أن أمتع عينى بالنظر إليها فإنها هى أول من سألتهم.

هو : وهل أنا أجرمت فى حقكم؟

الشاة : لا سمح الله.. ما الإجرام فى أنك أكلت وإيدى وأخى وأختى وأعمامى الثلاثة، وعمتى، وأبى وأمى، صبرًا صبرًا، حين يطرح بك أرضًا سترى أن لى أنا أيضًا أنيابًا وأضراسًا.

الحمار : وأن لى ظلفًا حادا قوى الشكيمة.

الحصان : [يفحص الأرض بقوائمه مزهوًا] سترى ما سترى، قل لى، أيهما أحب إليك؟ أن أنهشك بأسنانى أم أبططك بحوافرى [يتقدم بخيلاء نحو تيلتيل فيتصدى له ويشهر

السكين فى وجهه فيصاب الحصان فجأة بالذعر ويولى الأدبار وينطلق كالسهم] يا للداهية، ليس هذا بعدل، ليس هذا من أصول اللعب، أن يدافع عن نفسه..

الديك : [وقد عجز عن كتمان إعجابه] لا شك أنه صبى جسور.

الخنزير : [للدب والذئب] فلنهجم عليهما جميعًا وسأسندكما من خلفٍ سنطرحهما أرضًا، ونقتسم الصبية حين تقع.

الذئب : شاغلهما منْ أمام، على حين أقوم أنا بحركة التفاف [ويدور حتى يجيء خلف تيلتيل ويهجم على ظهره ويكاد يطرحه أرضًا].

هو : يا خائن! [ينهض معتمدًا على ركبة واحدة ملوحًا بالسكين، حاميًا أخته قدر طاقته وهى تولول من الفزع وحين يتبين للأشجار والحيوان أنه يوشك أن يقع على الأرض

تقترب جميعها منه تحاول كل منها أن تصيبه بضربة، يخيم الظلام فجأة، تيلتيل يستنجد باضطراب] النجدة النجدة تيلو، تيلو، تيلو، أين الهرة؟ تيلو، تيلو، تيلو. أسرع إلى أنت والهرة.

الهرة : لا أستطيع فقد التوت قدمى.

هـو : [يتحاشى الضربات ويدافع عن نفسه قدر جهده] النجدة النجدة، لقد خارت قواى، إنهم أكثر منى عددًا، الدب والخنزير والذئب والحمار وشجرة الصنوبر وشجرة الزان.

[يجر تيلو حباله المتقطعة بعد أن وثب من وراء جذع شجرة السنديان ويشق طريقه مزاحمًا الشجر والحيوان حتى يلقى بنفسه أمام تيلتيل ويدافع عنه بضراوة].

الكلب : [وهو ينهش بقوة يمينًا ويسارًا] لبيك لبيك يا مولاى الصغير لا تخف، إن فكى

جبار، خذ، هذه لك أيها الـــدب، فـــى عجيزتك الضخمة، أين من يريد منكم مثلها؟ وهذه للخنزير وهذه للحصـــان، وهذه لذيل الثور، تمام تمام، هأنذا قـــد مزقت سروال شـــجرة الحـــور وإزار شجرة السنديان أما شجرة القسطل فقد هربت، أف أف، الدنيا حر..

هــو : [متضعضعًا] خارت قوتى منذ نـــاولتنى شجرة السرو ضـــربة شـــديدة علـــى نافوخى.

الكلب : إنها ضربة من شـــجرة الســـرو وقـــد كسرت أيضًا قدمى.

هــو : ها هم يعودون للهجوم، كلهم معًا، قـــد جاء دور الذئب هذه المرة.

الكلب : انتظر، سترى كيف أعالجه بهجـــومى عليه.

الذئب : أيها الغبى، بيننا أخـوة فأنـت مـن سلالتنا، أنسيت أن أهله أبـوا تربيـة صغارك فأغرقوها.

الكلب : وحسنًا فعلوا فقد كانت تشبهك.

كل الأشجار

وكل الحيوانات : أيها العاق لجنسك، أيها الخائن والغـر الأبله، انفض يدك منه، ألا تـرى أن الموت محيق به، انضم إلينا.

الكلب : [فى نشوة الحب والإخلاص] كـلا كـلا، سأقف وحيدًا ضدكم جميعًا كلا كـلا، سأظل وفيًا لمن ينتمى لهم مولاى، إنهم أفضل منكم وأجـلّ قـدرًا، [التيلتيـل] احترس، هذا هو الدب، خذ بالك مـن الثور، سأثب إلى حلقه، أى أى، هـذه رفسة من حافر، لقد هشم الحمار سنين من فكى.

هــو : هدنى الإعيــاء، تيلــو، أى أى، هــذه ضربة من شجرة الدردار، انظر إلــى يدى يســيل منهــا الــدم، إنه الــذئب أو الخنزير.

الكلب : سلامتك يا مولاى الصــغير، دعنــى أقبلك، هذه هى لعقة طيبة من لســانى ستريحك، قف ورائى ولا تتحول، فلن يجرأ أحد منهم على مهاجمتك.. بــل. نعم. نعم. سيجرؤون، فهــا هــم قــد عادوا. الخطر كبير هذه المرة فلنصمد لهم..

هــو : [يتهاوى إلى الأرض] لم تبق لــى قــدرة على المقاومة.

الكلب : أصدقاؤنا قادمون، تنبئنى بهــم أذنــى وأنفى.

هــو : من أين؟ ومن يكون القادم؟

الكلب : من هناك، إنها بسمة النور، لقد اهتدت إلى مكاننــا، قد نجــونا يا مــولاى، يا مليكى الصــغير، قبلنــى، نجونــا، نجــونا، انظر إلى أعدائنــــا، إنهــم يتوجسون شرا ويتفرقون مرتعبين.

هــو : يا بسمة النور، يا بسمة النور، أقــدمى وأسرعى، لقد ثارت ضدنا الأشــجار والحيوانات وتألبت علينا.

[تدخل بسمة النور، وكلما تقــدمت يتــوالى إشراق الفجر علــى الغابــة حتــى يعمهــا الضياء].

بسمة النور : ما الخبر وماذا جرى، كيــف غلبــك الضلال يا مسكين، أدر الماسة فإنهــا ستعيدهم إلى عالم الصــمت والظــلام ولن تتجلى لك بعد سريرتها.

[يدير تيلتيل الماسة فتهرع كل ســريرة إلــى جذع شجرتها وتدخله فينطبق عليها وتختفــى

أيضًا سرائر الحيوان ويرى من بعيـد بقـرة وشاة ترعيان العشب فى سلام إلـخ، إلـخ.
وتستعيد الغابة براءتها].

هـو : [يتلفت حوله من فرط دهشته] أين هم، ماذا كان قد جرى لهم؟ هل كانوا جميعًا قد أصيبوا بالجنون؟

بسمة النور : كلا، هـذه هى حقيقتهم دائمًا، ولكننـا لا نعلمها لأننا لا نراها، وقد حـذرتك من قبل من خطر إيقاظها فى غيبتى.

هـو : على كل حال لولا الكلب، ولـولا أن كان عندى سكين.. لم أكن أتصور من قبل أنهم على مثل هذه الشراسة.

بسمة النور : ها أنت ذا ترى أن الإنسان يقف وحيدًا ضد الجميع فى هذه الدنيا.

الكلب : [التيلتيل] عسى أن لا يكون قد نالك أذى كبير يا مولاى.

هـو : مسألة بسيطة، أما عن ميتيل فقد عجزوا عن لمسها ولكن أنت يا عزيزى تيلو، حدثنى عن نفسك، قد سال الدم على فكك وانكسرت قدمك.

الكلب : إصابة هينة لا تستحق الذكر، من غد سيلتئم الجرح وينجبر الكسر ولكن كم كانت حامية هذه المعركة!

الهرة : [خارجة من غيل وهى تعرج] معركة حامية ولا ريب، فقد طعننى العجل بقرنه فى بطنى، لا ترى العين أثر الطعنة ولكنها تؤلمنى، أشد الألم، وشجرة السنديان كسرت قدمي..

الكلب : أحب أن أعرف أى قدمى هى؟

هـى : [تربت على الهرة] تيليت يا مسكينة، أحقًا ما تقولين؟ إذن أين كنت فإنى لم ألمحك.

الهرة : [منافقة] أميمتى، قد جرحت من فـورى حين هاجمنى الخنزير القذر الذى أراد التهامك فناولتنى حينئذ شجرة السنديان ضربة دوختنى.

الكلب : [وهو يهمس بالكلام من بين أسنانه المطبقة] أنت! فليكن فى علمك أنه سيكون بينى وبينك حساب، ولن يفيـدك الانتظـار شيئًا، فجزاؤك لن يتغير.

هـى : [للكلب] دعها فى حالها يا لعين.

[ويخرج الجميع].

[ستـــار]

الفصل الرابع

المنظر السادس: أمام الستار

[يدخل تيلتيل وبسمة النور والكلب والهرة والرغيف والنار وقمع السكر والماء واللبن].

بسمة النور : تلقيت رسالة عاجلة من الجنية غرباوية تخبرني فيها أن الطائر الأزرق موجود هنا في أغلب الاحتمال.

هو : في أي مكان هنا؟

بسمة النور : هنا، في المقبرة التي وراء هذا الجدار، يبدو أن أحد الموتى في هذه المقبرة

يخفيه فى قبره، يبقى علينا أن نعـــرف
أيهم هو، لذلك ينبغى المرور بالموتى
واحدًا واحدًا.

هـــو : واحدًا واحدًا؟ وكيف نفعل؟

بسمة النور : المسألة بسيطة، ننتظر منتصف الليل،
لئلا نفرط فى إزعاجهم، ثم تدير أنـــت
الماسة فإذا بهم يخرجون من الأرض،
وأما الذين لا يخرجون فسنطل علـــيهم
فى قبورهم.

هـــو : ألن يحنقهم عملنا هذا؟

بسمة النور : لن يحنقهم، بل لن يتبينوا أن خروجهم
بإرادتنا، حقًا إنهم لا يحبون أن يقلقهم
أحد، ولكن من عادتهم على كل حـــال
أن يخـــرجوا فى منتصـــف الليـــل
فلا إزعاج لهم.

هـو : لماذا شحب لون الرغيف وقمع السكر واللبن ولماذا خرس لسانهم؟

اللبن : [وهو يترنح] أحس أنني سأصاب بالخثورة.

بسمة النور : [تهمس لتيلتيل] لا تشغل بالك بهمومهم، فما بهم إلا الخوف من الموتى.

النار : [تطوف بخطى لاهية] أما أنا فلست خائفة، فقد ألفت أن أحرقهم، كنت أحرقهم جميعًا فى الماضى فكانت لى متعة لا أجدها فى أيامنا هذه.

هـو : ولماذا يرتجف تيلو؟ هل هو خائف أيضًا؟

الكلب : [وأسنانه تصطك] أنا؟ إننى لا أرتعش، أنا لا أخاف أبدًا، ولكن إن تركتم هذا المكان فسأتركه معكم.

هـو : وما للهرة لا تنبس بكلمة.

الكلب : [فى غموض] ليس علمى علمكم.

هــو : [لبسمة النور] هل ستأتين معنا؟

بسمة النور : كلا، فمن الأفضل أن أبقى عند بـــاب المقبرة مع الأشياء والحيوان، لم يــأت وقتى بعد، فربة النور غير قادرة للآن أن تنفذ إلى دور المــوتى، ســأتركك وحدك مع ميتيل.

هــو : هل يمكن إذن لتيلو أن يبقى معنا؟

الكلب : نعم، نعم، سأبقى هنا، أحب أن أبقـــى مع مولاى الصغير.

بسمة النور : هــذا مســتحيل، إن أوامــر الجنيــة صريحة، ومع ذلك فليس هناك شـــىء يخشى منه عليكما.

الكلب : طيب طيب، ما باليد حيلة، إذا وجــدتم أشرار يا مولاى الصــغير فما عليــك إلا إن تفعل هكذا [يصــفر] وســترى، سأسعفك كما أسعفتك فى الغابة [ينبح وا وا وا].

بسمة النور : هيا بنا، وداعًا يا صغيرى العزيـزين،
لن أكون بعيدة عنكما، [تعانق الصـبيين]
أن الذين يحبـوننى والـذين أحـبهم
سـيجدوننى دائمًا [للأشـياء والحيـوان]
أما أنتم فمن هنا.

[تخرج مع الأشياء والحيوان ويبقى الصبيان
وحدهما وسط المسرح فتنفتح الستار على
المنظر السابع].

المنظر السابع

المقبرة

[بالليل فى نور القمر، مقبرة ريفية، قبور عديدة، ربى مخضرة، صلبان من الخشب، مكسوة مقابر من الرخام إلخ، إلخ].

[تيلتيل وميتيل واقفان بالقرب من نصب على هيئة عمود مستقيم].

هــى : إنى خائفة.

هــو : [باطمئنان مزعزع] أما أنا فلا أخاف أبدًا.

هــى : هل الموتى أشرار؟ قل لى؟

هــو : كلا، كيف يكونون أشرار وهم غير أحياء؟

هــى : هل رأيت من قبل واحدًا منهم؟

هــو : نعم، مرة واحدة، منذ زمن بعيد، أيــام أن كنت صغيرًا جدًّا.

هــى : كيف هو؟ قل لى..

هــو : شخص كله بياض، هادئ جدًّا، بــارد جدًّا، ولا يتكلم.

هــى : هل سنراهم؟ قل لى..

هــو : لا ريب، فهذا ما وعــدتنا بـــه بســمة النور.

هــى : أين مكانهم هؤلاء الموتى؟

هــو : هنا تحت العشب أو تحــت الأحجــار الثقيلة.

هــى : أهذا هو مكانهم على مدار العام؟

هــو : نعم.

هــى : [مشيرة إلى الأحجار فوق المقــابر] أهــذه أبواب بيوتهم؟

هــو : نعم.

هــى : أيكون خروجهم حين يرق الهواء؟

هــو : أنهم غــير قــادرين عــلى الخــروج إلا بالليل..

هـــى : ولماذا؟

هــو : لأنهم لا يرتدون إلا القمصان.

هـــى : وهل يخرجون أيضًا فى المطر؟

هــو : إذا أمطرت السماء لزموا بيوتهم.

هـــى : هل بيوتهم جميلة؟ قل لى..

هــو : يقولون إنها ضيقة جدًّا.

هـــى : هل معهم أولاد صغار؟

هــو : طبعًا، معهم كل من يموت.

هـــى : ما هو غذاؤهم؟

هــو : إنهم يأكلون جذوع الأشجار.

هـــى : وهل سنراهم؟

هــو : لا ريب، فإن إدارة الماسة ستجعل كل شىء ينكشف لعيوننا.

هـــى : وماذا سيقولون؟

هــو : لن يقولوا شيئًا لأنهم لا يتكلمون.

هـــى : ولماذا لا يتكلمون؟

هـــو : لأنه ليس لديهم شىء يقال؟

هـــى : ولماذا ليس لديهم شىء يقال؟

هـــو : وجعت لى دماغى [فترة صمت].

هـــى : متى تدير الماسة؟

هـــو : بسمة النور أوصتنا بانتظار منتصـــف الليل. هذه ساعة لا يزعجهم الخـــروج فيها إلا قليلاً.

هـــى : ولماذا يقل انزعاجهم عند الخروج فى هذه الساعة؟

هـــو : لأنها ساعة الخروج لتنسم الهواء.

هـــى : هل حل نصف الليل؟

هـــو : ألا ترين ساعة الكنيسة؟

هـــى : نعم، بل أرى العقرب الصغير.

هـــو : إذن ترين أنها على وشك أن تدق اثنتى عشرة مرة، ها هى تدق، أسمعت؟

[تسمع الدقات الاثنتى عشرة].

هـي : أريد أن أعود.

هـو : لم تحن العودة بعد، سأدير الماسة.

هـي : كلا كلا، لا تفعل، أريد أن أعود، إننى خائفة يا أخى. إنى متعبة جدًا.

هـو : ولكن ما من خطر علينا.

هـي : لا أريد أن أرى الموتى، لا أريد أن أراهم.

هـو : لك ما تريدين، أقفلى عينيك فلا ترينهم.

هـي : [تتشبث بثيابه] تيلتيل، لا أستطيع، مستحيل، إنهم سيخرجون من تحت الأرض.

هـو : لا ترتجفى هكذا، إنهم لن يخرجوا إلا لبرهة وجيزة.

هـي : ولكنك أنت أيضًا ترتجف. هل سيكون منظرهم مرعبًا؟

هـو : أزف الوقت، فقد أصبحنا فى منتصف الليل.

[يدير تيلتيل الماسة، لحظة مرعبة من الصمت والهمود ثم يحدث ببطء ترنح الصلبان وانشقاق الأرض فى الربوة المخضرة وارتفاع الحجارة عن القبور].

هـى : [وهى تحتمى بحضن أخيها] إنهم يخرجون، ها هم أمامنا.

[حينئذ ينبعث شيئًا فشيئًا من القبور المفتوحة لفيف زهور نابتة، هى أول الأمر رقيقة متهيبة، إنها كسحابة من البخار، ثم تتحول إلى بياض كوشاح البكر، ويزداد درجة بعد درجة التفافها وعلوها وفيضها وبهاؤها وتجلل شيئًا فشيئًا وبسلطان لا يقاوم كل الأشياء فتحيل المقبرة إلى حديقة ملائكية توحى بالطهارة، ثم لا يلبث الفجر أن يزف إليها أول ضيائه فيتلألأ الندى، تتفتح الأشجار والأزهار، ويوسوس النسيم بين أوراق الغصون يطن النحل، تستيقظ الطيور فتملأ

ببواكير نشوتها أرجاء الكون بأناشيد فرحهـا بالشمس والحياة، تيلتيل وميتيـل تتملكهمـا الدهشة والإعجاب، يده تمسك يدها، وينقلان الخطى بين الزهور بحثًا عن آثار القبور].

هـي : [هي تبحث في العشب] أين هـم هـؤلاء الموتى؟

هـو : [يبحث مثلها] ليس هناك موتى.

[ستـــار]

المنظر الثامن

أمام ستار يمثل سحبًا جميلة

[يدخل تيلتيل وميتيل وبسمة النور والكلب والهـرة والرغيف والنار وقمع السكر والماء واللبن].

بسمة النور : فى اعتقادى أن يدنا ستقع هذه المـرة على الطائر الأزرق وكان ينبغـى أن أدرك هذا منذ أول مرحلة فى رحلتنـا ولكن لم يحدث إلا فى هـذا الصـباح حين جدد الفجر قواى أن أشرق هـذا الإدراك على ذهنى إشراق شعاع من السماء، نحن الآن عند مدخل الفردوس

المسحور حيث يجتمع في حراسة القدر كل ما يعرفه الإنسان من شخوص البهجة والهناء.

هـو : وهل هناك كثير منهم، أيكون لنا منهم نصيب أبينهم صغار مثلنا أيضًا؟

بسمة النور : فيهم الكبير والصغير، والجلف والرقيق، فيهم من له أكبر حظ من الجمال وفيهم من هو أقل لطفًا، أما أسوأهم طبعًا فقد سبق طردهم من هذا الفردوس فوجدوا ملجأ لهم في ديار شخوص البؤس إذ ينبغي أن لا يغيب عنكم أن شخوص البؤس يقيمون في مسكن مجاور نافذ على فردوس الهناء، لا يفصل بينهما إلا حاجز كأنه البخار أو كأنه ستار خفيف ينزاح كلما هبت عليه رياح من علياء العدالة

أو من قاع الأبد، يحسن بنا أن نعمل بنظام وأن نتخذ بعض تدابير الحيطة، فشخوص الهناء هم فى العادة خيرون إلا أن منهم من هو أشد من شخوص البؤس خطرًا وخداعًا.

الرغيف : عندى فكرة، ما دام شخوص الهناء لهم مثل هذا الخطر والخداع أفليس من الأفضل أن نبقى جميعًا عند الباب حتى نحمى الصبيين بسواعدنا إذا اضطرا للفرار بعد دخولهما؟

الكلب : كلا كلا، أريد أن أكون مع مولاى ومولاتى أينما يذهبان فليبق بالباب كل من يرتجف قلبه من الرعب، فليس لنا حاجة إليه [ينظر إلى الرغيف] ولا إلى الجبناء [ينظر إلى الهرة] ولا إلى الخائنين.

النار : أما أنا فذاهبة معهما، يقال إن في غشيان هذا الفردوس متعة كبيرة وأن أهله لا ينقطعون عن الرقص.

الرغيف : وعن الأكل أيضًا؟

الماء : [تتنهد] لم يدخل حياتى قط هناء ولو صغير وأود أن أعرفه اليوم.

بسمة النور : اعقدوا ألسنتكم، لم يسألكم أحد رأيكم، إليكم قرارى، الكلب، والرغيف وقمع السكر يصحبون الصبيين، والماء لا تدخل لأنها شديدة البرودة، ولا النار لأنها مفرطة فى الاضطراب، وأناشد اللبن أن يلزم الباب لأنه سريع التأثر، أما الهرة فهى حرة.

الكلب : إنها خائفة.

الهرة : إذن سأنصرف فأسلم فى طريقى على بعض شخوص البؤس فبينى وبينهم

صداقة قديمة، فهم يسكنون بجوار شخوص الهناء.

هو : وأنت يا بسمة النور، ألا تأتين معنا؟

بسمة النور : لا أستطيع أن أدخل كما أنا على شخوص الهناء فإن أكثرهم لا يحتملونني، ولكن لدى الوشاح الغليظ الذى أتغطى به إذا زرت السعداء، [تفرد وشاحًا كبيرًا تلفه حولها بإحكام] ينبغى أن لا يزعجهم شعاع من نورى، إذ إن من شخوص الهناء من يعيش فى وجل محرومًا من السعادة أما إذا دخلت هكذا فلن يخشانى أحد حتى أقلهم جمالاً وأقلهم لطفًا.

[ينفتح الستار على المنظر التاسع].

المنظر التاسع
فردوس الحياة الدنيا

[ينفتح الستار عن ردهة مقامة فى مدخل الفــردوس. ترســمها أعمدة عالية من المرمر، تتدلى بينها أســتار مــن المخمــل الثقيــل الأرجوانى، تعقدها حبال ذهبية، بحيث تحجب غيابة المنظر، طــراز البناء يوحى بذروة ما بلغه يومًا عصر النهضة فى البندقية والأراضى الواطئة من استغراق فى الملذات الحسية والترف كما تشهد به لوحات الرسام فيرونيزى وروبانز، أكاليل وتمائم وجدائل وزهريات وتماثيــل وزينة ذهبية منثورة بسخاء، فى وسط الردهة مائدة ثقيلة فخمــة مــن حجر الشب المزخرف بالفسيفساء، تزدحم عليها شمعدانات وأكواب من البللور وآنية من الذهب والفضة، تفيض بأطعمة فاخرة، يجلس حــول المائدة شخوص الترف فى الأرض وهم يأكلون ويشربون وينــدفعون فى الهتاف والغناء، فيهم المترنح وهو وسنان، وفيهم المســتغرق فــى

النوم، وبين أكداس من لحم الوعل وفاكهة مهولـــة انقلبـــت الأبـــاريق والأكواب على المائدة، كل واحد منهم مفرط فى البدانة، محتقن الوجه، فى ملابس من القطيفة، على الرأس تـــاج محلـــى بالـــذهب واللؤلـــؤ والأحجار الكريمة، قيان فاتنات لا تنفك عن السعى بأطبـــاق مزينـــة وشراب مشعشع، وموسيقى تنم عن ذوق فج ماجن يحـــب الصـــخب يغلب فيها عزف الآلات النحاسية. المسرح غارق فى ضـــوء أحمـــر ثقيل.

تيلتيل وميتيل والرغيف وقمع السكر يغلبهم شىء مـــن الدهشـــة والانبهار أول الأمر ثم يتحلقون على اليمين فى مقدمة المسرح حـــول بسمة النور، وتمضى الهرة دون أن تنبس بكلمة إلى غيابة المســـرح، من الناحية اليمنى أيضًا، وترفع ستارة قاتمة اللون وتختفى].

هـــو : من هم هؤلاء السادة الضـــخام الـــذين يلهون ويلتهمون كل هـــذه الأطعمـــة الشهية؟

بسمة النور : إنهم شخوص الترف فى الأرض، ممن تراهم العيون، ومن الجائز – وإن كان الاحتمال ضئيلاً – أن يكون الطـــائر

الأزرق قد شرد فتريث عندهم قليلاً، لذلك لا تتعجل إدارة الماسة، وعلينا الآن دفعًا لوهم التقصير أن نستكشف هذا الجانب من الردهة.

هو : وهل نستطيع الاقتراب منهم؟

بسمة النور : نعم ولا ريب، فهم غير أشرار وإن كان فيهم من هو جلفٌ، ومن هو سيئ الأدب.

هى : عندهم فطائر لذيذة.

الكلب : ولحم صيد طرى ومقدد، وأزناد خراف وأكباد عجول، هذا أطيب طعام فى الدنيا، لا يفضله طعام آخر، فلا شىء يفضل أو يماثل كبد العجل.

الرغيف : إلا الخبز المصنوع من خالص دقيق القمح، عندهم أفخر صنف منه ما أجمل أرغفتهم! ما أجمل أرغفتهم، إنها أضخم منى.

قمع السكر : عفوًا عفوًا ومائة مرة عفوًا! اسمحوا لى، اسمحوا.. لا أريد أن أجرح شعور أحد ولكن أنسيتم أن الحلوى هى مجد هذه المائدة فلها من الرواء البديع ما يفوق – إن جاز لى هذا التعبير – كل شىء لا فى الردهة وحدها بل ربما فى أى مكان آخر.

هو : يا لسمة الرضى والسعادة البادية عليهم، لا يكف لهم هتاف وضحك وغناء، أظن أنهم قد رأونا.

[ويقوم فعلاً من المائدة نفر من شخوص الترف ويخطون بصعوبة مسندين أكراشهم بالأكف، ويتقدمون نحو تيلتيل وصحبته].

بسمة النور : [لتيلتيل] لا تخش شيئًا، إنهم أهل حفاوة وكرم ضيافة وأظن أنهم سيدعونك للعشاء معهم فلا تقبل دعوة ولا طعامًا، لئلا تنسى مهمتك.

هـو : ماذا؟ حتى ولا فطيرة واحدة صغيرة؟ إن فطائرهم تبدو شهية طازجة مسكرة، محشوة بالفاكهة، عامرة بالقشدة.

بسمة النور : إن عواقبها وخيمة فهى ستحطم إرادتك وينبغى أن تعرف كيف تضحى ببعض الأشياء فى سبيل أداء الواجب. فارفض بأدب، ولكن بحزم، ها هم قادمون.

[زعيم الترف يمد يده إلى تيلتيل].

زعيم الترف : مرحبًا بك يا تيلتيل، أهلاً وسهلاً.

هـو : [بدهشة] أتعرفنى إذن؟ من أنت؟

زعيم الترف : أنا زعيم الترف، أنا الثراء، إننى قادم نيابة عن إخوتى، أدعوك أنت وصحبك لتشريف مأدبتنا التى لا انقضاء لها، وستجد نفسك بين من هم أفضل وأصدق شخوص الترف فى

هذه الأرض، واسمح لى أن أقدم لـك
أهمهم، هذا هو صهرى ترف الحيازة
والتملك، وبطنه على هيئة الكمثـرى،
وهذا هو تـرف الغـرور والاكتفـاء
بالنفس، إنه يزهو بأوداجه المنتفخـة،
وهذا هو ترف الشرب حين لا عطش،
وهذا هو ترف الأكل حـين لا جـوع
وهما توأمان وأقدامهما مـن عيـدان
المكرونة، [يقومان بتحيـة تيلتيـل وهمـا
يترنحان] وهذا هو ترف الاستغناء عن
كل علم، وهو أصم كالصخر، وهـذا
هو ترف الاستغناء عن كل فهم، وهو
أعمى كجرذ الجحور، وهذا هو ترف
الترفع عن كل عمل، وهذا هو تـرف
الاسترسال فى النوم بعد الشبع منـه،
ولهما أيد من لباب الخبز وعيون مـن
مربى الخوخ، وهذا تـرف الضـحك

الغليظ، إن فمه مشقوق حتى الأذنين، ولا أحد يقاوم عدواه.

[يقوم بتحية تيلتيل وبدنه يرتج ويتلوى من الضحك].

هو : [يشير إلى ترف آخر منتح جانبًا] ومن هذا الذى لا يجرأ على التقدم ويدير لنا ظهره؟

زعيم الترف : لا تلح فى السؤال، إنه فى خجل، إذ لا يليق تقديمه للصغار [يمسك يد تيلتيل] ولكن تعال إذن، سنبدأ المأدبة من جديد، لقد تكررت عشرين مرة منذ الفجر، ولسنا فى انتظار أحد غيرك، هل تسمع كل الضيوف يهتفون بدعوتك، لا أستطيع أن أقدمهم لك جميعًا فهم عديدون، [يمنح ذراعيه للصبيين] اسمحا لى أن أقودكما إلى مقعدى الشرف.

هــو : شكرًا سيدى زعيم الترف، يؤسفنى أشد الأسف أننى غير قادر فى هذه اللحظة أن ألبى دعوتكم، إننا فى عجلة، فنحن نبحث عن الطـائر الأزرق، فلعلـك تعرف صدفة أين هو؟

زعيم الترف : الطائر الأزرق؟ انتظر إذن، نعم، نعم، أتذكر الآن، لقد سمعت عنه من قبـل، إنه فيما أظن طائر لا يؤكل، على كل حال إنه لم يمثل فوق مائدتنـا، ولكن لا تجهد نفسك، فلدينا أشـياء أخـرى أفضل منه، فتعال لتشـاركنا حياتنـا وتشهد كل ما تفعل.

هــو : وماذا تفعلون؟

زعيم الترف : كل فعالنا أن لا نفعل شـيئًا، فنحـن لا نرتاح ولو دقيقة، إذ ينبغى أن نأكل وأن نشرب وأن ننام، وكل هذا يستنفذ وقتنا كله.

هــو : وهل فى ذلك متعة؟

زعيم الترف : من كل بد، فليس فـــى الأرض متعــة سواها.

بسمة النور : أهذا هو اعتقادك؟

زعيم الترف : [يهمس إلى تيلتيل مشيرًا إلى بســمة النــور] من تكون هذه الشابة السيئة الأدب؟

[وفى أثناء الحوار السابق تحتفى شــخوص ثانوية من التــرف بالكلــب وقمــع الســكر والرغيف ويقودونهم إلى المأدبــة الصــاخبة وفجأة يلحظ تيلتيل صحبه وقد جلسوا علـــى المائدة فى إخاء مع بقية الضيوف، يــأكلون ويشربون ويترنحون].

هــو : [لبسمة النور] انظرى! إنهم على المائدة.

بسمة النور : نادهم وإلا كانت العاقبة وخيمة.

هــو : تيلو! تيلو! تعال هنا، تعال هنا حــالاً، ســامع؟ وأنت يا قمــع السكر، وأنت

يا رغيف من سمح لكما بالابتعاد عنى،
ماذا تفعلان هناك بغير إذن منى.

الرغيف : [وفمه محشور] ألا تستطيع مناداتنا بلهجة أكثر أدبًا.

هــو : يا للعجب! منذ متى تعلمت هذه الجرأة على؟ ماذا دهاك! وأنت يا تيلو. أهــذه هى الطاعة عندك؟ هيا، تعــال هنــا، اركع اركع ويأسرع مما تفعل.

الكلب : [وبصوت واطى ومن طرف المائــدة] أنــا حين آكل. لا أجيب أحــدًا ولا أســمع شيئًا.

قمع السكر : [بلهجة معســولة] اعذرنا، إننا لا نستطيع أن نخذل أصحاب بيت لهم مثل هــذا الظرف.

زعيم الترف : حلمك حلمك، إنهم يضربون لك المثل، فالضيوف ينتظرونك ونحن لا نقبــل الاعتذار، ســنرغمك بلطــف علــى

الجلوس، هيا يـــا شـــخوص التـــرف، ساعدونى، ادفعوه دفعًا إلى المائدة حتى ينعم بالسعادة رغم أنفه.

[تتقدم شخوص الترف وهى تترنح وتتماسك قدر جهدها وتهلل فى فرح وتجذب الصبيين وهما يقاومان، بينما يلـــف تـــرف الضـــحك الغليظ ذراعه على خصر بسمة النور].

بسمة النور : [إلى تيلتيل] أدر الماسة فقد آن الأوان.

[تيلتيل يستجيب لها، ما يكاد يـــدير الماســـة حتى يغمر المنظر ضياء لا وصف ولا حـــد لنقائه، كأنما تعكس عليـــه الملائكـــة لـــون أجنحتها الوردية، صـــاف رقـــراق، تنفـــك وتختفى عن مقدمة المنظر زخارفـــه الثقيلـــة وأستاره الصفيقة الأرجوانية، فتكشـــف عـــن حديقة ناعمة كأنها من عالم الخرافة، تسودها دعة وسكينة، هى أشبه شىء بصرح أقامتـــه مملكة النبات، ترتاح العين لانسجام خطوطه

وأبعاده، إنها حديقة ثرية بأغصان فتية يترقرق عليها الضياء، ملتفة ومتشابكة بلا فوضى، الزهور سكرى بطهارتها، ومياه صافية تنطق بالجذل وهى تصب وتسيل وتصطفق فى جداول جارية، كأنما تمد رحاب الهناء إلى حدود الأفق، تنهد مائدة العربدة ولا يبقى لها أثر، ستائر المخمل والحرير وتيجان شخوص الترف ما تكاد تتلقى أوائل أنفاس هذا الضياء المشعشع الذى يغمر المنظر حتى ترتفع وتتمزق وتتهاوى، وكذلك الأقنعة الضاحكة الملقاة تحت أقدام الضيوف وقد عرتهم الدهشة، وينشفط انتفاخ شخوص الترف تباعًا على مرأى العين انشفاط مثانة انفجرت، يتبادلون النظرات وأجفانهم تطرف من أثر هذا الضياء المجهول الذى تعشى له أبصارهم، وحينما

تتجلى لهم حقيقتهم ويرون أنفسهم شخوصًا
دميمة، رخوة، زرية تنبعث منهم صيحات
الخجل والوجل، تتبين الأذن بوضوح من
بينها صيحة ترف الضحك الغليظ بسبب
علوها على صيحات الآخرين، وترف
الاستغناء عن كل فهم يظل ساكنًا كل
السكون، على حين يضطرب زملاؤه وقد
أحسوا بالضياع، يتلمسون وسائل الهرب
بالاختفاء فى الأركان للتستر بعتمتها فيما
يأملون، ولكن سناء الحديقة الرائعة لم يترك
بها أثرًا لظل، فيعمد بعضهم فى يأسهم من
النجاة إلى اقتحام نذير الستارة الماثلة فى
ركن على اليمين، المنعقدة فوقها سقيفة باب
كهف شخوص البؤس، وكلما هم كل واحد
منهم فى رعبه بإزاحة الستارة قليلاً انبعث
من أغوار الكهف سيل من السباب واللعنات

والشتائم، أما الكلب والرغيف وقمع السكر فقد تخاذلوا وتدلت آذانهم وانضموا إلى صحبة الصبيين واختبأوا فى خجل وراءهما].

هو : [وهو يرقب فرار شخوص الترف] ما أبشع دمامتهم. إلى أين فرارهم؟

بسمة النور : جن جنونهم ولا ريب، إنهم يلجأون إلى شخوص البؤس وأخشى أن يحتجزوهم عندهم إلى الأبد.

هو : [يلتفت حوله مسحورًا بما يرى] ما أجملها من حديقة، ما أجملها من حديقة، ولكن أين نحن؟

بسمة النور : لم يتبدل مكاننا، إنما التبدل فى نظرة العيون، نحن الآن نشهد حقيقة الأشياء، سترى شخوص الهناء التى تتحمل سناء الماسة.

هـو : ما أبهى هذا المنظر وما ألطف هـذا الهواء، يخيل إلى أننا فى اعتدال الربيع، ما الذى أرى؟ من القادمون علينا من هناك، لعلهم سيعنون بأمرنا.

[وتبدأ الحديقة فعلاً بالامتلاء بشخوص ملائكية كأنما انفلتت من سبات طويل وتجوس بانسجام خلال الأشجار، عليها ملابس يشع منها ضوء له أطياف ترتاح العين لتناسقها وبهائها، تتفتح الزهور فى الحديقة، ويفتر ثغر الجداول، ويشرق سناء فجر وليد، ويتلألأ الندى].

بسمة النور : ها هى ذى فئة من شخوص الهناء قادمة إلينا، يدفعهم حب التطلع، ولكنهم أهل ظرف وسماحة، سنعلم منها الخبر.

هـو : وهل تعرفينهم؟

بسمة النور : نعم، أعرفهم جميعًا فإنى ألم بهم مرارًا دون أن يدركوا من أنا.

هــو : ما أكثرهم، ما أكثرهم، إنهم قــادمون من كل صوب.

بسمة النور : كانوا أكثر عددًا من قبل، فقد أضر بهم شخوص الترف.

هــو : لا ضير عليهم فقد بقى منهم عدد ليس بالقليل.

بسمة النور : وسترى كثيرًا غيرهم كلما طاف ضياء الماسة بالحديقة، فإن شخوص الهنــاء فى الأرض أكثر مما تظــن، ولكــن أغلب الناس لا ينتبه إليهم.

هــو : ها هم صغارهم يتقدمون إلينا، فلنجــر للقائهم.

بسمة النور : لا تتعب نفسك، فكل من يعنينا أمــره سيمر من هنا ولا يتسع وقتنا لمعرفــة الآخرين.

[صغار شخوص الهناء تتوثب وتتضاحك بملء الأفواه، تتقدم من مؤخرة الحديقة وترقص متحلقة حول الصبيين].

هــو : ما أوسمهم، ما أوسمهم، من أين أتوا؟ ومن هم؟

بسمة النور : إنهم شخوص هناء الأطفال.

هــو : هل لى أن أكلمهم؟

بسمة النور : لا داعى للكلام فهم لا يعرفون إلا الغناء والرقص والضحك، أما الكلام فلم يتعلموه بعد.

هــو : أهلاً أهلاً [إلى بسمة النور] انظرى إلى هذا الطفل السمين الضاحك ما أجمل خدودهم وما أبهى ملابسهم. أكلهم أثرياء؟

بسمة النور : كلا، هنا كما فى كل مكان يزيد الفقراء على الأغنياء.

هــو : وأين الفقراء بينهم؟

بسمة النور : لا تتبينهم العين لأن هنـــاء الأطفـــال ملفوف فى أجمـــل كساء فى الأرض أو فى السماء.

هــــو : [وهو لا يستقر فى مكانه] أريد أن أرقص معهم.

بسمة النور : هذا مستحيل، فليس لدينا وقت، إنـــى أرى أن الطائر الأزرق ليس عنـــدهم، وهم فوق ذلك فى عجلة، فأنت تراهم قد أخذوا فى الانصراف. وهم أيضًـــا وقتهم قليل لا يضيعونه هـــدرًا، فأمـــد الطفولة قصير.

[تهرع إلى الحديقة فئة من شخوص الهنـــاء أطول من السابقين، يتعـــالى غنـــائهم وهـــم يهتفون: ها هم قد أتوا، ها هم قد أتوا، إنهـــم يروننا، ثم يرقصون بمرح حـــول الصـــبيين وعند نهاية الرقصة يتقدم من هو فى الظـــن زعيم هذه الفئة الصغيرة نحو تيلتيل ويمد له يده].

الهناء : أهلاً بك يا تيلتيل.

هـو : مرة أخرى أجد من يعرفنى، [إلى بسمة النور] قد بدأت أن أكون معروفًا لدى الجميع هنا، [إلى الهناء] من أنت؟

الهناء : أنت لا تعرفنى؟ أراهنك أنك لا تعرف أحدًا منا هنا.

[بلا حرج] فعلاً، لا أعرف أحدًا، : هـو
فلا أذكر أنى رأيتك من قبل.

الهناء : [لزملائه] أتسمعون؟ كنت واثقًا أنه سيقول إنه لم يرنا، [تنفجر بقية شخوص الهناء بالضحك] ولكن يا عزيزى تيلتيل، أنت لا تعرف أحدًا غيرنا، نحن دائمًا من حولك، فى صحبتك، نأكل ونشرب ونصحو ونتنفس ونعيش.

هـو : نعم. نعم أنت على حق، أدركت الآن صدق ما تقوله، فإننى تذكرت ولكنى أود أن تنبئونى بأسمائكم.

الهناء : أرأيت أنك لا تدرك شيئًا، أنا هناء بيت الأسرة، بيتك، وزعيم كل هناء آخر يسكنه.

هو : أفي البيت أشكال أخرى من الهناء؟

[يضج شخوص الهناء بالضحك].

الهناء : هل سمعتم؟ يسأل أفي البيت هناء آخر، البيت يا بنى مكتظ بأشكال من الهناء حتى تكاد تفيض من سدود أبوابه ونوافذه، ونحن نزحمه بالضحك والطرب والفرح حتى لتكاد الجدران تتراجع أمامنا وحتى يكاد السقف يطير، ولكن مهما بذلنا من أنفسنا لك فأنت لا ترانا. أرجو أن يرجع عقلك لرأسك قليلاً من قادم، وإلى أن يحدث لك هذا تعال صافح أعياننا حتى إذا رجعت لبيتك سهل عليك تبينهم ثم تعرف فى نهاية يوم سعيد كيف

تشجعهم بابتسامة منك وتشكرهم بكلمة طيبة، لأنهم يبذلون كل جهدهم من أجل أن تنعم بحياة حلوة خفيفة الحمل، دعنى أقدم لك نفسى أولاً، خادمك المطيع: هناء المتمتع بالصحة والعافية، ولعل جمالى لا يفوق جمالهم بريقًا، ولكنى أهمهم، أتعرفنى الآن؟ وها هو هناء التمتع بالهواء الطلق، إنه يكاد يكون شفافًا، وها هو هناء تمتع الولد بمحبته لأبويه، ينم لون ثوبه الرمادى عن حشمته ولا يسلم من حزن طفيف لأن العيون قلما تأبه به، وهذا هو هناء التمتع بالسماء الزرقاء، ثوبه أزرق بطبيعة الحال، وهذا هو هناء التمتع بالغابة، وثوبه أخضر بطبيعة الحال أيضًا، ستراهم جميعًا إذا جلست إلى النافذة، وهذا هو هناء

التمتع بإشراق الشمس، له لون الماس، وهذا هو هناء التمتع بالربيع، إنه في لون الزمرد وبه طيش.

هو : هل لكم هذا الجمال كل يوم؟

الهناء : أي نعم، فكل الأيام يوم عيد في كل البيوت، إذا عرف أهلها كيف يفتحون عيونهم، ثم إذا حل المساء وأتاك أصحابي هؤلاء، دعني أقدمهم لك، هذا هو هناء التمتع بالغروب، وهو أبهى من كل ملوك الأرض، ثم يتبعه هناء التمتع بطلوع النجوم وثيابه من ذهب كآلهة الأقدمين، ثم إذا تكاثرت السحب وأتاك صاحبي هذا، إنه هناء التمتع بالمطر وثوبه مطرز باللؤلؤ، ومعه هناء التمتع بمدفأة الشتاء الذي يسدل على الأيدي المتثلجة وشاحه القرمزي،

ولكنى لم أحدثك عن أفضـــلنا جميعًـــا
لأنه يكاد يكون أخًا شقيقًا للنعم الكبرى
الصافية التى ستراها قريبًا، وأعنى به
هناء التمتع بفكر طاهر برىء، وهـــو
أكثرنا نقاء، وها هو هناء آخر، ولكن
ما أكثر من أحتاج إلى تقديمه إليـــك،
ولو فعلت لما انتهيت، فينبغى لـــى أن
أنبئ بمقدمكم النعم الكبرى المشـــرفة
علينا هناك، فى آخر الحديقة، بالقرب
من باب السماء، فإنها لا تعلم بعد أنكم
قد أتيتم، سأبعث إليهم بهنـــاء التمتـــع
بالجرى على قطرات النـــدى بأقـــدام
حافية، فهو أخفنا حركة [يخاطب الهنـــاء
الذى وقع عليه اختياره، فيتقدم مســـرفًا فـــى
الترحيب بالحركة والتوثب، ويستطرد الهناء
قائلاً له] هيا، طر إلى حيث أرسلتك.

[يتقدم فى هذه اللحظة هناء آخر، عار إلا من ستر أسود على خاصرته، يزاحم بقية شخوص الهناء وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة، ويقترب من تيلتيل وهو يتوثب، فيعابثه بوضع كفه على الأنف وتلعيب أصابعه، محاولاً صفعه أو ضربه بالقدم، وإذا هم تيلتيل بصده تملص منه].

هو : [وقد غلبته الدهشة والحنق] من هذا المتوحش؟

الهناء : أمرى لله، لا مفر من أن أقدمه لك، إنه هناء العفرتة، وقد هرب من كهف شخوص البؤس، لا ندرى أين نحتجزه، فإنه يهرب من كل محبس، بل إن شخوص البؤس ترفض إيواءه.

[يتمادى هناء العفرتة فى معاكسة تيلتيل الذى يحاول عبثًا صده عنه، ثم إذا به ينفجر فجأة بضحكة عالية وينصرف بلا دافع كما أتى].

هــو : ماذا به؟ هل أصابه مس من الجنون؟

بسمة النور : لست أدرى، والظاهر أن حالك يكــون كحاله حين تتحامق وتركب رأســك، ولكن بقى علينا أن نسأل عن الطــائر الأزرق فلعل زعــيم هنــاء البيــت لا يجهل مكانه.

هــو : [يسأل الزعيم] أين الطائر الأزرق؟

الهناء : صاحبنا لا يعرف الطائر الأزرق.

[تضج كل شخوص هناء البيت بالضحك].

هــو : [فى غضب] نعم، لا أعرف أيــن هــو، وليس فى هذا مدعاة للضحك.

[ضحكات أخرى].

الهناء : حلمك، لا تغضب، [ثم إلى بقية شــخوص الهناء] دعونا الآن نــتكلم بجــد، إنــه صادق فى قوله إنه لا يعــرف أيــن الطائر الأزرق. وما العجب فى ذلك؟

إنه ليس بأقل غفلة عن بقيـــة النـــاس، ولكن ها هو هناء التمتع بالجرى على قطرات الندى بأقدام حافية قد نقل النبأ إلى النعم الكبرى وها هى ذى تتقـــدم إلينا.

هـــو : ما أجملهن، لماذا لا يضـــحكن، أهـــن غير سعيدات؟

بسمة النور : لا يكون الضحك دائمًا دليلاً على فرط السعادة.

هـــو : من هن؟

الهناء : هن النعم الكبرى.

هـــو : أتعرف أسماءهن؟

الهناء : أعرفها بطبيعة الحال، فلطالما لعبـــت معهن، ها هى ذى أولاً وفـــى مقدمـــة الباقيات، نعمة القدرة على العدل، وهى تبتسم كلما رأت انتصارًا على ظلـــم، وأنا لصغر سنى لم أرها تبتسم بعـــد،

ومن ورائها نعمة طيبة القلب، هي أكثرهن سعادة وإن كانت أكثرهن أسى، ونحن لا نحتجزها إلا بمشقة عن مضيها لشخوص البؤس الذين تود أن تواسيهم، وعن اليمين نعمة الراحة في إنجاز العمل، بجانبها نعمة الفكر، ثم نعمة الفهم، وهي تبحث دائمًا عن شقيقها: ترف الاستغناء عن الفهم.

هو : ولكني رأيت شقيقها، إنه ذهب إلى شخوص البؤس مع شخوص الترف.

الهناء : كنت واثقًا من ذلك فإنه أصبح ضالاً أحمق من فرط معاشرته لقرناء السوء، فأصيبت طباعه بالشذوذ، ولكن حذار من أن تجيء سيرته على لساننا أمام شقيقته وإلا مضت تبحث عنه وفقدنا بذلك وجود نعمة كبرى بيننا، وها هي ذي أيضًا واحدة من النعم الكبرى إنها

نعمة رؤية الجمال أينما كـان، إنهـا تضفى كل يوم مزيدًا من بهاء أشعتها على الضوء الذى يغمر هذا المكان.

هــو : ومن هى الماثلة هناك، بعيـدًا، بـين السحب الوردية، لا أراها إلا إذا شببت غاية جهدى على أصابع قدمى.

الهناء : هذه هى نعمة القدرة على الحب، ولكن هيهات لك أن تتبينها كل التبين فأنـت ما زلت صغيرًا.

هــو : ومن هن الواقفات إلى الخلف، يمنعهن التهيب عـن التقـدم إلينـا، ولمـاذا وجوههن محجبة؟

الهناء : هى النعم التى لم يعرفها الإنسان بعد.

هــو : وماذا تديره الأخريات لنا، وما لهن قد انشققن صفين؟

الهناء : لاستقبال نعمة أخرى قادمة، لعلها أكثر النعم طهارة وصفاء.

هــو : ومن تكون؟

الهناء : ألم تتبين بعد؟ فأمعن النظــر إليهــا، وافتح عينيك ليطل منهما قلبك أيضًــا. هذه النعمة قد رأتك، إنها تجرى نحوك فاتحة لك ذراعيها، إنها نعمة الأمومة متمثلة فى أمك، وإن نعمــة الأمومــة ليس كمثلها نعمة أخرى.

[تتزاحم النعم حول نعمة الأمومة وترحب بها ثم تصطف بين يديها وتلزم الصمت تــوقيرًا لها].

نعمة الأمومة : تيلتيل وأنت يا ميتيل، كيــف أجــدكما هنا؟ لم أكن أتوقع لقاءكمــا، إذ كنــت أعانى من الوحدة فى البيت، فإذا بكما تعرجان إلى الســماء حيــث تتــألق بالسرور أرواح كل الأمهات، ولكــن لنتبادل العناق والقبلات، قبلات كثيرة، قدر ما نستطيع، ارتميا فــى حضــنى

فليس فى العالم سعادة أكبر من هـذه السعادة، لماذا لا تبتسم من البشر يـا تيلتيل، وأنت كذلك يا ميتيل، ألا تتبينان حـب أمكما، انظـرا إلى بإمعـان، ألا تريان عينى وشفتى وذراعى.

هـو : نعم، نعم، إننى أتبينها ولكن لـم أكـن أدرى، لك صورة أمنا ولكنك أجمـل منها.

نعمة الأمومة : هذا حق لأننى أصبحت لا أتقدم فـى الشيخوخة، وكل يوم يمضى يمنحنـى فيضًا من القوة والشـباب والسـعادة، وكل بسمة منكما ترفع مما مضى لـى من عمـر يثقل كاهلى سـنة بأكملها، لا يتبين لكما هذا فى البيت ولكن كـل شىء هنا متبين على حقيقته.

هـو : – تأخذه الدهشة ويتأمل أمه ويحضنها ويعانقها بدوره – مـا هـذا الثـوب

الجميل، من أى نسيج هو؟ أهـو مـن حرير أم من فضة أم من لؤلؤ..؟

نعمة الأمومة : كلا، إنه من حنو النظرات والقـبلات واللمسات، فكل قبلة تهبه شعاعًا مـن القمر أو من الشمس.

هـو : هذا عجيب، فلم أكن أحسب قط أنـك على مثل هذا الثراء، فأين إذن كنـت تخفين هذا الثوب الجميل، أفى الصوان الذى مفتاحه مع أبى؟

نعمة الأمومة : كلا، كنت ألبسه كل يوم، ولكن العـين لا تراه لأنهـا لا ترى شيئًا إذا كانت بلا بصيرة فكأنها مغمضة، هذا الثراء لكل أم تحب أولادها، فقيرة هى أم دميمة أم عجوز، فإن حب الأم لأولادها هو من بين النعم الكبرى أكثرها جمالاً وبهاء وكل سحابة من الحزن على وجـه أم يكفيها لكى تنقشع وتتبدد قبلة واحـدة

تهبها أو تنالها وتصبح الدموع نجومًا تتلألأ فى محجريها.

هـــو : [ينظر إليها فى دهشة] نعم، هذا حق، فإنى أرى نجومًا تتلألأ فى محجريك، إنهما عيناك كما عرفتهما ولكنهما الآن أكثر بهاء، وها هى ذى يدك أيضًا، وها هو ذا خاتمك، بل ها أنذا أرى أثر الحرق الذى أصابها ذات يوم وأنت تشـــعلين المصباح، ولكن زاد بياض هذه اليـــد وزاد صفاء بشرتها، كأنما يفج منهـــا النور. أهى تعينك الآن فى العمل كما كانت تفعل سابقتها فى البيت؟

نعمة الأمومة : نعم، فهى يد واحدة لم تتبدل، أفلم تكن تراها فلا البيت تتألق بالبياض ويفـــج منها النور كلما ربتت عليك بحنان؟

هــو : هذا عجيب يا أمى، هذا هو صــوتك بعينه، ولكن كلامك هنا أجمــل مــن كلامك فى البيت.

نعمة الأمومة : أنسيت كثرة مشاغلى فى البيت وزحمة العمل، ولكن إحساس القلب يغنى عن شهادة الأذن والآن وقد أبصرتنى فهل يا ترى ستتبين صورتى هذه إذا عدت للكوخ غدًا ورأيتنى فى ثيابى الممزقة؟

هــو : لا أريد أن أعود ما دمت أنــت هنــا، فإنى أحب أن أكون معك طوال بقائك فى هذا المكان.

نعمة الأمومة : الأمر سيان، لا فرق بين بقائنا معًا هنا وبين بقائنا معًا فى البيت، أنت وأنــا، أنت لم تأت هنا إلا لتدرك وتعرف فى أية صورة ينبغى لك أن ترانى حــين ترانى فى البيت، أفاهم أنت يا تيلتيل؟ أنت تحسب أنك الآن فى عالم علوى،

ولكن هذا العالم العلوى لم يكن ينقصنا من قبل كلما تبادلنا العناق والقبلات، ومعنى الأم لا يقبل التثنية، فليس لك أم سواى، لكل ولد أم واحدة لا تتبدل، هى عنده دائمًا أجمل الأمهات ولكن ينبغى له أن يدرك حقيقتها ويعرف كيف يراها، ولكن قل لى كيف فعلت حتى وصلت إلى هذا المكان .ووجدت طريقًا ظل الإنسان يبحث عنه منذ أن سكن الأرض؟

هـو : [مشيرًا إلى بسمة النور] هى التى قادتنى

[تتراجع بسمة النور متحشمة].

نعمة الأمومة : ومن تكون هى؟

هـو : إنها بسمة النور.

نعمة الأمومة : إذن هى صاحبتك التى سمعت عنها، يقولون إنها تحبك كثيرًا، وإنها طيبة

القلب. ولكن لماذا تتحجب؟ ألا تسفر عن وجهها أبدًا؟

هـو : نعم نعم، ولكنها تخشى أن يتزلزل الهناء إذا تجلت له الحقائق بفضلها.

نعمة الأمومة : ألا تدرى صاحبتك إذن أنها هى التى ننتظرها دون أحد سواها، [تنادى على بقية النعم] أقدمن يا أخواتى، أقدمن جميعكن، هذه هى بسمة النور جاءت أخيرًا لتزورنا.

[تزيط النعم وتهلل وهى تقترب].

النعم : بسمة النور هنا، بسمة النور هنا.

نعمة الفهم : [تزيح كل أخواتها لتنفرد بمعانقة بسمة النور] لم نكن ندرك أنك بسمة النور، فأنت إذن هى، لقد لبثنا ننتظرك زمنًا طويلاً، أتعرفيننى؟ إننى نعمة الفهم التى طالما بحثت عنك، إننى فى غاية

السعادة وإن كنت لا أرى أبعد من أنفى..

نعمة العدل : [تعانقها بدورها] هل تعرفينني؟ إننى نعمة العدل التى طالما ناشدتك العون، إننى فى غاية السعادة وإن كنت لا أرى أبعد من ظلى.

نعمة الجمال : [تعانقها كذلك] إننى نعمة القدرة على رؤية الجمال التى طالما هامت بك، إننى فى غاية السعادة وإن كنت لا أرى أبعد من مسرى أحلامى.

نعمة الفهم : كفى كفى يا أخواتى وإلا طال انتظارنا، نحن لا ينقصنا ثبات القوة، ولا تنقصنا سلامة الطوية، [مخاطبة بسمة النور] هيا، انزعى كل الأحجبة التى تخفى عنا بقية الحقائق، وبقية النعم، ها أنت ذى ترين كل أخواتى

راكعات عند قدميك، فأنت مليكتنا، وأنت ثوابنا.

بسمة النور : [وهى تمعن فى حجب وجهها] أخواتى، أخواتى، الجميلات، إن لى مولى أطيعه، لم يحن الوقت بعد، لعله يحين فيما بعد، حينئذ سأقبل عليكن بلا خشية، منفلتة من حجب الظلال، فوداعًا، انهضن نتبادل العناق، مرة بعد أخرى، شأن شقيقات اجتمعن بعد فراق، انتظارًا منا لليوم الموعود.

نعمة الأمومة : لن أنسى كرم رعايتك لولدى الحبيبين.

بسمة النور : إننى سأرعى دائمًا كل أناس يحب بعضهم بعضًا.

نعمة الفهم : لتكن آخر قبلاتك قبلة على جبينى.

[تتبادلان العناق طويلاً ثم تنفصلان فإذا العيون دموع تترقرق].

هـــو : [بدهشة] لماذا تبكيان؟ [ينظر إلـــى بقيـــة النعم] وأنتن أيضًا، لم البكاء، لماذا لـــم تبق واحدة لم تترقــرق فـــى عينيهـــا الموع؟

بسمة النور : اسكت يا بنـى...

[ستــــــار]

الفصل الخامس

المنظر العاشر: عالم الغد

[بهو فسيح فى قصر الأثير، حيث يقيم الأطفال الذين لم يولدوا بعد، على مد النظر أعمدة من الياقوت تسند عقودًا من الزمرد، كل مـــا فـــى البهو من ضوء وعتبات لازوردية، وشعشعة نهاية البهو حيث تتراجـــع الأعمدة، وتتبهم أواخرها: كل الأشياء كبيرها وضئيلها تجللها غلالة مـــن زرقة لطيفة كأنها من عمل السحر أو من نسج الخيال، يشذ عـــن ذلـــك قواعد الأعمدة وتيجانها والأحجار واسطة العقـــود وبعـــض الكراســـى والمقاعد الدائرة فإنها من الرخام أو المرمر، إلى اليمين، بـــين الأعمـــدة أبواب ضخمة من العقيق، هذه الأبواب التى سيفتحها الدهر قبـــل ختـــام المنظر فتتكشف الحياة على الأرض ومطالع الفجر، يتناثر بتناسق فى كل أرجاء البهو حشد من الأطفال، يلبسون ثيابًا فى زرقة السماء، بعضـــهم

يلعب، وبعضهم يتمشى، وبعضهم مستغرق فــى الحــديث أو الأحــلام، وكثير منهم فى سبات، وكثير منهم أيضًا يشتغلون بين الأعمدة بتجــارب تسفر عن مخترعات الغد، ما يصنعونه من أدوات وعدد وأجهزة، ومــا يزرعونه أو يجنونه من نبات وزهور وفاكهة تلفها جميعًا غلالــة مــن الزرقة السماوية التى تجلل البهو كله، تجوس بين الأطفال فــى صــمت شخوص كأنها من ملائكة، لها قامة مديدة، وبهاء رائع مطمئن.

يدخل من اليسار، وكأن الدخول خلسة، بالتسحب خلف الأعمدة فــى مقدمة المسرح كل من تيلتيل وميتيل وبسمة النور فيثور لــدخولهم بــين الأطفال هرج ومرج، ثم يهرعون إليهم من كل صوب، ويتحلقون حــول هؤلاء الزوار الأغراب وينظرون إليهم بدهشة].

هــو : أين قمع السكر والهرة والرغيف؟

بسمة النور : ليس من شأنهم الــدخول هنــا، فلــو تركناهم يــدخلون لعرفــوا المســتقبل ورفضوا الطاعة.

هــو : والكلب؟

بسمة النور : يحسن أيضًا أن لا يعلم مــا ينتظــره على مر القرون، لقد جمعتهم كلهم فى قبو الكنيسة.

هــو : وأين نحن؟

بسمة النور : نحن فى عالم الغد، بين الأطفال الذين لم يولدوا بعد، وبما أن الماسة ستتيح لنا أن نبصر هنا بوضوح كل ما يعجز الإنسان عن رؤيته فإننا فى أغلب الاحتمال سنعثر على الطائر الأزرق.

هــو : عسير أن لا يكون أزرق اللون، فهذا هو لون كل شىء هنا (يتأمل فيما حوله) ما أجمل هذا المشهد.

بسمة النور : انظر إلى الأطفال الذين يجرون إليك.

هــو : هل أغضبهم حضورنا؟

بسمة النور : كلا، فأنت ترى أنهم يبتسمون ولكنهم فى دهشة.

الأطفال الزرق : [يجرون إليهم وقد تكاثر عددهم] أحياء صغار، تعالوا وانظروا الأحياء الصغار.

هــو : لماذا يسموننا بالأحياء الصغار؟

بسمة النور : لأنهم لم يصبحوا بعد من الأحياء.

هــو : وماذا يفعلون إذن؟

بسمة النور : إنهم ينتظرون ساعة مولدهم.

هــو : ساعة مولدهم.

بسمة النور : نعم، فهنا يتجمع كل الأطفــال الــذين يولدون فى الأرض، وكل واحد منــه ينتظر ساعته، وحــين يــود الأبــاء والأمهات أن يرزقوا بأطفال فإن هــذا الباب الكبير الذى تراه هنــاك، علــى اليمين، ينفتح ويخرج منه هبتهم مــن الأطفال.

هــو : ما أكثر عددهم، ما أكثر عددهم؟

بسمة النور : وهنــاك كثــير أيضًا غــيرهم، فنحن لا نراهم كلهم، تخيل عــدد الأطفــال الذين سيعمرون الأرض إلــى آخــر الدهر، لا أحد يقوى على إحصائهم.

هــو : ومن هى تلك الشخوص الزرق؟

بسمة النور : لا يدرى أحد أمرها على وجه التحقيق، يقال إنها الحارسات الحفظة، وعهدها بالأرض يأتي بعد عهد البشر، غير أنه لا يجوز لنا أن نستجوبها.

هو : ولماذا؟

بسمة النور : لأن ما عندها هو سر الأرض.

هو : وما القول في الصغار؟ هل نستطيع أن نكلمهم؟

بسمة النور : نعم، وينبغي أن نتعارف، انظر، ها هو ذا واحد منهم أشد من الآخرين تطلُّعًا إليك فاقترب منه وكلمه.

هو : وماذا أقول له؟

بسمة النور : ما شئت، كأنما تتحدث إلى رفيق.

هو : وهل لي أن أصافحه؟

الطفل الأزرق : بطبيعة الحال. فهو لن يؤذيك، ولكن عجبًا لك، لم هذا التهيب، سأترككما

وحدكما لتجد راحتك معه، ثم لابد لى من أن أتحدث مع الشخوص الزرق.

هــو : [يقترب من الطفل الأزرق ويمد له يده] أهلاً وســـهلاً، [يلمس بأصـــبعه ثوبــه الأزرق] ما هــذا؟

الطفل الأزرق : [يلمس بجد قبعة تيلتيل] وما هذه؟

هــو : هذه هى قبعتى، أليس لك قبعة؟

الطفل الأزرق : لا، وفيم لبس القبعات؟

هــو : خلعها يعنى الإشارة بالتحية، ثم إنهـــا تنفع فى البرد.

الطفل الأزرق : ما هو البرد؟

هــو : حين يرتجف جسدك هكذا [يقلـــد تيلتيـــل حركة ارتجاف المقرور] وحين تنفخ فـــى كفيك وتطوح بذراعيك هكـــذا [يطـــوح تيلتيل بذراعيه].

الطفل الأزرق : هل فى الأرض برد؟

هــو : نعم، فى فصل الشتاء، حين لا حطــب فى المدفأة.

الطفل الأزرق : ولماذا لا يكون فيها حطب؟

هــو : لأنه غالى الثمن ولابــد مــن نقــود لشرائه.

الطفل الأزرق : ما النقود؟

هــو : هى الشىء الذى ندفع به.

الطفل الأزرق : فهمت.

هــو : وبيننا من عنده نقود، وبيننا من لــيس عنده نقود.

الطفل الأزرق : ولماذا؟

هــو : لا نقود إلا عند الأغنياء، هــل أنــت غنى؟ كم عمرك؟

الطفل الأزرق : سأولد عما قريب، بعد عشر ســنوات، كيف وجدت أنت الولادة، هل طبــت بها؟

هــو : نعم وسررت أيضًا.

الطفل الأزرق : وماذا فعلت لتنالها؟

هـو : لم أعد أذكر، فقد مضى عليها وقت طويل.

الطفل الأزرق : سمعنا كلامًا كثيرًا عن جمال الأرض وجمال الأحياء.

هـو : صدقت، فأنا لا أشكو من شيء، فعندنا طيور وكعك ولعب، بعض الأولاد عندهم كل هذا، ومن ليس عنده يستطيع أن يتمتع برؤيتها في يد الآخرين.

الطفل الأزرق : سمعنا أن الأمهات يقفن بالأبواب لمراقبتنا، يقال إنهن طيبات القلب، أحق هذا؟

هـو : نعم، الأمهات أبدع شيء في الأرض، والجدات أيضًا، غير أن الموت يتخطف الجدات سريعًا.

الطفل الأزرق : تقول الموت؟ ما الموت؟

هـو : رحيل ذات مساء بلا عودة،

الطفل الأزرق : لماذا؟

هـو : لا أحد يدرى، لعل الدافع على الرحيل هو طلب النجاة من الأحزان.

الطفل الأزرق : وهل رحلت عنكم من تسميها جدتك؟

هـو : نعم، وكانت طيبة القلب جدًّا.

الطفل الأزرق : ماذا جرى لعينك، إنهما تذرفان لؤلؤاً.

هـو : ليس لؤلؤاً..

الطفل الأزرق : ما هو إذن؟

هـو : لا شيء سوى أثر انبهار بصرى من انتشار الزرقة حولى.

الطفل الأزرق : وما اسمه؟

هـو : اسم ماذا؟

الطفل الأزرق : هذا الذى يترقرق فى عينيك.

هـو : ما هو إلا قطرات من الماء.

الطفل الأزرق : وهل ينبع من العينين؟

هـو : نعم، أحيانًا، عند البكاء.

الطفل الأزرق : تقول البكاء؟ ما البكاء؟

هـو : إننى لم أبك، الذنب ذنب الزرقة من حولى، ولو بكيت لكان حالى أيضًا كما ترى.

الطفل الأزرق : وهل يبكون عندكم كثيرًا؟

هـو : الصبيان لا يبكون، أما البنات... وهل عندكم أنتم بكاء؟

الطفل الأزرق : كلا، ولا أعرف كيف أبكى.

هـو : صبرًا، ستعرف فيما بعد، بماذا تلعب، ما هذه الأجنحة الكبيرة؟

الطفل الأزرق : هذه؟ إنها من أجل الاختراع الذى سأقوم به فى الأرض.

هـو : أى اختراع هو؟ هل اخترعت شيئًا؟

الطفل الأزرق : نعم، أفلا تدرى؟ حين أحل بالأرض ينبغى لى أن أخترع الشىء الذى يهب السعادة.

هــو : أهو شىء لذيذٌ أكلــه، أم شـــىء لـــه ضجيج؟

الطفل الأزرق : كلا، لا حس له.

هــو : يا للخسارة..

الطفل الأول : إننى أشتغل به كل يــوم، وأكــاد الآن أنجزه، هل تريد أن تراه؟

هــو : طبعًا، أين هو؟

الطفل الأزرق : هناك بين عمودين، يمكنك أن تراه من هنا.

[يقترب طفل أزرق آخر من تيلتيل ويشده من كمه].

الطفل الثانى : هل تريد أن ترى اختراعى أنا أيضًا؟

هــو : نعم، وما هو؟

الطفل الثانى : الوصفات الأربع والأربعون لإطالــة الحياة، إنها فى هذه الزجاجة الزرقاء.

طفل ثالث : [يخرج من الحشد] أما أنا فسأسلط نــورًا لا يعرفه أحد [يسطع جسمه بنور عجيــب] أليس هذا بغريب؟

طفل رابع : [يشد تيلتيل من ذراعــه] تعال لكى تــرى الآلة التى اخترعتها، إنها تحلــق فــى الهواء كأنها طائر بلا جناح.

طفل خامس : صبرًا صــبرًا، تعــالوا أولاً لتــروا اختراعى أنا، إنـــه يكشــف الكنــوز المخبوءة فى القمر.

[يتزاحم الأطفــال حــول تيلتيــل وميتيــل ويناشدهما كل واحد مــنهم بالبــدء برؤيــة اختراعه أولاً، وتخــتلط الأصــوات فيقــول صوت "إنه أجمل اختراع" ويقول صوت "إنه أعجب اختراع" ويقول صوت "إنه متشكل من السكر" ويقول صوت "إن سر اختراعى فــى بساطته" ويقول صوت "لقــد ســرقوا منــى فكرتى".

وفى هذا الضجيج يشدون تيلتيل وميتيل
إلى ناحية المعامل الزرق حيث يدور كل
طفل آلته المدهشة فتدور فى جو أزرق
عجلات وأسطوانات وتروس وأشياء عجيبة
لم تجد لها اسمًا إلى اليوم، كأنها فى عالم من
صنع الخيال، آلات كثيرة غريبة مجهولة
السر تنطلق وتحوم أعلى البهو أو تزحف
على الأرض حول الأعمدة على حين ينشغل
بعض الأطفال الزرق ببسط لفائف الخرائط
والرسوم وتقليب صفحات الكتب وإزاحة
الستار عن تماثيل زرق وتناول زهور
ضخمة وفواكه هائلة الحجم وكأنها من ياقوت
وزمرد].

الطفل الأزرق : [وهو رازح تحت حمل زهرة زرقاء ضخمة]
انظروا إلى أزهارى.

هــو : ما هذه الأزهار؟ لا عهد لى بها.

الطفل الأزرق : إنها من زهور الربيع.

هــو : مستحيل، إنها كبيرة كعجلة القطار.

الطفل الأزرق : وما أزكى عطرها؟

هـو : [يشمها] هائل جدًا.

الطفل الأزرق : ستكون الأزهار هكذا حين أنزل إلى الأرض.

هـو : متى إذن؟

الطفل الأزرق : بعد ثلاث وخمسين سنة، وأربعة شهور، وتسعة أيام.

[ويأتي اثنان من الأطفال الزرق يحملان عنقودًا عجيبًا من العنب، حباته في حجم الكمثرى وكأنه ثريا بللورية ضخمة].

أحد الطفلين : وما رأيك في فاكهتي؟

هـو : أهو عنقود من الكمثرى؟

الطفل : كلا، إنه عنقود من العنب، وسيصبح كل عنب هكذا حين أبلغ الثلاثين من عمري، فقد اكتشفت السر.

طفل آخر : [ينوء بحمل قفص به تفاح في حجم البطيخ] انظرني أنا، هل ترى تفاحي؟

هــو : إنه بطيخ لا تفاح.

الطفل : كلا، إنه تفاحى، وهو ليس أفضل ما عندى، كل تفاح سيكون هكذا حين أصبح بين الأحياء، فقد اهتديت إلى السر، وسأكون بستانى الملك صاحب الأفلاك التسعة.

هــو : الملك صاحب الأفلاك التسعة؟ أين هو؟

الملك : [يتقدم بخيلاء، عمره أربع سنوات فيما يبدو] لا يكاد يملك الوقوف على ساقيه الصغيرتين المعوجتين، هو أنا.

هــو : ولكنك غير كبير السن.

الملك : [بلهجة ملؤها الجد والعتاب] غير أن كل الذى سأفعله سيكون كبيرًا.

هــو : أى شىء ستفعل؟

الملك : سأؤسس الاتحاد العام للأفلاك السماوية.

هـو : [ملحًا فى السؤال] حقًا؟

الملك : كلها ستصبح أعضاء فى الاتحاد ما عدا المشترى وأورانيوس ونيبتون فهى على بعد مهول يجل عن القياس.

هـو : شىء بديع.

طفل أزرق : هل ترى هذا الطفل هناك؟

هـو : أيهم؟

الطفل : هناك، الطفل الصغير النائم عند قاعدة عمود.

هـو : وما خبره؟

الطفل : إنه سيهب الفرح للأرض.

هـو : وكيف؟

الطفل : بأفكار لم تتولد بعد.

هـو : وهذا الطفل السمين الذى يدس أصبعه فى أنفه، ماذا سيفعل؟

الطفل : سيكشف النار التى تستمد منها الأرض دفئها إذا ما وهنت حرارة الشمس.

هـو : وهذان الطفلان اللذان لا يكفان عن تبادل العناق وقد شد كل منهما على يد الآخر. هل هما أخ وأخت؟

الطفل : كلا، إنهما طفلان نحن فى حيرة من أمرهما، إنهما هما العاشقان.

هـو : وما معنى العاشقان؟

الطفل : لست أدرى، هكذا يسميهما الدهر، من قبيل السخرية بهم، لا عمل لهما طول اليوم إلا تبادل النظرات والقبلات وتنهدات الوداع.

هـو : ولماذا؟

الطفل : لأنهما لن يتاح لهما فيما يبدو أن ينزلا إلى الأرض معًا.

هـو : وهذا الطفل أبو الخدين الموردين الذى يمص إبهامه وقد بدت عليه إمارات الجد. من هو؟

الطفل : إنه – فيما يبدو – المكلف بمحو المظالم من على وجه الأرض.

هـو : حقًا؟

الطفل : يقال إنه عمل شاق.

هـو : وهذا الطفل الأشقر الذى يمشى وكأنه لا يرى شيئًا، هل هو مصاب بالعمى؟

الطفل : لم يصبه للآن ولكن سيصبه فيما بعد، تأمله جيدًا، إنه فيما يبدو المكلف بالانتصار على الموت.

هـو : ماذا سيعمل؟

الطفل : لست أدرى على وجه اليقين، ولكن يقال إن عمله سيكون هائلاً.

[يشير تيلتيل إلى أطفال نائمين عند قواعد الأعمدة، وفوق الدرج وعلى المقاعد].

هــو : وكل هؤلاء النائمين، وما أكثر النائمين هنا، ألن يكون لهم عمل؟

الطفل : إن ذهنهم هو الذى يعمل الآن.

هــو : من أجل ماذا؟

الطفل : إنهم لا يدرون بعد، ولكن ينبغى لهم أن يمنحوا الأرض شيئًا فممنوع علينا هنا أن نخرج إلى الأرض وجعبتنا فارغة.

هــو : ومن الذى يمنعكم؟

الطفل : إنه الدهر الذى يقف بالباب وسترى حين يفتحه أنه لا يترفق بنا.

[طفل يجرى من مؤخرة البهو يشق الحشد].

الطفل : أهلاً يا تيلتيل.

هــو : عجبًا، كيف عرفت اسمى.

الطفل : [وهو يلهث ويرشق تيلتيل وميتيل بقبلات حارة] أهلاً بكما، كيف حالكما، تعال يا تيلتيل عانقنى، وأنت أيضًا يا ميتيل،

ليس من العجيب يا تيلتيل أن أعرف اسمك إذ إننى سأكون أخاك، لم أسمع إلا الآن بمقدمك، كنت فى نهاية البهو منشغلاً بجمع أفكارى وحزمها، قل لأبى إننى مستعد.

هــو : كيف؟ أعازم أنت على المجىء عندنا؟

الطفل : طبعًا السنة القادمة، فى عيد الفصح، أرجوك أن لا تعذبنى كثيرًا فى طفولتى بينكم، ويسعدنى أن استطعت عناقكما مقدمًا، وقل لأبى أن يصلح المهد، هل الأحوال عندكم طيبة؟

هــو : لا بأس بها، وأمى طيبة القلب جدًا.

الطفل : والطعام؟

هــو : أنت وبختك، وقد تأكل فى بعض الأيام فطائر حلوة، أليس كذلك يا ميتيل.

هـــى : فى الأعياد وأمنا هى التـــى تصـــنعها بيدها.

هـــو : ما هذا الذى وضـــعته فى كيســـــك. ما الذى ستأتى به إلينا؟

الطفل : سأتى ومعى ثلاثة أمراض: الحصبة، والسعال الديكى والحمى القرمزية.

هـــو : كفاية كفاية، ثم ماذا أنت فاعل بنفسك بعد ذلك؟

الطفل : بعد ذلك سأرحل.

هـــو : لم يكن هناك إذن داع للمجىء.

الطفل : وهل لنا خيار؟

[يعلو فى هذه اللحظة ثـــم ينتشـــر صـــوت بللورى له ذبذبة متصلة قوية ينبعث فيما يبدو من الأعمدة والأبواب العقيقية وقـــد غمرهـــا نور أشد سطوعًا].

هـــو : ما هذا؟

الطفل : هذا هو الدهر، إنه يوشك أن يفتح الأبواب.

[يشيع الهرج والمرج بين الأطفال، يترك أغلبهم آلاتهم وأعمالهم، النائم منهم يستيقظ، ويحول الجميع أبصارهم نحو الأبواب العقيقية ثم يقتربون منها].

بسمة النور : [وقد عادت إلى تيلتيل] هيا نحاول الاختفاء وراء الأعمدة، إذ ينبغي أن لا يكتشف الدهر وجودنا هنا.

هو : من أين ينبعث هذا الصوت؟

الطفل : إنه الفجر وقد أوشك أن يطلع، إنها الساعة التى ينزل فيها إلى الأرض كل طفل سيولد اليوم.

هو : وكيف ينزلون؟ هل هناك سلم؟

الطفل : سترى، انظر إلى الدهر، إنه يشد المزلاج.

هو : ومن هو هذا الدهر؟

الطفل : إنه رجل شيخ، ينادى الأطفال النازلين.

هو : وهل هو شرير؟

الطفل : كلا، لكنه لا يسمع لنا قولاً فإنه رغم التوسل يصد كل راغب فى النزول إذا لم يكن قد أتى دوره.

هو : وهل يسعدهم هذا النزول للأرض؟

الطفل : على كل حال لا يسعدنا البقاء هنا إذا حرمنا من النزول للأرض. غير أننا حين ننزل نشعر بمسحة من الحزن.. انظر انظر، هذا هو الدهر يفتح الأبواب.

[تتفتح الأبواب على مصاريعها ببطء، وتصل إلى الأسماع من بعيد ضجة الأرض كأنها أنغام موسيقية].

الدهر : [فى هيئة شيخ له لحية طويلة يحمل منجلاً وساعة رملية، يظهر عند الباب ثم تلوح

أطراف أشرعة بيض وذهبية لسفن راسية على أرصفة منعقدة من أنفاس الفجر الندية، يتكلم وهو على عتبة الباب] هل استعد كل من دقت ساعته؟ [يهرع إليه أطفال زرق وهم يشقون الحشد من كل جانب].

الأطفال : مستعدون، مستعدون، مستعدون.

الدهر : [في صوت أجش غضوب، يقول للأطفال وهم يمرون أمامه استعدادًا للنزول] واحدًا واحدًا، لقد تقدم منكم عدد أكثر مما ينبغي، الحال لا يتغير، ولكن هيهات أن يستغفلني أحد، [يصد طفلاً] ليس هذا دورك، عد، فموعدك غدًا، وأنت كذلك مثله، إن موعدك بعد عشر سنوات، ماذا؟ أراع آخر يريد النزول، إنه الثالث عشر ولا يلزمنا إلا اثنا عشر فقد انقضى عهد الرعاة، وهذا حشد من الأطباء، سبق أن نزل منهم أكثر

مما يلزم أهل الأرض حتـــى جـــأروا بالشكوى. وأين المهندســـون؟ هنـــاك حاجة لرجل أمين بينهم، رجل واحـــد، يكون بمثابة المعجزة فى الأرض، فأين هو هذا الرجل الأمين؟ [يشير إلى طفـــل قائلاً] أنت؟ [تفيد هزة من رأس الطفل أنـــه يقول نعم] ولكنك نحيف، ولـــن تعـــيش طويلاً وأنتم [مشيرًا إلى أطفال يتزاحمـــون على النزول] أنتم هنـــاك، لا تســـرعوا هكذا، [إلى طفل] وأنت مـــاذا ســـتحمل للأرض؟ لا شـــىء؟ يدك خـــلو؟ إذن لا نزول لك، عليك أن تعد لأهـــل الأرض شيئًا حتى ولو جريمة كبيرة إذا شئت، أو عدوى وباء، فـــالأمر لا يعنينـــى، وسيان عندى هذا وذاك، ولكن لابد من أن تحمل لهم شيئًا إن أردت النـــزول،

[يقع بصره على طفل يدفعه الآخرون للأمام وهو يغالبهم بجهد] وأنت ماذا بك؟ أنت تعلم حق العلم أن الساعة ساعتك فهناك طلب لبطل يحارب الظلم، فأنت من يجب عليه النزول.

الأطفال : إنه لا يريد النزول يا سيدنا.

الدهر : كيف؟ لا يريد النزول؟ أين يحسب نفسه هذا المسخ؟ ألا يعلم أن لا شفاعة ولا شفيع هنا؟ [إلى الطفل] هيا هيا، فليس لدينا وقت.

الطفل المتأبى على النزول : لا. لا. لا أريد، أحب أن لا أولد، أفضل البقاء هنا.

الدهر : لا دخل هنا لحبك أو لكرهك، إذا أزفت الساعة فليس منها مفر، هيا، إلى الأمام، أسرع...

طفل آخر يتقدم : دعونى أمر، سآخذ دوره، فقد سمعت أن أبوى عجوزان وأنهما ينتظرانني منذ أمد طويل.

الدهر : دعنا من هذا، فالساعة هى الساعة، والدهر هو الدهر، لو أصغيت لكم لما فرغت، هذا يريد وذاك لا يريد، هذا متعجل، وذاك متباطئ [يزيح عن عتبة الباب كل الأطفال المتزاحمين عليها] لا تقتربوا كثيرًا يا أولاد، إلى الوراء كل فضولى، من لم يأت دوره لا شأن له بما وراء الباب، أنتم الآن تتلهفون على الخروج وحين يجىء دوركم إذا بكم تنكصون فى خوف انظروا، ها هم أربعة أطفال يرتعشون كورقة فى مهب الريح [إلى طفل لم يكد يهم بالخروج حتى عاد أدراجه] ماذا بك؟

الطفل : نسيت الصندوق الذى وضعت فيه الجريمتين اللتين سأرتكبهما فى الأرض.

طفل آخر : ونسيت أنا القمقم الذى وضعت فيه الفكرة التى ستنير للناس طريقهم.

الطفل الثالث : ونسيت أنا البذرة التى ستطرح أجمل الكمثرى.

الدهر : أسرعوا وأتوا بها، لم يبق أمامنا إلا اثنان وسبعون ثانية، إن سفينة الفجر تهز شراعها دلالة على أنها تستعجلنا، إذا تأخرتم أقلعت دونكم ولم تولدوا، هيا هيا، انزلوا إلى السفينة [يمسك بطفل يحاول المروق من بين ساقيه ليركب السفينة] ماذا أفعل بك؟ لقد عيل صبرى، هذه ثالث مرة تحاول فيها أن تولد قبل دورك احذر أن تقع يدى عليك مرة أخرى وإلا سيكون انتظارك أبديا،

ويكون مقامك فى جوار أخــى الأزل،
وأنت تعلم أنه مقام صعيب، دعــونى
الآن لعملـــى، هــل نحــن جميعًــا
مستعدون؟ هل كل واحد منا فى مكانه؟
[تستعرض نظرته الأطفال الذين تجمعوا على
الرصيف أو جلسوا فى السـفينة] ينقصــنا
واحد، يختبئ كما يشــاء فــإنى لابــد
واجده رغــم الزحــام، فهيهــات أن
يستغفلنى أحد فهيا، أنت هنــاك أنــت
الذى يسمونه بالعاشــق، قــل وداعًــا
لعشيقتك وتعال [زوج العشاق وهما فــى
عناق طويل، لكل منهما وجه محنــق يــائس
يتقدمان نحو الدهر ويركعان أمامه].

البنت : دعنى يا سيدى أرحل معه.

الولد : دعنى يا سيدى أعش معها.

الدهر	:	مستحيل، لم يبق أمامنـــا إلا ثلاثمايـــة وأربع وتسعون ثانية، وليس لأحد منكم خيار هنا.
البنت	:	سيدى، سيكون نزولى إلى الأرض بعد فوات فرصة اللقاء.
الولد	:	لن أكون هناك حين تنزل هى.
البنت	:	لنِ تتاح لى رؤيته بعد اليوم.
الولد	:	سيعيش كل منا فى الأرض وحيدًا.
الدهر	:	كل هذا لا يعنينى، قدما التماسكما إلى الحياة أما أنا فـــأجمع وأفـــرق تنفيـــذًا للأوامر، (يمسك بالولد ويقـــول لـــه: تعال).
الولد	:	لا. لا. خذها هى أيضًا.
البنت	:	[تتشبث بثياب الولد] دعه لى، دعه لى.
الدهر	:	رشادكما! إننى لا أقوده للمـــوت! بـــل للحياة [يجر الولد قائلاً له: تعال تعال].

البنت : [تمد يدها بيأس نحوه] اجعل لى علامـــة، علامة، قل لى كيف ألقاك؟

الولد : سأحبك إلى الأبد.

البنت : سأكون سقيمة من الحزن، وهذه هـــى علامتى التى ستعرفنى بها.

[تسقط وتظل منطرحة الأرض].

الدهر : تجملى، فهذا أفضل لـــك، والآن قـــد انتهينا [ينظر إلى ساعته الرملية] لم يبـــق أمامنا إلا ثلاث وستون ثانية.

[يشتد آخر هرج ومرج للأطفـــال الـــراحلين والباقين، تبادل لعناق الوداع فى عجلة "إلـــى اللقاء يا بيير" – "إلى اللقاء يا جـــان" "هـــل أخذت كل ما يلزمك؟" – "بشر بأفكـــارى" – "ألم تنس شيئًا" – "لاتنس أن تلقانى هنـــاك" – "سأهتدى إليك" – "إياك أن تفقـــد فكرتـــك" – "احذر أن تميل كثيرًا وأنت تطل مـــن حافـــة

السفينة على الفضاء" – "ابعث لنا بأخبارك" – "أخبرنا هل الحال طيب هناك" – "ستجدنى فى لقائك" – "سأولد على عرش إلخ، إلخ"].

الدهر : [وهو يهز منجله ومفاتيحه] كفى، رفعت السفينة أنجرها وأوشكت على الإقلاع.

[يمر شراع السفينة ثم يختفى، ونسمع تهليل راكبيها وهى متباعدة: "الأرض، الأرض، إنى أراها إنها جميلة" إنها مضيئة، إنى أراها إنها جميلة" إنها مضيئة، إنها كبيرة، ثم تنبعث وكأنما من قرار سحيق أغنية تأتى من بعيد كلها مرح وترقب].

هو : [إلى بسمة النور] ما هذة الأغنية؟ إنها ليست فيما يبدو من غناء الأطفال الراحلين، فالصوت مختلف.

بسمة النور : نعم، هذه أغنية الأمهات المتطلعات للقاء الأطفال.

[يغلق الدهر الأبواب العقيقية ثم يلتفت ليلقى آخر نظرة على البهو فإذا به يفاجأ بتيلتيل وميتيل وبسمة النور].

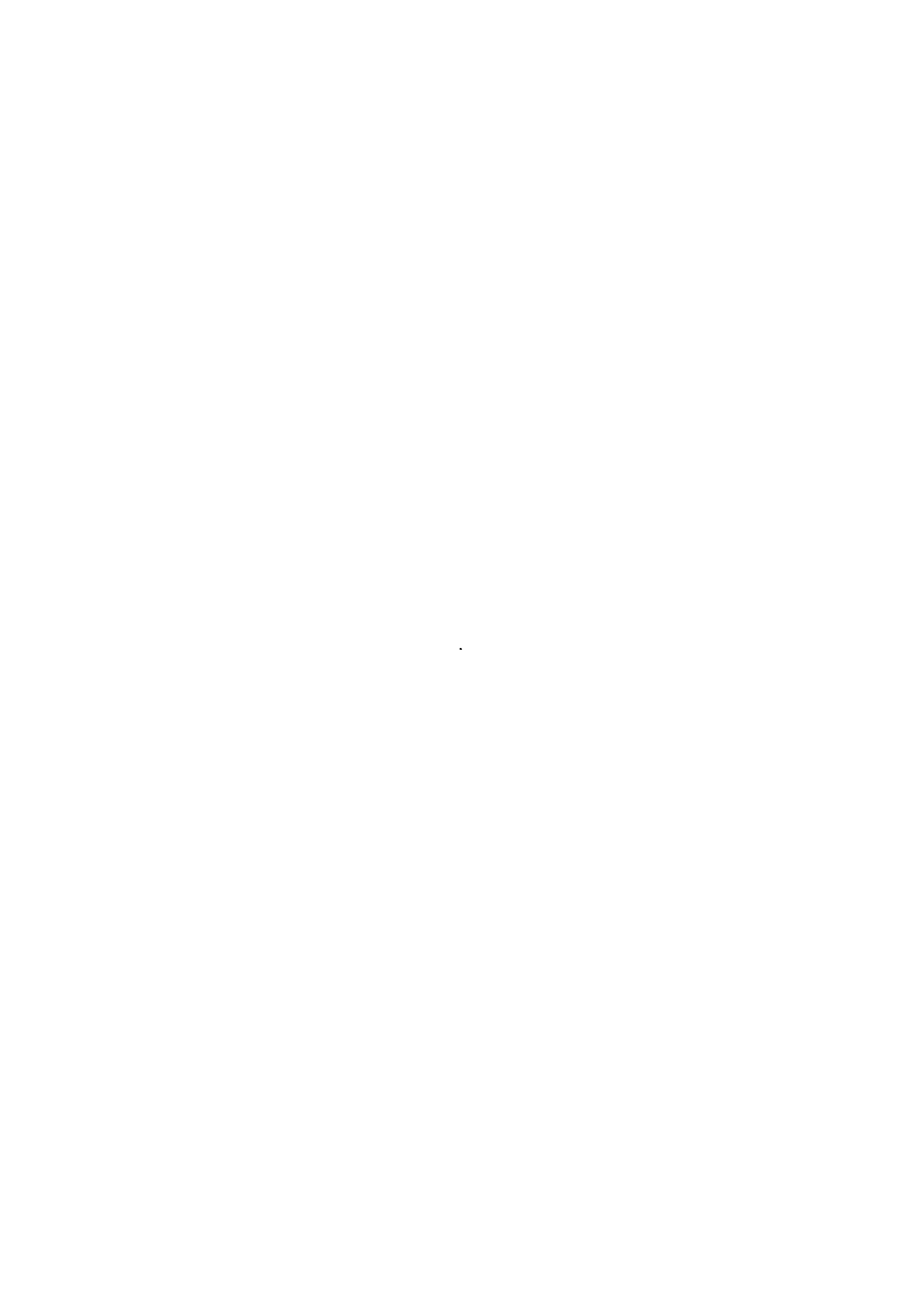
الدهر : [في دهشة وغضب] ما هذا؟ ماذا تفعلون هنا؟ من أنتم؟ لماذا لونكم غير أزرق؟ من أين دخلتم؟

[يتقدم إليه مهددًا بمنجله].

بسمة النور : [إلى تيلتيل] لا ترد عليه، إن الطائر الأزرق معي، أخفيه تحت وشاحي، فلنهرب من هنا، أدر الماسة وسترى أنه سيعجز عن اقتفاء أثرنا.

[ينسللون بين الأعمدة إلى اليسار ويخرجون].

[ستار]



الفصل السادس

المنظر الحادى عشر: الوداع

[المسرح يمثل جدارًا يشقه باب صغير، الوقت: طلوع الفجر، يدخل تيلتيل وميتيل وبسمة النور والرغيف وقمع السكر والنار واللبن].

بسمة النور : ما هذا المكان فى تخمينك؟ ستعجز عن الإجابة ولا ريب؟

تيلتيل : طبعًا لا أستطيع أن أجيب وكيف أعرفه وأنا لم أره من قبل؟

بسمة النور : ألا يتبين لك هذا الجدار وهذا الباب الصغير؟

هـو : هذا جِدار أحمر وباب صغير أخضر.

بسمة النور : ألا يذكرك هذا الباب بشىء؟

هــو : يذكرنى بالباب الذى خرجنا منه هربًا من الدهر.

بسمة النور : ما أغرب حال الناس حين يعيشون فى الأحلام، يدهم أمامهم يرونهــا ولكنهم لا يعرفونها.

هــو : من الذى يحلم؟ أهو أنا؟

بسمة النور : لعله أنا، من يدرى، ومع ذلــك فهــذا الجدار يسور بيتًا أنت رأيته مرارًا منذ مولدك.

هــو : تقولين إننى رأيته مرارًا؟

بسمة النور : صح النوم، هــذا هــو البيــت الــذى غادرناه ذات مساء منذ عام فى مثــل هذا اليوم، لاقبل ولا بعد.

هــو : عام كامل؟ ثم ماذا حدث؟

بسمة النور : لا تجحظ عيناك من الدهشة كأنهما بحيرتان من الياقوت، إنه هو البيت بيت والديك.

هـو : [يقترب من الباب] نعم، أظنه هو، يخيل إلى، هذا الباب الصغير، عرفت الآن مزلاجه، هل سأجد أهلى داخله؟ هل نحن الآن بالقرب من أمى؟ أود أن أدخل فورًا، وأعانقها توًّا.

بسمة النور : انتظر لحظة، إنهما غارقان فى سبات عميق. ينبغى ألا نوقظهما فجأة، ثم إن الباب لا ينفتح إلا إذا دقت الساعة.

هـو : أية ساعة؟ وهل سيطول انتظارى؟

بسمة النور : كلا مع الأسف، ما هى إلا دقائق قليلة.

هـو : ألا يسعدك الدخول معى؟ ماذا بك يا بسمة النور، إنك شاحبة اللون حتى ليقال إنك مريضة.

بسمة النور : أنا بخير يا بنى، ولكنى أحس بمسحة من الحزن لأننى سأفارقكم.

هـو : تفارقيننا؟

بسمة النور : لامفر من ذلك. لم يعد لى ما أعمله هنا، لقد حال الحول، فإن الجنية ستعود وتطالبك بالطائر الأزرق.

هـو : ولكن الطائر الأزرق ليس معى، فإن طائر عالم الذكريات قد اسود لونه، وطائر عالم الغد احمر لونه، وطيور فحمة الليل قد ماتت ولم أستطع اقتناص طائر الغابة، هل الذنب ذنبى إذا بدلت الطيور ألوانها أو ماتت أو طارت من يدى وهل ستغضب الجنية، وماذا عساها تقول؟

بسمة النور : فعلنا كل ما قدرنا عليه، لامفر من الاعتقاد بأن الطائر الأزرق لا وجود له إذ إنه يبدل لونه داخل القفص.

هـو : وأين القفص؟

الرغيف : ها هو ذا يا سيدى، لقد كلفت بحمله والحرص عليه خلال هذه الرحلة الطويلة المليئة بالأخطار، والآن قد انتهت مهمتى فإنى أعيده إليك سليمًا محكم الإغلاق كما تسلمته، [يتخذ لهجة الخطيب] والآن، باسم جميع الحاضرين أستأذنكم فى أن أضيف كلمتين.

النار : لم يأذن له أحد بالكلام.

الماء : سكوت. سكوت.

الرغيف : هذه المقاطعات الخبيثة من عدو حقير أو من منافس حقود (يرفع صوته) لا تمنعنى من أداء واجبى حتى النهاية، لذلك، نيابة عن الجميع أقول..

النار : من أذنك أن تتكلم نيابة عنى، أليس لى لسان؟

الرغيف : [مستمرًا] نيابة عن الجميع أقول، تعبيرًا عن عاطفة لم يمنعها إضمارها من أن تكون صادقة وعميقة، أننا نودع الصبيين الصغيرين اللذين اختارهما القدر، بعد أن تمت اليوم مهمتنا، فإذا قلنا وداعًا فإنما نعبر عن حزننا ومودتنا وتقديرنا المتبادل...

هـو : ماذا؟ تقول وداعًا؟ أتتركنا أنت أيضًا؟

الرغيف : لا مفر من ذلك مع الأسف، نعم، سأفارقكما ولكنه فراق فى الظاهر، فلا يجدّ إلا أن آذانكم لن تسمعنى أتكلم.

النار : لحسن الحظ!

الماء : سكوت. سكوت..

الرغيف : [لا يبالى المقاطعة وفى لهجة جادة] إننى أتجاهل هذه المقاطعة، أعود فأقول إن أذانكم لن تسمعنى أتكلم، لن ترونى فيما بعد نابضًا بالحياة، ستعمى عيونكم

عن رؤية سريرة الأشـــياء، ولكنـــى سأكون هناك دائمًـــا، فـــى صـــندوق الخبز، وعلى الألواح وعلى المائـــدة، بجانب قدر الحساء، فإنى بين أطعمـــة الإنسان – إن جاز لى القول – أشدها إخلاصًا له وأقدمها صحبة.

النار : مهلاً. مهلاً وأنا؟

بسمة النور : رشادكم، الوقت يمر، والساعة توشـــك أن تدق، حينئذ تدخلون عالم الصـــمت فأسرعوا بمعانقة الصغيرين.

النار : [تسرع إليهما] أنا أولاً، أولاً أنا [تعانقهمـــا بحرارة وعاطفة ملتهبة] وداعًا يا تيلتيـــل، وداعًا يا ميتيل، وداعًا يـــا عزيـــزى، اذكرانى إذا حدث ذات يوم أن احتجتما إلى من يشعل لكما نارًا..

هـــو : أى أى، إنها تحرقنى.

هـــى : وتلهب أنفى.

بسمة النور : رشادك يا نار، بعض هذا الانـــدلاق!
إنك لا تعانقين مدفئة..

الماء : يا لها من غبية.

الرغيف : وقليلة الأدب.

الماء : [تقترب من الصبيين] عناقى لكما كله ود
ولا أذى منه.

النار : احترسا فإنها ستبللكما.

الماء : إننى عطوف رقيقة، سائغة للشاربين.

النار : وما قولك فى الغرقى؟

الماء : أوصيكما بحب النافور، وأصغيا إلـــى
خرير الجداول فإنى سأكون هناك.

النار : أهو كلام أو طوفان؟

الماء : فإذا جلســتما مســاء علـــى ضــفاف
الجداول، والغابة هنــا مليئـــة بهــا –
فأصيخا لها السمع لتفهما ماذا تريد أن
تقوله لكما، إن الدموع تخنقنى وتمنعنى
عن الكلام.

النار : لا يطابق حالها قولها.

الماء : واذكراني إذا رأيتما الإبريق، وستجداني أيضًا فى الكوز، والبئر، والمرش، والصنبور.

قمع السكر : [وهو يبالغ بطبعه فى الرقة والتجمل] وإذا بقى ركن ولو صغير فى ذاكرتكما فلا تنسيا أن صحبتى كانت أحيانًا حلوة، لكما، لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك، فإن الدموع غير موصوفة لطبعى، وإذا سقطت على قدمى أذابتهما.

الرغيف : يا منافق!

النار : [مقلدة صوت الباعة] سكر نبات، ملبس، كراميلا.

هــو : وأين اختفى تيلو وتيليت. ماذا يفعلان؟

[تسمع صرخات عالية تنبعث من القهوة].

هـــى : [فى انزعاج] هذه تيليت تتهنه، هى فـــى شدة من الألم.

[وتدخل الهرة جريًا، انتفش شـــعرها وتلبــد، تمزقت ثيابها، تضع منديلاً على خدها كأنمـــا تتوجع من أضــــراسها، تتــوالى لها تنهدات لا تخلو من غضب، والكلب يزنقها ويخبطها برأسه ويده وقدمه].

الكلب : [وهو يضـــرب الهرة] خـــذى أيكفيـــــك هـــذا أم تريدين المزيد خذى.. خذى.

[بسمة النور تيلتيل وميتيل يســـارعون إلـــى فصـــلهما: تيلو! أجننت؟ العجــب لك. أرقد ألا تنتهى؟ من يصدق؟ كفى كفى]. [يفصلون بين الاثنين بهمة].

بسمة النور : ما هذا؟ ما الذى حدث؟

الهرة : [تتباكى وتمسح الــدموع] إنه هـــو الـــذى اعتدى على يا سيدتى بسمة النور، لقد أهاننى وشتمنى ووضع المسامير فـــى

حسائى وشد ذيلى وانهال على ضربًا
وأنا لم أفعل له شيئًا.

الكلب : [يقلدها ساخرًا] لم أفعل له شيئًا! [يغيظهـا
بوضـع الآن شـىء، فقـد ضـربتك،
وضربتك ضربًا موجعًا، وسأضربك.

هـى : [تأخذ الهرة فى حضنها] تيليت يا مسكينة.
أرينى موضع الألم، إننى سأبكى أنـا
أيضًا..

بسمة النور : [تزجر الكلب] مما يزيد من حماقتك أنك
اخترت لحظة هى فى ذاتهـا مؤلمـة
لتعرض علينا هـذا المشهد المشـين،
ألا تعلم أنها لحظة الوداع؟

الكلب : [وقد هدأ فجأة] أهو وداع الصبيين؟

بسمة النور : نعم، فالساعة التـى تعرفهـا سـتدق
وسنرتد إلى عالم الصمت فلا نستطيع
بعد ذلك أن نكلمهما.

الكلب : [تتد عنه ولوله صادقة ملؤها اليأس ويرتمى على الصـبيين ويرشـقهما بقـبلات حـارة هوجـاء] كلا، كلا، أبدًا أبـدًا، سـأظل أكلمهما، أنت تفهمنى الآن يا مـولاى، أليس كذلك؟ نعم. نعم. سأقول لك كـل شىء، وستقول لى كل شىء، لن تشكو بعد من سوء أدبى، وسأتعلم القـراءة والكتابة ولعب الدومينو، وسأكون دائمًا نظيفًا، ولا أسرق شيئًا من المطـبخ. أتريد أن أريـك لعبـة مـن ألعـابى المدهشة؟ أتريد منى أن أعانق الهرة؟

هـى : [للهرة] وأنت يا تيليـت، أليس عنـدك ما تقولينه لى؟

الهرة : [وقد أحرجت وهى تتكتم نياتهـا] سـتلقيان منى الحب ما دمتما جديرين به.

بسمة النور : الآن جاء دورى يا عزيزى لأقبلكمـا للمرة الأخيرة.

[تيلتيل وميتيل يتشبثان بثياب بسمة النور، كلا. كلا، يا بسمة النور، إبقى معنا، أبونا لا يعترض. وأمنا ستقول لها إنك كنت في غاية الطيبة معنا].

بسمة النور : لا أستطيع مع الأسف فإن هذا الباب موصد دوننا وينبغى لى أن أفارقكما.

هو : وأين تذهبين وحدك؟

بسمة النور : غير بعيد يا عزيزى، سأكون هناك.. في عالم الصمت.

هو : لا. لا. لا أريد فراقك، سنذهب معك، وسنقول هذا لأمى.

بسمة النور : لا تبكيا يا عزيزى، ليس لى مثل ما للماء من صوت، فليس عندى إلا ضيائى وهو شيء لا يسمعه الإنسان. ولكنى سأظل ساهرة على هذا الإنسان إلى الأبد، واذكرا دائمًا أننى هى من تكلمكما في كل شعاع من القمر، وفى

كل بسمة من نجم، فى كل فجر يبزغ،
فى كل مصباح يوقد، فى كل خاطرة
خيرة بريئة فى قلبيكما، [تدق الساعة
خلف الجدار ثمانى دقات] انصتا، دقت
الساعة، فوداعًا، الباب ينفتح، ادخلا،
ادخلا، مع السلامة، مع السلامة.

[تدفع الصبيين عبر الباب الصغير الذى ينفتح
ثم ينغلق عليهما. يمسح الرغيف دموعًا
منفلتة، أما قمع السكر والماء فينخرطان فى
البكاء ثم يتفرق الجميع سراعًا كأنهم يهربون
ويخرجون إلى اليمين وإلى اليسار.

يسمع نباح الكلب من ناحية، ويظل
المسرح خاليًا برهة قصيرة ثم ينشق من
الوسط منظر الجدار والباب الصغير ليكشف
عن المنظر الأخير].

المنظر الثانى عشر

اليقظة

[هو عين المنظر الأول، ولكن كأنما مست يد سحرية كل الأشــياء، الجو والجدران، فإذا بها تنم عن الصفاء والبشر والسعادة، ينفــذ ضــوء النهار من خصاص النافذة وينشر البهجة، تيلتيل وميتيل غارقان فى النوم فى مهديهما على اليمين فى آخر الحجرة، والكلب والهرة وباقى الأشــياء تلزم الوضع الذى كانت عليه فى المنظر الأول قبل دخول الجنية].

[تدخل الأم تيل].

الأم : [وهى تزجر الصبيين فى حنو وانشراح] هيا هيــا، عــلى أقــدامكم يا كســالى، ألا تخجلان؟ لقد دقت الساعة الثامنــة وعلت الشمس أشجار الغابة، يا له من

نوم عميـــق [تتحنـــى وتقبلهمـــا] علــــى وجناتهما صبغة الورد، ويفوح منهمـــا عطـــر الزهـــور، [تقبلهما مرة أخـــرى] ما أسعدنى يا أولادى! ولكن ينبغـــــى أن لا أطيـــل نومكما حتى الظهـــــر وإلا شببتما على الكسل، ثم إنى سمعت أن طول النوم مضر بالصحة، ها هما يستيقظان. ماذا بك؟ [إلى تيلتيل] كأنمـــا عشيت عيناك.

هــــو : [وهو يفرك عينيه] أمى. أمى، أنت التـــى أرى..

الأم : نعم بالطبع، أنا أمك، لم يتبدل وجهـــى هذه الليلة، ماذا بك حتى تنظـــر إلـــى بمثل هذه الدهشة؟ هل انقلـــب أنفـــى فأصبح تحته فوقه.

هــــو : ما أسعدنى برؤيتك، كأننى لم أرك منذ زمن طويل. ينبغى أن أعانقك فـــورًا،

مرة بعد مرة، أحقًا أن هذا هو فراشى؟
أحقًا إننى فى البيت؟

الأم : ماذا دهاك، ألم تستيقظ بعد؟ هل أنت مريض؟ دعنى أرى. اخرج لسانك، هيًا، قم والبس ثيابك.

هـو : عجبًا، أرى أننى لا ألبس إلا قميصى.

الأم : طبعًا، أنت لا تلبس غيره عند النوم، هيًا، البس سترتك وسروالك، إنهما هناك فوق المقعد.

هـو : هل كنت ألبسها فى أثناء الرحلة؟

الأم : عن أى رحلة تتحدث؟

هـو : رحلتى فى العام الماضى.

الأم : العام الماضى؟

هـو : نعم، فى عيد الميلاد، حينما خرجت من البيت.

الأم : خرجت من البيت؟ إنك لم تغادر هذه الحجرة، لقد وضعتك فى الفراش أمس

وها أنذا أجدك فيه هذا الصباح، هل رأيت فى الحلم كل ما تقوله لى؟

هو : أنت لا تفهمين، رحلة العام الماضى حينما خرجت مع ميتيل والجنية وبسمة النور – على فكرة، بسمة النور ست طيبة جدًّا – وكان معنا الرغيف وقمع السكر والماء والنار ولم ينقطع بينهما الشجار. هل أغضبك رحيلى، هل أحزنك كثيرًا، وماذا قال أبى؟ لم أستطع أن أرفض الرحيل فتركت رسالة أشرح فيها...

الأم : ما هذا الهراء، لا ريب أنك مريض أو أنك لا تزال غارقًا فى النوم [تربت عليه بحنان] هيًا، استيقظ، هل وعيت لنفسك؟

هو : أؤكد لك يا أمى.. صدقينى، لعل المستغرق فى النوم هو أنت.

الأم : كيف أكون مستغرقة فى النوم، إننى مستيقظة وأعمل منذ الساعة السادسة، فنظفت البيت وأشعلت النار فى المدفأة.

هو : اسألى ميتيل وسترين أننى لا أكذب، كم رأينا من مغامرات؟

الأم : ميتيل أيضًا؟ هذه حكاية طويلة.

هو : إنها كانت معى، ورأينا جدى وجدتى.

الأم : جدك وجدتك؟

هو : فى عالم الذكريات، كان فى طريقنا، هما بين الأموات ولكن صحتهما حسنة، وقد صنعت لنا جدتى فطيرة تفاح بديعة ورأينا إخوتنا روبير وجان ومعه نحلته، ومادلين وبيريت وبولين ثم ريكيت.

هى : ريكيت تحبو ولا تمشى.

هو : أما بولين فدملها لا يزال على أنفها.

هـــى : ورأيناك أنت أيضًا يا أمى مساء أمس.

الأم : لا عجب فى ذلك فقد أرقدتكما مســاء أمس.

هــو : كلا كلا، إنما رأينــاك فــى فــردوس الأرض، وكنت أبهى جمــالاً ولكــن شبهك لم يتغير.

الأم : فردوس ألأرض؟ لست أعرفه!

هــو : [يتأملها ويعانقهــا] كنت أمس أبهى جمالاً ولكنى أحبك كما أنت الآن.

هـــى : [تعانقها] وأنا أيضًا..

الأم : [وقد رق لهما قلبها ولكــن القلــق لا يــزال يساورها] يا إلهى! ماذا دهاهما، سأفجع فيهما كما فجعت فى إخوتهما، [تنــزعج فجأة وتنــادى] بابا تيل، بابا تيل، تعــال سريعًا، أولادنا مرضى.

الأب : ماذا جرى؟

هو وهى : [يجريان إليه ويعانقانه فى فـرح] هذا هـو بابا، هذا هو بابا، صباح الخير يا بابا، هل كانت السنة الماضية سنة رخاء؟

الأب : لم الانزعاج؟ ما السبب؟ لـم أرهمـا مريضين، بل هما فى أحسن صحة.

الأم : [وعيناها تدمعان] لا تخدعك الظواهر، فلعل حالهما هو حال أخوتهما وقت أن فجعنا فيهم. كانوا فى أتم صحة إلـى آخر يوم. ثم توفاهم الله إلى رحمتـه، لا أدرى ماذا جرى لهما، لقد أرقدتهما أمس فى الفراش وهما فى أحسن حال، ما أيقظتهما هذا الصباح إذا هما فـى أسوأ حال، أصابهما الهذيان ولا كلام لهما إلا عن رحلـة موهومـة، رأيـا خلالها بسمة النور وجدهما وجدتهما، يقولان إنهما بـين الأمـوات ولكـن صحتهما حسنة.

هــو : جدى لا تزال له ساقه الخشبية.

هــى : وجدتى لا تزال تشكو من الروماتزم.

الأم : هل سمعت. اجر لتنادى الطبيب.

الأب : لا. لا. وهل همـــا يحتضـــران حتـــى أناديه؟ لننتظر ماذا سـيحدث لهمـــا. (يسمع دق على الباب) ادخل..

الجارة : صباح الخير، وكل عيد وأنتم جميعًـــا فى صحة وسلامة.

هــو : هذه هى الست غرباوية.

الجارة : جئت لآخذ قليلاً من الحطب، لأطـبخ عليه حساء العيد، فالجو بـارد هـذا الصباح، صباح الخير يا أطفال. كيف الحال؟

هــو : يا ست غرباوية، لم أجد لك الطـــائر الأزرق.

الجارة : ماذا يقول؟

الأم : مصيبة يا ست غريبة، إنهما يهـذيان، هذا هو حالهما منذ أن استيقظا، لا شك أنهما أكلا شيئًا أضر بهما.

الجارة : طيب يا تيلتيـل، ألا تعـرف السـت غُريبة، جارتك الست غُريبة؟

هـو : نعم أعرفك، أنت السـت غرباويـة، أغاضبة أنت منى؟

الجارة : غرباوية؟

هـو : غرباوية.

الجارة : تريد أن تقول غُريبة؟

هـو : غرباوية، غُريبة، كما تشائين، إن كنتم فى شك فاسألوا ميتيل.

الأم : الداهية السوداء أن ميتيل تهذى أيضًا.

الأب : كلام فارغ، سينقطع الهذيان وسـأناول كل منهما صفعة على خده لتنبيهه.

الجارة : لا تفعل، لا لزوم للصفع، فإنى خبيرة بهذه الحالة هى أضغاث أحلام تلم بكل

من يرقد فى ضوء القمر، وابنتى المريضة حالها هكذا فى أغلب الأوقات.

الأم : على فكرة، كيف حالها الآن؟

الجارة : نصف نصف، إنها لا تقوى على مغادرة الفراش ويقول الطبيب إنها مسألة أعصاب، ومع ذلك فإنى أعلم أين دواؤها وقد طلبته منى فى هذا الصباح ليكون هديتها يوم العيد. إنها على يقين من أنه دواؤها الشافى. هكذا تحدثها نفسها.

الأم : نعم، أعلم يقينها هذا، تؤمن أن لا دواء يشفيها إلا عصفور تيلتيل، فهى لا تنفك تطلبه. إذن يا تيلتيل، ألم تطب نفسك بعد بإهدائه إلى هذه الفتاة المسكينة؟

هو : هو لى فكيف أهديه يا أمى؟

الأم : هو لى، هو لى، ولكنك لا تعنى به. بل لا تلقى عليه نظرة فهو من شدة الحسرة يوشك أن يموت منذ زمن طويل.

هو : نبهتنى يا أمى، الآن تذكرت عصفورى. أين هو؟ ها هو القفص. ميتيل! أترين القفص؟ هو الذى كان فى يد الرغيف. نعم، هو بعينه، ولكن ليس به إلا عصفورى، فأين الآخر، الطائر الأزرق، هل أكله عصفورى؟، انظرى انظرى! يا للعجب، فى القفص طائر أزرق، وما هو إلا عصفورى، هو بعينه، وإن كانت زرقته قد زادت، إنه الطائر الأزرق الذى طالما سعينا وراءه فلم ننجح فى اقتناصه، على حين إنه كان موجودًا فى بيتنا طول الوقت، هذا شىء مدهش، هذا شىء

بديع، ميتيل، أترين العصفور قد عرفنا الآن أنه الطائر الأزرق. ماذا كانـــت تقول بسمة النور لو رأتـــه؟ ســأنزل القفص. [يقف على المقعد وينزل القفــص ويعطيه للجارة]. ها هو العصفور يا ست غريبة، إن كان فى زرقته الآن نقص فإنه سيستكملها فيما بعـــد، وســـترين، ولكن هيًّا، احمليه سريعًا إلى بنتك.

الجارة : أجادٌّ أنت؟ حقًّا ما تقول؟ تعطيه لى هبة منك؟ من فورك، وبلا عـــوض؟ رب، كم ستسعد هديتك ابنتى.

هـــو : اذهبى بسرعة، فبعض الطيور تبـــدل أحيانًا لونها.

الجارة : سأعود لأخبرك بما قالته ابنتى..

[تخرج].

هــو : [يطيل التأمل فيما حوله] بابا، ماما، مـــاذا فعلتما بالبيت؟ إنه عين البيت ولكنـــه أكثر جمالاً.

الأب : كيف زاد جماله؟

هــو : نعم، كأنما زادت عليه يد بطلاء جديد، وبالترميم والإصلاح، فكل شيء لامع ونظيف، لم تكن هذه حاله فى الســنة الماضية.

الأب : السنة الماضية؟

هــو : [يذهب إلى النافذة] وهــذه الغابــة التــى أراها، ما أكبرها، ما أجملها، إنها لتبدو لعينى كأنها غابة جديدة أراهـــا لأول مرة، ما أسعدنى هنـــا، [يــذهب ليفــتح صندوق الخبز] أين الرغيف؟ إنه راقــد باطمئنان، ثم أين تيلو؟ مرحبًا يا تيلو. والعراك فى الغابة. هل تذكره؟

هــى : وتيليت عرفتنى ولكنها لا تكلمنى.

هــو : سأكلم الآن الرغيــف، [يلمــس جبهتــه] عجبًا، لم تعد الماسة معى، فمن الــذى أخذ قبعتى الصغيرة الخضراء؟ لا بأس فإنى لست فى حاجة إليها. [ينظر إلــى المدفئة] آه! هذه هى النــار. مــا ألــذ جوارها، إنها تئز وهى تضحك لتغيظ الماء [يجرى إلى الصــنبور] يا ماء! أهلاً بك، ماذا تقول؟ إنها ماضية فى الكلام ولكنى لم أعد أفهمها بوضوح.

هــى : وأين قمع السكر فإنى لا أراه.

هــو : ما أسعدنى هنا. ما أسعدنى.

هــى : وأنا أيضًا، وأنا أيضًا.

الأم : ماذا بهما ليدورا فى البيت هكذا..

هــو : أما أنا فقــد أحببــت بســمة النــور بالأخص، أين المصباح؟ هل أســتطيع أن أضيئه؟ [وهو متماد فى التلفت حولــه] كل ما أرى جميل، ما أسعدنى!

[يسمع دق على الباب].

الأب : ادخل.

[تدخل الجارة الست غريبة ممسكة بيد بنت صغيرة شقراء بهية الجمال تحضن عصفور تيلتيل الأزرق].

الجارة : أرأيتم المعجزة؟

الأم : من يصدق؟ إنها تمشى!

الجارة : تمشى، وتجرى، بل ترقص.. حين رأت العصفور نهضت من فراشها إلى النافذة قفزة واحدة لتتبين فى النور هل العصفور الذى جئتها به هو حقًّا عصفور تيلتيل، وإذا بها تنطلق فجأة إلى الطريق، كأنها ملاك يطير، لم أستطع اللحاق بها إلا بعد جهد شديد.

هو : [يقترب منها وينظر إليها بدهشة] ما أشبهها ببسمة النور!

هى : ولكنها أضأل منها جسمًا.

هـو : حقًا، غير أنها ستنمو..

الجارة : ماذا يقولان؟ ألم يقلعا عن الهذيان؟

الأم : هما الآن أحسن حالاً وستمر الأزمة، وسيشفيان من الهذيان حين يتناولان الفطور.

الجارة : [تدفع ابنتها لتعانق تيلتيل] اذهبى إليه يا بنتى وأشكريه.

[تيلتيل يغلبه الخجل ويتراجع خطوة].

الأم : ماذا بك يا تيلتيل؟ أتستحى من هذه البنت الصغيرة؟ قبلها قبلة كبيرة. [يقبلها قبلة صغيرة] قبلها أفضل من هذا. أين جرأتك المعهودة؟ قبلة أخرى. ولكن ماذا بك؟ كأنك ستبكى..

[تيلتيل بعد أن يقبل الفتاة بخجل يظل واقفًا أمامها برهة وجيزة، يتبادلان النظرات فى صمت ثم يربت تيلتيل على رأس العصفور].

هـو : هل قنعت بزرقته؟

البنت : نعم، أنا راضية به.

هـو : رأيت طيورًا أشد منه زرقة، أما الطائر الذى كملت زرقته فلم نستطع اقتناصه رغم ما بذلناه من جهد.

البنت : لا ضير، فعصفورى جميل.

هـو : وهل أكل؟

البنت : لم يأكل بعد، وما أكله؟

هـو : كل شيء، حب القمح والذرة والشعير وفتات الخبز.

البنت : وكيف يأكل؟ قل لى.

هـو : بمنقاره، تعالى أريك كيف يأكل.

[يمد يده ليتناول العصفور الأزرق من يد البنت فتمانع مدفوعة بغريزة حب التملك وينتهز العصفور الأزرق لحظة ارتباكهما فيفلت ويطير].

البنت : [تند منها صرخة يائسة] ماما، لقد طار.

[ثم تنخرط فى البكاء].

هـو : لا تنزعجى، لا تبكى، فإنى سأقتنصه لك من جديد.

[يخطو نحو مقدمة المسرح، ويخاطب الجمهور – إذا عثر عليه واحد منكم فليتكرم بإعادته إلينا فكلانا أنا والبنت الصغيرة فى حاجة إليه لننعم بالسعادة معًا حين نكبر].

[ختام]

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنــى: حســن كامــــل





مسرحية " كنوك أو انتصار الطب " هى بإجماع النقاد وأساتذة الأدب خير ما كتب مؤلفها الكاتب الفرنسى المعاصر " جيل رومان " ، بل هى المسرحية التى يقوم عليها الجانب الأكبر من مجد مؤلفها ، الذى عرف وذاع صيته فى العالم كله ، وذلك بالرغم من أنه شاعر وقصاص وفيلسوف لا كاتب مسرحيات فحسب ، وكل ذلك على الرغم من أن كثيراً من أساتذة ونقاد الأدب المسرحى وبخاصة فى العالم الأنجلوسكسونى يسمون هذه المسرحية فارس **farce** ، فهى تسمية - إذا صح إطلاقها على هذه المسرحية الجيدة - جديرة بأن تجعلنا نغير حكمنا العام على هذا النوع من المسرحيات الذى ننظر إليه دائماً نظرة تضعه أسفل السلم بالنسبة للأنواع الأخرى من المسرحيات ، فالهزلية ، بمعناها الدارج مسرحية لا تستهدف إلا الإضحاك ، وقلما يؤدى فيها الضحك وظيفة جادة ويكفيها أن تسرّى عن مشاهديها ، وذلك فى حين تعمر مسرحية كنوك بالحقائق النفسية والاجتماعية العميقة مغلفة بروح السخرية المرة
اللذين يمتاز بهما مسرح جيل رومان ، وإن تكن وقائع المسر
فيها إلى حد يكاد يبعدها عن الواقع ، وبالتالى عن المع
الحدوث وهما شرطان يتوافران عادة لما نسميه الملهاة النق
الاجتماعية

تصميم الغلاف: أسامة العبد